التّفسير الجامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الكريم الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

الجُزءُ الحادي والعشرون

سورة العنكبوت (٤٦-٦٩)

ســــورة الــرّوم (١-٦٠)

ســــورة لقمــان (١- ٣٤)

ســــورة السّجدة (١- ٣٠)

ســــورة الأحزاب (١- ٣٠)

سُورَةُ (العنكبوت)

الآيات: (٤٦-٦٩)

تتمّة سورة العنكبوت

(الآية ٤٦) - ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: الحقّ ﷻ يُعلّمنا كيف نجادل أهل الكتاب، وقبل أن نتكلّم عن ألوان الجدل في القرآن الكريم نقول: ما معنى الجدل؟ الجدل: مأخوذ من الجَدْل، وهو فَتْل الشّيء ليشتدّ بعد أنْ كان ليّناً كما نفتل الحبال، ومِن الجدل أُخِذ الجِدال والجَدَل والمجادلة، وفي معناها: الحوار والحجاج والمناظرة، ومعناه أن يوجد فريقان لكلّ منهما رأي يؤيّده ويدافع عنه ليغيّر رأي الآخر، فإذا كان المقصود هو الحقّ في الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفي، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة، فليس القصد هو الحقّ، إنّما أنْ يتغلّب أحد الفريقين على الآخر، والجدل في هذه الحالة له أسماء متعدّدة، منها قوله ﷻ: ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: من الآية ٧٥]، والجدال يكون بين شخصين، لكلّ منهما رأيه الّذي يألفه ويحبّه ويقتنع به، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الّذي يألف إلى رأيك الّذي لا يألفه ولم يعتده، فأنت تجمع عليه أمرين: أنْ تُخرجه عمّا أَلِف واعتاد إلى ما لم يألف، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه بل بجدل لطيف، حتّى لا تجمع عليه شدّتين، فعليك باللّين والاستمالة برفق؛ لأنّ النّصح كما قال شوقي رحمه الله: "ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله

جَدَلاً"، وعادة ما يُظهِر النّاصح أنّه أفضل من المنصوح، لذلك قيل: الحقائق مرّة، فاستعيروا لها خِفَّة البيان؛ لأنّنا نُخِرج خَصْمنا عمّا أَلِف، فلا نخرجه عمّا ألف بما يكره، بل بما يحبّ، فسلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهمّ، وعلى المجادِل أن يراعي بيانه، وأن يتحيّن الفرصة المناسبة، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه، لذلك يُعلِّمنا ربّنا عَزَّ وَجَلَّ أصول الجدل وآدابه؛ لأنّه يريد أن يُخرِج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان، ومن الجحود إلى اليقين، وهذا لا يتأتّى إلّا باللّطف واللّين، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، أمّا بالنّسبة إلى جدال أهل الكتاب، فربّنا عَزَّ وَجَلَّ يُعلِّمنا: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ لأنّهم ليسوا ملحدين ولا مشركين، فهُمْ مؤمنون.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: المعنى أنّ في الجدال (حسناً) و(أحسن)، وقد سبق الجدال الحسن في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: من الآية ٢٤]، وسيّدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلطّف في جدال قومه، فيقول: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: من الآية ٣٥]، فينسب الافتراء إلى نفسه، ويتّهم نفسه بالإجرام إنِ افترى، فإنْ لم يكُنْ هو المفتري والمجرم، فهُمْ، وكذلك يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جدال قومه: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ]، فيذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجريمة في حقّه هو ولا يذكرها في حَقِّ المعاندين المكذِّبين، فأيُّ أدب في الدّعوة أرفع من هذا الأدب؟ فجادل غير المؤمنين بالحسن، وجادل أهل الكتاب كالنّصارى بالّتي هي أحسن، لما يمتازون به عن غيرهم بأنّهم أهل كتاب.

وعبارة: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وردت في القرآن الكريم، لكن في غير الجدل في الدّين، وردت في كلّ شيء يُوجب جدلاً بين أُناس؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، لذلك يقول أحد العارفين:

يا مَنْ تُضايقُه الفِعال مِنَ الّتي ومِنَ الّذي

ادفعْ فديتُك ﴿بِٱلَّتِي﴾ حتّى ترى ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾: إذا كانوا في حالة اعتداء، فمن ظلم منهم يقول تعالى في حقّهم: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤].

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾: فنحن نؤمن بالقرآن الكريم والإنجيل والتّوراة والزّبور، فعلامَ الاختلاف، ما دام أنّ الإله واحد، وما دام أنّ كتابكم نؤمن به، ويذكر الرّسول الّذي يأتي بعد رسولكم؟ ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصّفّ: من الآية ٦].

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: لأنّنا نُسلّم أمورنا لله ﷻ، فالإسلام أن تُسلّم قيادك ومنهجك لمنهج الله ﷻ.

(الآية ٤٧) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾: أي: كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً، والكتب السّماويّة قسمان: قسم يحمل منهج

الرّسول في (افعل كذا) و(لا تفعل كذا)، وذلك مشترك في كلّ الكتب الّتي أُنزِلَتْ على الرّسل، وكتاب واحد هو القرآن الكريم، الّذي جاء بالمنهج والمعجزة معاً، فكلُّ الرّسل قبل محمّد ﷺ كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج، فموسى عليه السلام كان كتابه التّوراة، ومعجزته العصا، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله عز وجل، أمّا رسول الله محمّد ﷺ، فكتابه القرآن الكريم ومعجزته القرآن الكريم، فانظر كيف التقت المعجزة بالمنهج لتظلّ لصيقة به؛ لأنّ زمن رسالة محمّد ﷺ ممتدٌّ إلى قيام السّاعة، فلا بُدَّ أنْ تظلّ المعجزة موجودة؛ ليقول النّاس: محمّد رسول الله ﷺ، وهذه معجزته.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: من قبلك.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾: لأنّه لا سلطة زمنيّة تعزلهم عن الكتاب الجديد، فينظرون في أوصاف النّبيّ الجديد الّتي وردتْ في كتبهم ثمّ يطابقونها على أوصاف رسول الله ﷺ؛ لذلك لـمّا بلغ سلمان الفارسيّ رضي الله عنه أنّ بمكّة نبيّاً جديداً، ذهب إلى سيّدنا رسول الله ﷺ، وأخذ يتأمّله وينظر إليه بإمعان، فوجد فيه علامتين ممّا ذكرتْ الكتب السّابقة، وهما أنّه ﷺ يقبل الهدية، ولا يقبل الصّدقة، فراح ينظر هنا وهناك لعلّه يرى الثّالثة، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله سبحانه وتعالى من فِطْنة النّبوّة الّتي أودعها الله عز وجل فيه، فألقى رداءه، وكشف له ﷺ عن خاتم النّبوّة، وهو العلامة الثّالثة، ومن لباقة سيّدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وقد ذهب إلى سيّدنا رسول الله ﷺ، وهو؛ أي: ابن سلام على يهوديّته، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهتٌ، إِنْ عَلِمُوا

بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ**»، قَالُوا: أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ**»، قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ[(١)].

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: أي: من كفّار مكّة مَنْ سيأتي بعد هؤلاء، فيؤمن بالقرآن الكريم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: الجحد: إنكار متعمّد؛ لأنّ من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً، والجحد يأتي من أنّ النِّسَب إمّا نفي، وإمّا إثبات، فإنْ قال اللّسان: نسبة إيجاب، وفي القلب سَلْب، أو قال: سلب، وفي القلب إيجاب، فهذا ما نُسمّيه الجحود، لكن، لماذا خَصَّ الكافرين في مسألة الجحود؟ قالوا: لأنّ غير الكافر عنده يقظة وجدان، فلا يجرؤ على هذه الكلمة؛ لأنّه يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى لا يأخذ النّاس بذنوبهم الآن، إنّما يُؤجِّلها لهم إلى يوم الحساب، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود.

(الآية ٤٨) - ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾: تتلو: أي: تقرأ، واختار ﴿تَتْلُواْ﴾؛

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ أحاديثِ الأنبياءِ، بابُ خَلْقِ آدمَ عليه السلام وذُرّيّتِهِ، الحديث رقم (٣٣٢٩).

لأنّك لا تقرأ إلّا ما سمعت، فكأنّ قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ، نقول: يتلوه، يعني: يأتي بعده.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾: يعني: الكتابة.

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفّار قريش الّذين يُكذِّبون رسول الله ﷺ، ولوْن من ألوان التّسلية لرسول الله ﷺ، كأنّه يقول سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: اطمئنّ، فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك؛ لأنّك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك، وهم يعرفون سيرتك فيهم، كما قال سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ [يونس]، فلو كان عندك شيء من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر، ولكان في الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب في أمرك، كما قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥﴾ [الفرقان]، وقالوا: ﴿ بَشَرٌ﴾ [النّحل: من الآية ١٠٣]، فردَّ القرآن الكريم عليهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النّحل: من الآية ١٠٣]، وقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا: مجنون، وكلّها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الرّدُّ عليها: فإنْ كان ساحراً، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً، وتنتهي المسألة؟ وإنْ كان شاعراً، فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته؟

وكلمة: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ لها عجائب في كتاب الله عزّ وجلّ، منها هذه الآية: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، فيقول بعض العارفين: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: أي: من قبل نزول القرآن الكريم عليك، وهذا القول: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ يدلّ على أنّه من الجائز أن يكون رسول الله ﷺ قد علم كيف يقرأ

وكيف يكتب بعد نزول القرآن الكريم عليه، حتّى لا يكون في أمّته من هو أحسن حالاً منه في أيّ شيء، أو في خصلة من خصال الخير، ثمّ تأمّل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: من الآية ٩١]، يُدخِل في روع رسول الله ﷺ أنّهم ربّما يجترئون عليه فيقتلونه، فيتهيّب منهم، أو يدخل في نفوسهم هم، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرّر أنّ هذا كان في الماضي، أمّا الآن فلن يحدث شيء من هذا أبداً، ولن يُمكِّنكم الله سبحانه وتعالى من نبيّه ﷺ.

وكلمة: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ تكرّرت كثيراً في كتاب الله عزّ وجلّ، وفيها دليل على أنّ القرآن الكريم خرق كلّ الحجب في الزّمن الماضي، والحاضر، والمستقبل، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: من الآية ٤٤]، وقوله جلّ جلاله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: من الآية ٤٥]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: من الآية ٤٤]، وهنا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، لذلك وصفه ربّه عزّ وجلّ بأنّه: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: من الآية ١٥٧]، وإيّاك أن تظنّ أنّ الأمّيّة عَيْب في رسول الله ﷺ، فإنْ كانت عيباً في غيره، فهي فيه شرف؛ لأنّ معنى أمّيّ يعني على فطرته كما ولدتْه أمّه، لم يتعلّم شيئاً من أحد، وكذلك رسول الله ﷺ لم يتعلّم من الخَلْق، إنّما تعلّم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق، ومن ذلك المكانة الّتي أخذها الإمام عليّ رضي الله عنه في العلم والإفتاء حتّى قال عنه عمر رضي الله عنه الّذي

عُرف عنه سداد الرّأي: "بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن"، لماذا؟ لأنّه كان صاحب حجّة ومنطق وصاحب بلاغة، ألم يراجع الفاروقَ في مسألة المرأة الّتي ولدتْ لستّة أشهر من زواجها، وعمر يريد أنْ يقيم عليها الحدّ؛ لأنّ الشّائع أنّ مدّة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع بعضهم، وقالوا: إنّها سُبق إليها، لكن كان للإمام عليّ ﵁ رأي آخر، فيقول لعمر ﵁: لكنّ الله ﷻ يقول غير هذا، فيقول عمر: وما ذاك؟ قال: ألم يقُل الحقّ ﷻ: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٣٣]؟ قال: بلى، قال: ألم يقل: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقي ستّة أشهر، فإذا ولدتْ المرأة لستّة أشهر، فهذا أمر طبيعيّ لا ارتيابَ فيه، وفي يوم دخل حذيفة على عمر ﵄ فسأله عمر: كيف أصبحتَ يا حذيفة؟ فقال حذيفة: يا أمير المؤمنين، أصبحتُ أحبّ الفتنة، وأكره الحقّ، وأُصلّي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السّماء، فغضب عمر، وعندها دخل عليٌّ فوجد عمر مُغْضباً، فقال: ما لي أراك مغضباً يا أمير المؤمنين؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة، فقال عليّ -كرّم الله وجهه-: نعم يا أمير المؤمنين يحبّ الفتنة؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: من الآية ١٥]، ويكره الحقّ؛ أي: الموت، فهو حقّ لكنّنا نكرهه، ويُصلّي على النّبيّ بغير وضوء، وله في الأرض ولد وزوجة، وليس ذلك لله ﷻ في السّماء، فقال عمر ﵁ قولته المشهورة: "بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن"، فلماذا تميَّز عليٌّ ﵁ بهذه الميزة من العِلْم والفقه والحجّة؟ لأنّه تربَّى في حِجرْ النّبوّة فاستقى من نَبْعها، وترعرع في

أحضان العلوم الإسلاميّة منذ نعومة أظافره، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهليّة، فعندما تتفاعل عنده العلوم الإسلاميّة لا تَلِد إلّا حقّاً.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: أي: لو حصل منك قراءة أو كتابة، ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لَكَان لهم عُذْر ووجهة نظر في الارتياب، والارتياب لا يعني مجرّد الشّكّ، إنّما شكّ باتّهام؛ أي: يتّهمون رسول الله ﷺ بأنّه كان على عِلْم بالقراءة والكتابة؛ لذلك وصفهم بأنّهم مبطلون في اتّهامهم له ﷺ.

(الآية ٤٩) - ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿بَلْ﴾: حرف يُفيد الإضراب عمّا قبله، وتأكيد ما بعده.

﴿هُوَ﴾: أي: القرآن الكريم.

﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: وقال: ﴿فِى صُدُورِ﴾، ولم يقل مثلاً: في ذاكرتهم؛ لأنّ الأُذُن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل، فإنْ قبله يستقرّ في القلب وفي الصّدر، وفيه يتحوّل إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشّكّ ولا يتزحزح، لذلك يقول ﷻ عن القرآن الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشّعراء: الآية ١٩٣- من الآية١٩٤]، فقال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٩٤]؛ أي: مباشرة استقرّ في قلبه، ولم يقُلْ: على أُذُنك.

(الآية ٥٠) - ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: بعد أنْ جاءهم القرآن الكريم وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات معجزات أخرى، وسبق أنْ قلنا: إنّ الحقّ ﷻ

كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوه، فإنْ كذّبوا بعدها أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر، ولنقرأ مثلاً قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]، فلمّا كذَّبوا بالآية الّتي طلبوها أهلكهم الله ﷻ؛ لأنّ المسألة ليست مسألة آيات وإقناع، إنّما هي الإصرار على الكفر، فطلب الإنزال لآية خاصّة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله ﷺ، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]؛ أي: الّتي اقترحوها، ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]، وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السّماء، لكنّ الحقّ ﷻ قطع العهد لرسوله محمّد ﷺ ألّا يُعذِّب أمّته وهو فيهم، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال]، فهذا هو السّبب المانع من أنْ تأتي الآية المقترحة، ثمّ إنّ الآيات المقترحة آيات كونيّة تأتي وتذهب، كما يُشعل الإنسان عود الثّقاب مرّة واحدة، ثمّ ينطفئ، رآه مَنْ رآه، وأصبح خبراً لمن لم يَرَه، أمّا القرآن الكريم فهو معجزة خالدة مستمرّة إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومَن عليها.

وكلمة: ﴿لَوۡلَآ﴾ تُستخدم في لغة العرب استخدامين: إنْ دخلتْ على الجملة الاسميّة، مثل: لولا زيد عندك لَزرتُك، وهي هنا حرف امتناع لوجود، فقد امتنعتْ الزّيارة لوجود زيد، وإنْ دخلتْ على الجملة الفعليّة، مثل: لولا تذاكر دروسك، فهي للحضِّ والحثِّ على الفعل، فقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، كأنّ الآية الّتي جاءتهم من عند الله ﷻ لا يعترفون بها، ثمّ يناقضون أنفسهم حينما يقولون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ

عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، ويردّ الحقّ سبحانه وتعالى عليهم:

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: فهي عند الله عزّ وجلّ، ليست عندي، وليست بالطّلب حسب أهوائكم.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي: هذه مهمّتي، الإنذار والبيان، واختار الإنذار مع أنّه ﷺ بشير ونذير، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار؛ لأنّهم أهل لِجَاج، وأهل باطل وجحود، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة.

(الآية ٥١) - ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الاستفهام هنا للتّعجُّب والإنكار، يعني: كيف لا يكفيهم القرآن الكريم ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته، وجاءهم بالكثير من العِبَر والعجائب؟ فهم يريدون أنْ يتمحّكوا، وألّا يؤمنوا، وإلّا لو أنّهم طلّاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن الكريم آية واحدة ليؤمنوا به.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: لأنّ رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي بعدّة آيات، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع، فلمّا أن يسري عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته رضي الله عنهم كما أُنزِل عليه، فيكتبه الكتبة، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم، وكانوا أمّة رواية وحفظ، ثمّ يأتي وقت الصّلاة فيصلّي بهم رسول الله ﷺ بما نزل عليه من الآيات، يُعيدها كما أملاها، وهذه هبة ربّانيّة منحها لرسوله ﷺ وخاطبه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى]، وإلّا، فَلَك أن تتحدّى أكثر

النّاس حِفْظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً، ثمّ يعيدها عليك كما قالها في المرّة الأولى، لن يستطيع.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾: لكن لمن؟

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: لأنّ القرآن الكريم لا يثمر إلّا فيمن يُحسِن استقباله ويؤمن به، أمّا غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى، لا يفقهونه ولا يتدبّرونه؛ لأنّهم يستقبلونه بغير صفاء نفس، وإنّما ببُغْض وكراهية استقبال، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته، لذلك يقول سبحانه وتعالى في الّذين يُحسِنون استقبال كلام الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصّلت: من الآية ٤٤]، أمّا الّذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله، فيقول عنهم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصّلت: من الآية ٤٤]، وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

(الآية ٥٢) - ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿قُلْ﴾: أي: للمنكرين لك.

﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾: أي: حسبي أن يشهد الله سبحانه وتعالى لي بأنِّي بلّغْتُ، فشهادتكم عندي لا تنفع، كما أنّه لا ينفعني إيمانكم، ولا يضرّني كفركم، فأجري آخذه من ربّي عزّ وجلّ على مجرّد البلاغ وقد بلَّغْتُ، وشهد الله جلّ جلاله لي بذلك، فلا بُدَّ من فَصْل في هذه الخصومة، وإذا ما نظرنا

إلى قضايا الخَلْق في الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقرّ المتّهم، وإمّا أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور، ثمّ يعرض الأمر على القاضي ليحكم بالشّهادة أو البيّنة، ولا بُدَّ في القاضي ألّا يكون صاحب هوى، ثمّ يأتي دور تنفيذ الحكم، وهي السّلطة التّنفيذيّة، وهذه أيضاً ينبغي ألَّا يكون لها هوى، فتنفّذ الحكم على حقيقته، فكأنّ الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعدّدة، وقد تتميّع الحقائق إذا لم تتوفّر الشّروط اللّازمة لهذه الأطراف، فلو شهد الشّاهد زوراً أو مال القاضي أو المنفِّذ للحكم ودلَّس في التّنفيذ لانقلبت المسائل، أمّا في حكومة الحقّ سبحانه وتعالى في الخصومة بين سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم وقومه، فكفى به جل جلاله حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً، لماذا؟ لأنّه سبحانه وتعالى:

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾: فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، يعلم السّرّ وأَخْفى، فأيُّ شهادة أعدل من شهادته؟ وهو سبحانه وتعالى قاضٍ عادل يحكم بالحقّ؛ لأنّه ليس له جل جلاله هوىً يميل به إلى الباطل، وهو عز وجل لا يُبدّل في تنفيذ الأحكام؛ لأنّه يُنفّذ حكمه هو سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: أي: بعبادة ما دون الله عز وجل من الأصنام والأوثان أو البشر أو الشّهوات وملذّات النّفس.

﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾: الخالق واجب الوجود.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: لأنّ كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثّر في ذاته سبحانه وتعالى، ولا في صفات الكمال فيه؛ لأنّه سبحانه وتعالى بصفات الكمال خلقهم، فله جل جلاله صفات الكمال، آمنوا أم كفروا.

(الآية ٥٣) - ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣﴾:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾: عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب، وأن يستعجله إن أبطأ عليه، فما طلبه هؤلاء إلّا لاعتقادهم أنّه غير واقع بهم، وإلّا لو وَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه.

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾: لأنّ كلّ شيء عند الله عز وجل بميقات وأجل، والأجل يختلف باختلاف أصحابه، وهو أجل النّاس وأعمارهم، وهي آجال متفرّقة فيهم، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً، ويتّفقون فيه، ويكون في وقت واحد، وهو أجل السّاعة، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: من الآية ٣٤]؛ أي: بآجالهم المتفرّقة، أمّا أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده سبحانه وتعالى، ومن عجيب الفرْق بين الأجلين أنّ الآجال المتفرّقة في الدّنيا تنهي حياة، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة.

ومعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ أنّ المسألة ليست على هواهم ورغباتهم؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٧]، ويقول: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٧]، لذلك لمّا عقد النّبيّ صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية بينه وبين كفّار مكّة، ورضي أنْ يعود بأصحابه دون أداء العمرة غضب الصّحابة، ولم يعجبهم هذا الصّلح، وكادوا يخالفون رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرةً منهم على دينهم، حتّى أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم دخل على أمّ سلمة رضي الله عنها وقال: هلك النّاس، قالت: ولم يا رسول الله؟ قال: أمرتهم فلم يمتثلوا، فقالت: يا رسول الله اعذرهم، فهم مكروبون، جاؤوا على شَوْقٍ

لبيت الله ﷻ، وكانوا على مقربة منه، ثمّ يُمنعون ويُصدُّون، اعذرهم يا رسول الله، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله ﷻ به ودَعْهم، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا، وعلموا أنّ ذلك عزيمة، وفعلاً ذهب رسول الله ﷺ، وتحلّل من عمرته، ففعل القوم مثله، ونجحت مشورة السّيّدة أمّ سلمة ﵂، وأنقذت الموقف، ثمّ بيَّن الله ﷻ لهم الحكمة في العودة هذا العام دون قتال، ففي مكّة إخوان لكم آمنوا، ويكتمون إيمانهم، فإنْ دخلتم عليهم مكّة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم، وكان عمر ﵁ كعادته شديداً في الحقّ، فقال: قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ ﷺ: «**بَلَى**»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنا إذًا؟ قالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**»، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إذاً؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ..(١)، يعني قِف عند حدِّك وحجِّم نفسك، ثمّ قال بعدها ليبرّر هذه المعاهدة: ما كان فتح في الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية، وقد كان سبباً في فتح مكّة؛ لأنّ الحديبية انتزعت من الكفّار الاعترافَ بمحمّد ﷺ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته.

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الشُّروطِ، باب ١٥، الحديث رقم (٢٧٣١).

﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾: يعني: فجأة، وليس حسب رغبتهم.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: لا يشعرون ساعتها؟ أم لا يشعرون الآن أنّها حقّ، وأنّها واقعة لأجل مسمّى؟ المراد: لا يشعرون الآن أنّها آتية، وأنّ لها أجلاً مُسمّى، وسوف تباغتهم بأهوالها، فكان عليهم أن يعلموا هذا عند نزول القرآن الكريم، وأن يؤمنوا بها، فليس المراد أنّهم لا يشعرون بالبغتة؛ لأنّ شعورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشيء.

(الآية ٥٤) - ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾:

أي: قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العذاب فهو آتٍ لا محالة، وإنْ كنتم في شوق إليه فجهنّم في انتظاركم، بل ستمتلئ منكم، وتقول: هل من مزيد؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوّة وضعفاً، وإحاطة وشمولاً، فإذا كان المعذِّب هو الله ﷻ فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين.

﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الإحاطة أن تشمل الشّيء من جميع جهاته، فالجهات أربع: شمال وجنوب وشرق وغرب، وبين الجهات الأصليّة جهات فرعيّة، وبين الجهات الفرعيّة أيضاً جهات فرعيّة، والإحاطة هي الّتي تشمل هذه الجهات كلّها، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، يعني: من كلّ جهاتهم.

(الآية ٥٥) - ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥﴾:

﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾: وفي موضع آخر يقول جلّ جلاله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: من الآية ١٦]، وهاتان الجهتان لا تأتي

منهما النّار في الدّنيا؛ لأنّ النّار بطبيعتها تصعد إلى أعلى، وإنْ كانت تحت القدم تنطفىء، فهذا ترقٍّ في العذاب، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته، إنّما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم، لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب، ويتماسك حتّى لا يُشمَت فيه، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر، عذاب يُهينه ويُذلُّه، ويُقال له: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدّخان]، لذلك وصف العذاب بأنّه: مهين، وأليم، وعظيم، وشديد.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: لم يقل: ذوقوا النّار، إنّما ذوقوا ما عملتم، كأنّ العمل نفسه سيكون هو النّار الّتي تحرقهم.

(الآية ٥٦) - ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾:

بعد أنْ تحدَّث الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الكفّار والمكذّبين أراد أنْ يُحدِث توازناً في السّياق، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكى للكافرين، حين نردف الحديث عنهم، وعمّا يقع لهم من العذاب، بما سيناله المؤمنون من النّعيم، فتكون لهم حسرة شديدة.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: سبق أن قُلْنا: إنّ الخَلْق جميعاً عبيد لله عَزَّ وَجَلَّ، وعبيد الله قسمان: مؤمن وكافر، وكلّ منهما جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مختاراً، المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربّه جَلَّ جَلَالُهُ، وفضَّل مراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على مراد نفسه، فصار عبداً في كلّ شيء حتّى في الاختيار، فلمّا فعلوا ذلك استحقّوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله عَزَّ وَجَلَّ، أمّا الكافر فتأبَّى على مراد ربّه جَلَّ جَلَالُهُ، واختار الكفر على الإيمان، والمعصية على الطّاعة، ونسي أنّه عبد لله عَزَّ وَجَلَّ، مقهور

في أشياء لا يستطيع أن يختار فيها، وكأنّ الله ﷻ يقول له: أنت أيّها الكافر تمرّدْتَ على ربّك، وتأبّيْتَ على منهجه في (افعل) و(لا تفعل)، واعتدْتَ التّمرّد على الله ﷻ، فلماذا لا تتمرّد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت؟ فأنت في قبضة ربّك ﷻ لا تستطيع الانفلات منها، وعليه، فالمؤمن والكافر سواء في العبوديّة لله ﷻ، لكنّ الفرْق في العباديّة حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ﷻ، وفرْق بين عبد يُطيع والعبد الجاحد، وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله ﷻ مختاراً مع إمكانيّة أنْ يكفر.

﴿إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ﴾: يخاطبهم ربّهم هذا الخطاب وهم في الأرض وفي سعتها، ليلفت أنظارهم إلى أنّهم سيُضطهدون ويُعذّبون، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام، فيقول لهم: إيّاكم أن تصرفكم هذه القسوة، إيّاكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضي واسعة فلا تُضيّقوها على أنفسكم، لذلك يقول سيّدنا رسول الله ﷺ: «**الْبِلادُ بِلادُ اللهِ، وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللهِ، فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْراً فَأَقِمْ**»[(١)]، فسمح لهم بالهجرة إلى الحبشة، وبعد ذلك بالهجرة إلى المدينة المنوّرة، لذلك عندما يتحدّثون عن القوانين وعن الأمم المتّحدة، نقول: هناك مبدأ واحد في القرآن الكريم يفوق كلّ المبادئ الّتي وضعتموها، وهو قوله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرّحمن]،

---

(١) مسند الإمام أحمد: مُسْنَدُ باقي العشرة الـمُبَشَّرينَ بالجنَّةِ، مُسْنَدُ الزُّبَيْرِ بْنِ العوّامِ ﷺ، الحديث رقم (١٤٢٠).

والمعنى: الأرض كلّ الأرض للأنام كلّ الأنام، فإن ضاق رزق النّاس في مكان فليطلبه في مكان آخر.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾: أسلوب قَصْر، مثل قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، وفَرْق بين أنْ نقول: (نعبدك)، و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: من الآية ٥]، (نعبدك) لا تمنع أنْ نعبد غيرك، أمّا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: من الآية ٥]، فتقصر العبادة على الله ﷻ، ولا تتجاوزه إلى غيره، فالمعنى: إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك إلى الله ﷻ، وقد فسَّرها النّبيّ ﷺ بقوله: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[(١)].

(الآية ٥٧) - ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٥٧﴾:

يعني: إنْ كنتم ستقولون -وقد قالوا بالفعل- ليس لنا في المدينة دار ولا عقار، وليس لنا فيها مصادر رزق، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا الّتي نعيش فيها، فاعلموا أنّكم لا بُدَّ مفارقون هذا كلّه، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت؛ لأنّ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، ونلحظ في قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، بعد: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ أنّ الخواطر الّتي يمكن أن تطرأ على النّفس البشريّة حين يُشرّع الله ﷻ أمراً يهيّج هذه الخواطر، مثل: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ وما تثيره في النّفس من حبّ الجمع والتّملّك فيجعل لك مع

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابٌ: ما جاءَ إنَّ الأعمالَ بالنِّيَّةِ والحِسْبَةِ، ولكُلِّ امْرِئٍ ما نوى، الحديث رقم (٥٤).

الأمر ما يحدّ من هذه الخواطر، فيقول لك: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾، حتّى لا نطمعَ في حطام الدّنيا، ويُلهينا إغراء المال، فالنّهاية بعد ذلك كلّه الموت، وفقدان كلّ ما جمعت، قال ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرّحمن]، وممّا قيل عن الموت:

نسير إلى الآجال في كلّ لحظةٍ وأعمارنا تُطوى وهنّ مراحلُ

ولم أرَ مثل الموت حقّاً كأنّما إذا ما تخطّته الأمانيُّ باطلُ

وما أصعب التّفريط في زمن الصّبا فكيف به والشّيب للرّأس شاملُ

ترحّل من الدّنيا بزادٍ من التّقى فعمرك أيّامٌ وهنّ قلائلُ

الكبير والصّغير، السّليم والمريض، الغنيّ والفقير، الأمير والمأمور.. كلّ نفس ذائقة الموت، هذا قانون إلهيّ لا يتخلّف عنه أحد أبداً، وقد قيل:

هَبْ أنّك قد ملكت الأرضَ طُرّاً ودانَ لك البلاد فكان ماذا؟!

أليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ويحثو عليكَ التّرب هذا ثمّ هذا؟!

هذه حقيقة الحياة الدّنيا، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: من الآية ٢]، وقدّم الموت على الحياة لتعلم أنّك مجرّد ما ولدت فقد متّ، لذلك يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "يا ساكن القبر غداً، ما غرّك من الدّنيا، هل تعلم أنّك تبقى أو تبقى لك؟! جاء الأمر من السّماء، جاء غالب القدر والقضاء، جاء من الأمر الأجل ما يمتنع منه، هيهات يا مغمض الوالد والولد والأخ ومكفّنه، يا مغسّل الميّت ومخلّيه، يا تاركه وذاهباً عنه، ماذا تقول لملك الموت؟".

إنَّ الطّبيبَ لـهُ علـمٌ يُـدِلُّ بِـه   إن كان للمرءِ في الأيّـامِ تأخيرُ
حتّى إذا ما انتهت أيّامُ رحلتِه   حارَ الطّبيبُ وخانتـه العقاقيرُ

وكان سيّدنا الإمام عليّ بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- يقول: "مسكينٌ ابنُ آدمَ، مَكتومُ الأجل، مَكنونُ العِلَل، محفوظ العمل، تؤلِمه البقَّة، وتقتله الشَّرْقَةُ، وَتُنتِنهُ العَرْقَة، عجبت كيف يفرح بالدّنيا مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح بالدّنيا مَن تقوده حياته إلى موته ويقوده عمره إلى أجله".

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾: ثمّ للتّراخي، والنّتيجة ستُرجعون إلى الله عز وجل.

(الآية ٥٨) - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

هذه في مقابل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: من الآيتين ٥٤-٥٥]، وذكر المقابل لزيادة النّكاية بالكافرين، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]، فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن، ويزيد من حَسْرة الكافر.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: أي: نُنزلهم ونُمكّنِهم منها، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٢١]، يعني: تُنزِلهم أماكنهم، والجنّة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار في الدّنيا، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ

﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ [القلم: من الآية ١٧]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ [الكهف: من الآية ٣٢]، فإذا كانت جنّة الدّنيا على هذه الصّورة من الخصْب والنّماء والجمال، وفيها أسباب القُوت والتّرف، إذا كان ذلك في دنيا الأسباب الّتي نراها، فما بالنا بما أعدَّه الله عزَّ وجلَّ لخَلْقه في الآخرة؟ ومن عجائب الجنّة في الآخرة أنّها:

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: ونحن نعرف أنّ أنهار الدّنيا تجري خلالها عبر الشُّطآن الّتي تحجز الماء، أمّا في الجنّة فتجري أنهارها بلا شُطآن، وحينما يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن الجنّة يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ [محمّد: من الآية ١٥]، فيجعلها مثلاً؛ لأنّ ألفاظ اللّغة لا تؤدّي المعاني الّتي في الجنّة ولا تَصِفها، لذلك يقول النّبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الشّريف: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾»(١)، فكلّ ما جاء فيها ليس وصفاً لها إنّما مجرّد مثَل لها، ومع ذلك لـمّا أعطانا المثل للجنّة صَفّى المثل من شوائبه، فقال جلَّ جلاله: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمّد: من الآية ١٥]، ويكفي أن نعلم أنّ نعيم الجنّة يأتي مناسباً لقدرة وإمكانيّات المنِعم سبحانه وتعالى.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾: لأنّ النّعيم مهما كان واسعاً، ومهما تعدّدتْ ألوانه، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أن يزول إمّا بالموت وإمّا بالفقر، أمّا نعيم الجنّة فدائم

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ بدءِ الخلقِ، بابُ ما جاءَ في صِفَةِ الجنَّةِ وأنّها مَخلُوقةٌ، الحديث رقم (٣٢٤٤).

لا يزول ولا ينقطع، فلا يفوتك ولا تفوته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة]، لا يُكدِّرها شيء، فالرّابح مَنْ آثر الآخرة على الدّنيا؛ لأنّ نعيم الدّنيا مآله إلى زوال، ولا تقُلْ: إنّ عمر الدّنيا ملايين السّنوات، إنّما عمرها مدّة بقائك أنت فيها، وإلّا فماذا تستفيد من عمر غيرك؟

﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: نعم، نِعْم هذا الأجر؛ لأنّه من نعم الله عز وجل، وهو عطاء بلا حدود، ويكفي أنّ الّذي يقرِّر هذه الحقيقة هو الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

(الآية ٥٩) - ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾:

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: فهذه من صفات العاملين، فلا نظنّ أنّ العمل ما كان في بحبوحة العيش وترَف الحياة، فالعامل الحقّ هو الّذي يصبر، وجملة: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ تدلّ على أنّه سيتعرّض للابتلاء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت]، فالّذين اضطهدوا وعُذِّبوا في بداية الدّعوة في مكّة حتّى اضطرّوا للهجرة بدينهم صبروا، لكن هناك ما هو أكبر من الصّبر؛ لأنّ خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك، فيحتاج الأمر إلى المصابرة؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: من الآية ٢٠٠]، ومعنى: صابره؛ أي: تنافس معه في الصّبر، والصّبر يكون على آفات الحياة وعلى مشقّة التّكاليف، وعلى إغراء المعصية، يقولون: صبر على الطّاعة، وصبر عن المعصية، فالمعنى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الإيذاء.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي: في الرّزق، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمّون لأمر الرّزق، يقولون: ليس لنا هناك دار ولا عقار.. إلخ، فأراد سبحانه وتعالى

أنْ يُطمئِن قلوبهم على مسألة الرّزق، فقال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فالّذي خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك، ومن عجيب أمر الرّزق أنّ رزقك ليس هو ما تملك إنّما ما تنتفع به حقيقة، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك، وقد يُطهى لك الطّعام، ولا تأكله، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك، وربّما يصل إلى المعدة وتتقيّئه، فالرّزق هو ما ينتفع به الإنسان.

(الآية ٦٠) - ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾:

يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُطمئن خَلْقه على أرزاقهم، فيقول جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾: كأيّن: لها مَعَانٍ متعدّدة، مثل: كم الخبريّة.

﴿وَكَأَيِّن﴾؛ أي: كثير، كما في: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٦].

﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾: الدّابّة: هي الّتي تدبّ على الأرض، والمراد كلّ حيٍّ ذي حركة، وقد يقول قائل: فالنّمل -مثلاً- لا نسمع له دبّة على الأرض، أيُعَدُّ من الدّابّة؟ نعم، فله دبّة على الأرض، لكنّك لا تسمعها، وقد قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»(١)، فالّذي خلقها يسمع دبيبها؛ لأنّ الّذي يقبل الصّغر يقبل الكبر، لكن ليس عندك أنت آلة السّماع.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أَوَّلُ مُسْنَدِ الكُوفيّينَ، حديثُ أبي مُوسى الأشْعَرِيِّ، الحديث رقم (١٩٦٠٦).

ومعنى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾؛ أي: أنّه ليست كلّ الدّوابّ تحمل رزقها، فكثير منها لا تحمل رزقاً، ومع ذلك تأكل وتعيش، ويحتمل أن يكون المعنى: لأنّها لا تقدر على حمله، أو تقدر على حمله ولكنّها لا تفعل، كالقمل والبراغيث... إلخ، والمعنى الأوضح أنّها غير قادرة على الإتيان برزقها، فالرّزق على الله عزّ وجلّ.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾: فذكر الدّوابّ أوّلاً في مجال الرّزق ثمّ عطف عليها:

﴿وَإِيَّاكُمۡۚ﴾: فنحن معطوفون في الرّزق على الدّوابّ، مع أنّ الإنسان هو الأصل، وهو المكرّم، والعالم كلّه خُلِق من أجله ولخدمته، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه وتعالى: نحن نرزقكم وإيّاهم، لماذا؟ قالوا: لأنّك تظنّ أنّها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها، ولا تتصرّف فيه، فلفت نظرك إلى أنّنا سنرزقها قبلك.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: واختار هنا: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى له قيُّوميّة على خَلْقه، فلم يخلقهم ثمّ يتركهم للنّواميس، إنّما خلق الخَلْق وهو سبحانه وتعالى قائم عليه بقيّوميّته جلّ جلاله؛ لذلك يقول في بيان عنايته بصنعته: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٥]، يعني: يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم؛ لأنّ ربّكم لا ينام.

(الآية ٦١) - ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾:

يقول سبحانه وتعالى للّذين لا تكفيهم آية القرآن الكريم الّتي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويطلبون منه آيات أخرى، يقول لهم: لقد جعل الله عزّ وجلّ لكم الآيات في الكون قبل أنْ يرسل الرّسل، آيات دالّة على الإعجاز في

السّموات والأرض، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر؟ إن خلق السّموات والأرض معجزة كونيّة لا تنتهي، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات، وما جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلّا لبيان صِدْق الرّسل في البلاغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليؤمن النّاس بهم، لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الرّدّ عليهم: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: من الآية ١١]، فخلْق السّموات والأرض والشّمس والقمر إعجاز للدّنيا كلّها، وخصوصاً الكفرة فيها، ومسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها -كما سبق أنْ أوضحنا- لذلك يقولون هنا في إجابة السّؤال: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي: كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وينصرفون عن الحقّ؟!

والإفك: هو الكذب المتعمّد.

(الآية ٦٢) - ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: أي: يُوسِّعه.

﴿وَيَقْدِرُ﴾: يضيّق.

وآفة النّاس في هذه المسألة أنّهم لا يفسّرون الرّزق إلّا بالمال، والرّزق في الواقع كلّ ما ينتفع به الإنسان، فالعلم رزق، والحلم رزق، والصّحّة رزق، وإتقان الصَّنْعة رزق.. إلخ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوسِّع الرّزق لمَنْ يشاء، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء، فالّذي ضُيِّق عليه يحتاج لمن بسط له، وكذلك يبسط الرّزق في شيء ويُضيِّقه في شيء آخر، فهذا بسط له في العقل مثلاً، وضيّق عليه في

المال، فكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى نثر مواهب الملكات بين خَلْقه، لم يجمعها كلّها في واحد، وسبق أن أوضحنا أنّ مجموع الملكات عند الجميع متساوية في النّهاية؛ ليظلّ المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج، ولا يستغني النّاس بعضهم عن بعض، وحتّى تتكامل المواهب بين النّاس، فتتساند ولا تتعاند، فالله سبحانه وتعالى حين يبسط الرّزق لعبد، ويَقْدره على آخر، لا يعني هذا أنّه يحبّ الأوّل ويكره الآخر، ولو نظرنا إلى جوانب الرّزق وزوايا العطاء لوجدناها متساوية، وحين نتأمّل قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]، فأيٌّ مرفوع؟ وأيٌّ مرفوع عليه؟ الجواب: الكلّ مرفوع في جهة اختصاصه، ومرفوع عليه في غير جهة اختصاصه، فالجميع سواء، وأيضاً لو لم يكُنْ بين النّاس غنيّ وفقير، فمَنْ سيقضي لنا المصالح في الحقل، وفي المصنع، وفي السّوق.. إلخ، لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج، لا على التّفضُّل، فإنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقِرنَّ أحداً؛ لأنّه قد يفضل عليك في موهبة ما، فتحتاج أنت إليه.

(الآية ٦٣) - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾:

وهنا أيضاً قالوا: ﴿اللَّهُ﴾؛ لأنّ إنزال المطر من السّماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونيّة واضحة لم يدَّعِها أحد، فهي ثابتة لله عز وجل، لا يُنكرها أحد حتّى المشرك، فلئن سألتهم هذا السّؤال: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، لذلك يأمرنا الحقّ سبحانه وتعالى أن نقول بعد هذا الإقرار:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾: الّذي أنطقهم بالحقّ، وأقام عليهم الحجّة.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾: لأنّهم أقرّوا بآيات الله ﷻ في خَلْق الكون، ومع ذلك كفروا به.

(الآية ٦٤) - ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾: الحياة: نعرفها بأنّها ما يكون في الإنسان الأعلى في الوجود من حِسٍّ وحركة، فإذا انتهى حِسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة، وهذه الحياة موصوفة هنا بأوصاف ثلاثة: دنيا ولهو ولعب، وكلمة: دنيا مقابلها: عُلْيا، فساعة تسمع هذا الوصف: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ فاعلم أنّ هذا الوصف ما جاء إلّا ليميّزها عن حياة أخرى، تشترك معها في أنّها حياة لله ﷻ إلّا أنّها حياة عليا، هذه الحياة العُلْيا هي الّتي قال عنها ربّنا ﷻ: ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾. وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدّنيا بأنّها الحِسُّ والحركة في الإنسان، فالواقع عند التّقنين أنّ لكلّ شيء في الوجود حياة تُناسب مهمّته، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، فما يُقال له: شيء، لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك، والهلاك تقابله الحياة، بدليل قوله ﷻ: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٢]، فالحياة ضدّ الهلاك، وعرّفنا الحياة بأنّها الحسّ والحركة، وكذلك الحياة في كلّ شيء بحسبه، حتّى في الجماد حياة نلحظها في أنّ الجبل يتكوّن من أصناف كثيرة من الحجارة، ترتقي مع الزّمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة

وأثمن، وما دامت يطرأ عليها هذا التّغيير فلا بُدَّ أنّ فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن، فكلّ شيء له حياة، لكنّ الآفة أنّنا نريد حياة كالّتي فينا نحن، والله سبحانه وتعالى يصف الحياة الآخرة بأنّها:

﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾: وفرْق بين الحياة والحيوان، الحياة هي هذه الّتي نحياها في الدّنيا، يحياها الأفراد، ويحياها النّبات، ثمّ تؤول إلى الموت والفناء، أمّا ﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ فيعني الحياة الأرقى في الآخرة؛ لأنّها حياة باقية، حياة حقيقيّة.

والحقّ سبحانه وتعالى أعطانا صورة للحياة الدّنيا، الحياة المادّيّة في قوله جل جلاله عن آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: من الآية ٢٩]، فمن الطّين خَلق آدم، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه جل جلاله، فدبَّتْ فيه الحياة المادّيّة، لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه، يقول الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء؟ لا بُدَّ أنّ المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادّيّة، المراد حياة الرّوح والقيم والمنهج الّذي يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك سمَّى الله سبحانه وتعالى المنهج روحاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، وسمَّى الملَك الّذي نزل به روحاً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: من الآية ١٩٣]، فقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾؛ أي: الحياة الحقيقيّة الّتي لا تفوتها ولا تفوتك، ولا يفارقك نعيمها، ولا يُنغِّصه عليك شيء، كما أنّ التّنعُّم في الدّنيا على قَدْر إمكاناتنا وأسبابنا، أمّا في الآخرة فالنّعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى، ثمّ يأتي وَصْف الدّنيا بأنّها لَهْو ولَعِب، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان، لكنّها حركة لا مَقصدَ لها إلّا الحركة في ذاتها دون هدف منها؛ لذلك نقول

لمن يعمل عملاً لا فائدة منه: "عبث"، فاللّهو واللّعب عبث، لكن يختلفان من ناحية أخرى، فاللّعب حركة لا فائدة منها، لكنّه لا يصرفك عن واجب، كالولد حين يلعب، فاللّعب لمن لم يبلغ، أمّا البالغ المكلّف فاللّعب في حقّه يسمّى لَهْواً؛ لأنّه كُلِّف فترك ما كُلِّف به إلى ما لم يكلّف به، ولَهَا عن الواجب، ومنه: لَهْو الحديث، فقوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾؛ أي: إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم أصبحت لهواً ولعباً.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾: يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعيّة، يعني: امتنع علمهم بها، أو تكون تمنّياً، يعني: يا ليتهم يعلمون حقيقة الدّنيا وحقيقة الآخرة؛ لأنّهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربّهم عزّ وجلّ، وما سلكوا طريق الشّرك والإلحاد وضلّوا، فكأنّ المعنى أنّهم لم يعرفوا.

(الآية ٦٥) - ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾:

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: ينقلنا السّياق هنا من الكلام عن حقيقة كلّ من الدّنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك، فما العلاقة بينهما؟ المتكلّم هنا هو الله عزّ وجلّ، وواضع كلّ شيء في موضعه، ولا يغيب عنّا أنّه لا بُدَّ أنْ نتدبّر كلام الله سُبحانه وتعالى لنفهم مراده، فالله جلّ جلاله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن الكريم فحسب، إنّما أنْ نتعمّق في فهمه وتأمّله، وننظر في معطياته الحقيقيّة، قال سُبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، والعلاقة هنا أنّ الآية السّابقة جاءتْ لتقرّر أنّ الدّنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها، كما قال سُبحانه وتعالى في الآية السّابقة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ

يَعۡلَمُونَ﴾، إذا ما بَعُدت عن منهج الله ﷻ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هي الحياة الحقيقيّة وهي الحيوان، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة، وأنْ يعمل لها باتّباع منهج الله ﷻ في الدّنيا، فالدّنيا ليست غاية، بل هي وسيلة، وأنت أيّها الّذي أعرضتَ عن منهج ربّك ﷻ جعلتَ الدّنيا غايتك، والدّنيا إنْ كانت هي الغاية فما أتفهها من غاية، إنّما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان، وكذلك الحال في الفُلْك، فهي وسيلة تُوصِلنا إلى هدف، وإلى غاية، وليست هي غاية في حَدِّ ذاتها.

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: السّفينة، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع، فيقول ﷻ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: من الآية ٣٨].

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: واضح من السّياق أنّها ليستْ دعوة الحمد، كأن يقولوا مثلاً: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزّخرف: من الآية ١٣]، بل هي دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدّة وعطب، لا تنجيهم منها أسبابهم، بدليل قوله ﷻ بعدها: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، فهذه تعطينا أنّهم ركبوا في السّفينة، فلمّا تعرَّضوا للعطب، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله ﷻ مخلصين له الدّين، وفي لقطة أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: من الآية ٢٢]، فمعنى: ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: من الآية ٢٢]؛ أي: لا يوجد لهم مفرّ ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلّا أنْ يتوجّهوا إلى الله ﷻ بدعاء خالص ويقين إيمان في أنّهم لا ملجأ لهم إلّا الله ﷻ، وقد كانوا في

أوّل الرّحلة فرحين بمركبهم مسرورين به، وساعتها لم يكُن الله ﷻ في بالهم، إنّما لـمّا ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحقّ، فالوقت لا يحتمل المراوغة؛ لأنّ الإنسان عادةً لا يخدع نفسه، فحتّى المشرك حين تضيق به أسباب النّجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحقّ، ويقول: يا ربّ، وينسى كلّ معبوداته من دون الله ﷿؛ لأنّه لا يسلم نفسه أبداً، ولا يتمادى حينئذ في كذبة الآلهة والأصنام، لذلك: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ دعوة خالصة بيقين ثابت في الإله الحقّ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك، لا ظاهر ولا خفيّ، فلا ينفع في هذا الوقت إلّا الله المعبود بحقٍّ، حتّى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون: يا ربّ، يا الله، يقولونها من تلقاء أنفسهم، دون مرور بالعقل الّذي أنكروا به وجود الله ﷻ، وهذا يعني أنّ الفطرة الإيمانيّة قد تحجبها الأغيار البشريّة وتلغيها، فإذا ما نامت الأغيار البشريّة وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانيّة على السّطح تُلهِم النّاس بلا شعور. ثمّ يُنبِّهه من ناحية أخرى، يقول: أيّها الإنسان، اعلم أنّ الأسباب ستستجيب لك، فإيّاك أن تظنّ أنّ لك قدرةً عليها، أو أنّ لك جاهاً وعظمة، فتنسى أنّك خليفة؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، احذر حين تتمّ لك الأمور وتطاوعك الأسباب: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق]، فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها، ولن تجد مرجعاً إلّا إلى الله ﷿، ثمّ يلفت نظرنا من الآن إلى قضيّة أخرى قبل أنْ نتعرّض للمخاطر، فيقول ﷻ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ [يونس: من الآية ١٠٧]، فلا تتعب نفسك، وتذهب هنا أو هناك؛ لأنّه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [يونس: من الآية ١٠٧].

هذه ثلاث قضايا أو نصائح قدّمها الله ﷻ لنا قبل أنْ تحلَّ بنا الأحداث والمصائب: إن استغنيت ستطغى، وأنّ إلى ربّك الرّجعى، وإذا مسَّك ضرّ، ولا حيلةَ لك في دفعه بأسبابك، فليس لك إلّا الله ﷻ تفزع إليه، والإله الّذي يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم، فالنّاس يحبّون الحياة، وعندما تنزل بهم الأحداث والخطوب في السّفينة يخافون الموت، ويدعون الله ﷻ بالنّجاة، فهم حريصون على الحياة الدّنيا، فلماذا لا يؤمنون بالله ﷻ فينالون حياة أخرى أبْقى وأدوم؟ والطّريق إليها بالإيمان واليقين، وبمنهج الله ﷻ في: (افعل) و(لا تفعل)، هذه قضيّة ذكرها القرآن الكريم، أمَّا واقع الحياة فقد أكّدها، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال، القضيّة: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [يونس: من الآية ١٢]، الإنسان يعني مُطْلق الإنسان: المؤمن والكافر، ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس: من الآية ١٢]، يعني: في كلّ الأحوال، فلمّا جاءه الخطر وأصابه الضّرّ دعا الله ﷻ على أيِّ حال كان، وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله ﷻ ممّا يخاف، وكشف عنه الضّرّ، عاد مرّة أخرى ظالماً لنفسه: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: من الآية ١٢]، وفي لقطة أخرى يقول ﷻ في هذه المسألة: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ﴾ [الزّمر: من الآية ٨]، أيُّ ضرّ: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ [الزّمر: من الآية ٨]، ويا ليته نسي وسكت، إنّما: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [الزّمر: من الآية ٨]، فقال: الفضل لفلان، وقد استغثت بفلان، ولجأت إلى فلان.

(الآية ٦٦) - ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾:

﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾: اللّام هنا ليست لام التّعليل؛ لأنّ الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم، وحين عادوا بعد أن نجّاهم الله ﷻ إنّما عادوا إلى أصلهم، فاللّام هنا لام الأمر، كما لو قلت: قم يا زيد وليقم عمرو، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة، وهي هنا مكسورة؛ لأنّها في بداية الكلام، حيث لا يُبدأ بساكن، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها، ومثالها في قوله ﷻ: ﴿ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحجّ: من الآية ٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطّلاق: من الآية ٧]، والدّليل على أنّها لام الأمر سكون اللّام بعدها في قراءة من سكّنها، وفي: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾، ونلحظ أنّ المصاحف ما زال في رسمها كلام حتّى الآن، فهنا: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ تجد تحت اللّام كسرة، مع أنّها ساكنة، وهذا يعني أنّ كتاب الله ﷻ غالب، وليس هناك مُحصٍ له.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾: فرْق في الاستقبال بين (السّين) و(سوف)، فلو قال: فسيعلمون، لَدلَّتْ على التّهديد في المستقبل القريب، وأنّه سيحلّ بهم العذاب في الدّنيا، أمّا: (سوف) فتدلّ على المستقبل البعيد، فتشمل التّهديد في الدّنيا وفي الآخرة، فهي صالحة للزّمن المستقبل كلّه، لذلك يستخدم القرآن الكريم السّين في مسائل الدّنيا، كما في قوله ﷻ: ﴿ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣].

(الآية ٦٧) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: (رأى) كما قلنا: تأتي بصريّة، وتأتي بمعنى: عَلِم، ومنه قولنا في الجدال مثلاً: أرى في الموضوع الفلانيّ كذا وكذا، ونجد في أساليب القرآن الكريم كلاماً عن الرّؤيا المخاطب بها غير راءٍ للموضوع، كما في قوله تعالى مخاطباً النّبيّ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]، ومعلوم أنّ النّبيّ ﷺ لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل؛ لأنّه وُلِد في ذلك العام، فـ: ﴿تَرَ﴾ هنا بمعنى: علم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾: فالحرم آمِن مع ما حدث له من ترويع قبل الإسلام حين فزّعه أبرهة، وفي العصر الحديث عندما فزَّعه (جُهيمان)، وعلى مَرِّ العصور حدثتْ تجاوزات في الحرم تتناقض في ظاهرها مع هذا الأمن، فالّذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنّه حرم آمن، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيّدنا إبراهيم عليه السلام، فحين دعا ربّه جل جلاله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧] كان مكاناً خالياً، لا حياة فيه وغير مسكون، ومعنى ذلك أنّه لم تكُنْ به مُقوّمات الحياة، فالإنسان لا يبني ولا يستقرّ إلّا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه، ويتوفّر له فيه مُقوِّمات حياته كلّها، لذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربّه جل جلاله أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً، يعني يصلح أنْ يكون بلداً، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: من الآية ١٢٦]، وعجيب منهم أن يقولوا كما

حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص: من الآية ٥٧]، كيف وقد حماكم الله سبحانه وتعالى أيّام كنتم مشركين تعبدون الأصنام، أيترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! وقصّة هذا الأمن أوّلها في حادثة الفيل، عندما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله سبحانه وتعالى ويُحوِّل النّاس إلى بيت بناه باليمن، فردَّ الله عز وجل كيدهم، وجعلهم كعصف مأكول، وحين نقرأ هذه السّورة على الوَصْل بما بعدها تتبيّن لنا العِلَّة من هذا الأمن، ومن هذه الحماية، لنقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٥﴾ [الفيل]، لماذا؟ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢﴾ [قريش]، فالعلّة في أن جعلهم الله سبحانه وتعالى كعصف مأكول: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١﴾ [قريش]؛ لأنّ اللّام في: ﴿ لِإِيلَٰفِ ﴾ [قريش: من الآية ١] للتّعليل، وهي في بداية كلام، فالعلّة في أنّ الله سبحانه وتعالى لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب، ومهابتها مرتبطة بالبيت الّذي يقصده النّاس من كلّ مكان، فقولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص: من الآية ٥٧]، حجّة لله سبحانه وتعالى عليهم، ففي الوقت الّذي يُتخطّف النّاس فيه من حولهم كانوا هم في أمان، فهي حجّة عليهم، ثمّ إنّ الشّرط هنا: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ [القصص: من الآية ٥٧]، غير مناسب للجواب: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص: من الآية ٥٧]، فما دمتم قلتم عن الدّين الّذي جاءكم به محمّد صلى الله عليه وسلم: إنّه هدى؛ أي: هدى لله عز وجل، فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكّد لديكم أنّه هدى.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾: أي: بالأصنام، والباطل مقابل الحقّ، وهو زَهُوق لا دوامَ له، فسرعان ما يفسد وينتهي.

﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾: قال ﷻ: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل مثلاً: (وبعبادة الله)، أو: (بالإيمان بالله يكفرون)؛ لأنّ إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلّا نِعَم الله ﷻ عليهم أنْ يُطعِمهم من جوع، ويُؤمّنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به.

﴿يَكۡفُرُونَ﴾: كَفَرَ: يعني ستر الإله الواجب الوجود، والسَّتْر يحتاج إلى مستور، فما هو المستور بالكفر؟ المستور بالكفر الإيمان، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجود الإيمان.

(الآية ٦٨) - ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: هذا استفهام يريد منه الحقّ ﷻ قضيّة يُقرّها المقابل، فلم يوردها بصيغة الخبر: (لا أظلم)؛ لأنّ الخبر في ذاته يحتمل الصّدق أو الكذب، فجاء بصيغة الاستفهام لينطق المستمع بالقضيّة، كما تقول لمن ينكر معروفك: مَنْ أعطاك هذا الثّوب؟ فلا يملك إلّا أنْ يعترف بفضلك، لكن إنْ قلت له إخباراً: أنا أعطيتُك هذا الثّوب، فالخبر يحتمل الصّدق ويحتمل الكذب، وربّما يُنكر، فيقول: لا لم تعطني شيئاً، فإيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى في تقرير واقع من أسلوب الخبر؛ لأنّ الخبر يأتي من المتكلّم، أمّا الإقرار فمن السّامع، وأنت لا تُلقِي بالاستفهام إلّا

وأنت واثق أنّ الجواب سيأتي على وَفْق ما تريد، فمعنى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؛ أي: لا أحد أظلم، والظّلم: نَقْل الحقّ من صاحبه إلى غيره، والظّلم قد يكون كبيراً وعظيماً، وهو الظّلم في القمّة في العقيدة، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، وقد يكون الظّلم بسيطاً هيّناً، فالّذي افترى على الله ﷻ الكذب، لا أحدَ أظلم منه؛ لأنّه لو افترى على مثله لكان أمره هيّناً، لكنّه افترى على مَنْ؟ على الله ﷻ، فكان ظلمه عظيماً، ومن الحمق أن يفتري الإنسان على الله ﷻ؛ لأنّه ﷻ أقوى منه يستطيع أن يُدلّل، وأنْ يبرهن على كذبه، ويستطيع أن يدحره، ويُوقفه عند حدِّه، فمَنِ اجترأ على هذا النّوع من الظّلم فإنّما ظلم نفسه.

﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: قلنا: إنّ الافتراء كذب، لكنّه متعمّد؛ لأنّ الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه، إنّما الواقع خلاف ما يعلم، لذلك عرَّف العلماء الصّدق والكذب، فقالوا: الصّدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمي، ولم أقصد مخالفة الواقع، فإن خالف كلامي الواقع فالخبر كاذب، لكنّ المخبر ليس بكاذب.

﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾: فيا ليته افترى على الله ﷻ كذباً ابتداءً، إنّما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه، ثمّ يقرّر جزاء هذا التّكذيب بأسلوب الاستفهام أيضاً:

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: يعني: أضاقتْ عنهم النّار، فليس بها أمكنة لهؤلاء؟ الجواب: بلى بها أمكنة لهم، بدليل أنّها ستقول وهي تتشوّق

إليهم حين تُسأل: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق: من الآية ٣٠]، كما أنّ الاستفهام في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ يجعل السّامع يشاركك الكلام، وفيه معنى التّقريع والتّوبيخ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطفّفين].

(الآية ٦٩) - ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾: نقول: جَهدَ فلان يجهد؛ أي: أتعب نفسه واجتهد، ألحّ في الاجتهاد وجاهد غيره، فـ: (جاهد) تدلّ على المفاعلة والمشاركة، وهي لا تتمّ إلّا بين طرفيْن، وفي هذه الصّيغة (المفاعلة) نغلّب الفاعليّة في أحدهما والمفعوليّة في الآخر، مع أنّهما شركاء في الفعل، فكلٌّ منهما فاعل في مرّة، ومفعول في أخرى، كأن نقول: شارك زيدٌ عمراً، وشارك عمرو زيداً، أو: أنّ الّذي له ضِلع أقوى في الشّركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً.

وبعد أن بيّن الحقّ سُبحانه وتعالى أنّ مثوى الكافرين المكذِّبين في جهنّم، وما داموا قد ظَلموا هذا الظّلم العظيم، فلا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم، هذا التّأديب لا لإرغامهم على الإيمان، لقوله سُبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، إنّما التّأديب أن نجهر بدعوتنا، وأن نعلي كلمة

الحقّ، فمن شاء فليؤمن، ومَنْ شاء فليظلّ على حاله، فالآية تبيّن موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذّبين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

معنى: ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ أي: من أجلنا ولنصرة ديننا، فهل أُمرنا أن نقاتل المشركين كونهم مشركين، أم أُمرنا أن نُقاتل المشركين كونهم معتدين؟ الجواب: قد يكون الخلاف بينك وبين شخص في مسألة القمّة الإيمانيّة ووجود الإله الواحد، كالملحدين الّذين يقولون: بعدم وجود إله في الكون، وهؤلاء لهم جهاد، هذا الجهاد ليس بالقتال، وإنّما بالنّقاش والحوار، وأهل الشّرك الّذين يقرّون بالإله، ولكن يعتقدون أنّ له شريكاً، فهؤلاء لهم جهاد آخر ونقاش آخر وحوار آخر، جهاد الملاحدة بالمنطق والحجّة، ليقولوا هم بأنفسهم: بوجود إله واحد، ونقول لهم: هل وُجِد مَن ادّعى أنّه خلق ذاته أو خلق غيره؟ فلكلّ خصومة في دين الله ﷻ جدل خاصّ، ومنطق للمناقشة نقوم به في ضوء: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، وعلينا أن ننظر أوّلاً ما موقع الجهاد الّذي نقوم به، فجهاد الملاحدة بأسلوب، وجهاد المشركين بأسلوب، وجهاد الآخرين بأسلوب، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف، مع أنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٩]، فالمطلوب دائماً هو وحدة الكلمة وليس التّفرّق، وهناك جهاد آخر هو الجهاد القتاليّ، فمتى يكون هذا؟ ومتى أذن الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالقتال؟ الجواب: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحجّ: الآية ٣٩ ومن الآية ٤٠]، فعندما يحدث اعتداء على المقدّسات وعلى الأرض وعلى

العرض يكون الجهاد القتاليّ، كما يفعل الآن أبطال المقاومة في فلسطين، أمّا كلمة جهاد فيقول ﷻ: ﴿ بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: من الآية ٥٢]؛ أي: القرآن الكريم، فنحن لدينا جهاد أصغر وجهاد أكبر، والنّبيّ ﷺ عندما قَدِمَ عليه قوم غزاة، قال: «**قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه**»(١)، فوصف جهاد النّفس بأنّه الجهاد الأكبر، لماذا؟ لأنّنا في ساحة القتال نجاهد عدوّاً ظاهراً، يتّضح لنا عدده وأساليبه، أمّا إنْ كان العدوّ من داخل الإنسان، فإنّه يعزّ عليه جهاده، فأنت تحبّ أنْ تحقّق لنفسك شهواتها، وأنْ تطاوعها في أهوائها ونزواتها، وهي في هذا كلّه تُلِحّ عليك وتتسرَّب من خلالك، فعليك أنْ تقف في جهاد النّفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النّفس العاجلة وما تُورِثك إيّاه من حسرة آجلة باقية، وما تضيعه عليك من ثواب ربّك في جنّة فيها من النّعيم ما لا عَيْن رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنقول: إنّ من أعظم الجهاد جهاد الإنسان لنفسه؛ لأنّها تُلِحّ عليه أن يُشبع رغباتها، كما أنّها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشّيطان الّذي يُزيّن لها كلّ سوء، ويُحبِّب إليها كلّ منكر. والقرآن الكريم حينما يُحدّثنا عن الجهاد يُحدّثنا عن أنواع الجهاد كلّها، فيقول مرّة: ﴿ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [التّوبة: من الآية ٤١]، ويقول هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾، والجهاد في سبيل الله ﷻ؛ أي: في الطّريق إلى الله ﷻ لإثبات الإيمان بالإله الواحد، وصدق البلاغ من

(١) كنز العمّال: الباب السّادس: في أحكام القتلى، الجهاد الأكبر، الحديث رقم (١١٢٦٠).

الرّسول المؤيَّد بالمعجزة والمنهج، هذا سبيله النّقاش والحوار، وليس القتال، أمّا القتال فلا يكون إلّا إن حدث اعتداء على أرضك أو عرضك أو مقدّساتك، ثمّ يأتي جزاء الجهاد في ذات الله ﷻ:

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: أي: ندلّهم على الطّرق الموصِلة إلينا، كأنّ الطّريق إلى الله سبحانه وتعالى ليس واحداً، إنّما سبل شتّى؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطّاعة شيئاً مهما كان يسيراً، فإنّ الله سبحانه وتعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش، ولا تحقرنّ من المعصية شيئاً، فإنّ الله عز وجل أدخل امرأة النّار؛ لأنّها حبست هرّة، ولا تحتقرنّ عبداً مهما كان، فإنّ الله سبحانه وتعالى أخفى أسراره في خَلْقه؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: السّبل الموصِلة لنعيم الآخرة، سبل الارتقاء في اليقين الإيمانيّ الّذي قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: من الآية ١٢]، ويقول سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "ما قصَّر بنا في علم ما جهلناه، إلّا تقصيرنا في العمل بما علمناه، فالّذي جعلنا لا نعرف أسرار الله أنّنا قصّرنا في العمل بما أمرنا به"، فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل، لكن حين تعمل بما علمتَ، فأنت مأمون على منهج الله عز وجل، فلا يحرمك المزيد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمّد]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: من الآية ٢٩]، والفرقان من أسماء القرآن الكريم، فحين تتّقي الله سبحانه وتعالى على مقتضاه، وبمدلول منهجه في القرآن الكريم يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء، وتهتدي به إلى الحكم الصّحيح.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الإحسان من الإنسان أن يعبد الله ﷻ كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّ الله ﷻ يراه، والإحسان في الأداء أن تزيد عمّا فرض الله ﷻ عليك، لكن من جنس ما فرض، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله ﷻ إليك بأنْ يزيدك إشراقاً، ونورانيّة، ويُخفِّف عنك أعباء الطّاعة، ويُقبِّح في نفسك المعاصي.

﴿لَمَعَ﴾: كلمة (مع) تُفيد المعية، والمعيّة في أعراف البشر أنْ يلتقي شيء بشيء، لكن إذا كانت المعيّة مع الله ﷻ فلنفهم أنّها معيّة أخرى غير الّتي نعرفها مع أصدقائنا، لنأخُذْها في إطار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (الرّوم)

الآيات: (١– ٦٠)

سورة الرّوم

سورة الرّوم هي السّورة الثّلاثون في ترتيب المصحف الشّريف، عدد آياتها ستّون آية، وهي سورة مكّيّة بلا خلاف، نزلت قبل سورة العنكبوت، وبعد سورة الانشقاق، وهي السّورة الرّابعة والثّمانون في ترتيب النّزول، سمّيت بسورة الرّوم لقوله ﷻ فيها: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾، فذكر ذلك عن الرّوم وعن معركة الرّوم والفرس الكبرى الّتي كانت تجري بين قوّتين عظيمتين في ذلك الوقت، وما تنبّأ به القرآن الكريم، وسنأتي إلى ذلك مفصّلاً.

(الآية ١) - ﴿الٓمٓ ۝١﴾:

سبق أن تكلّمنا كثيراً عن الحروف المقطّعة في بدايات السّور، ونذكّر فقط بأنّها أسرار، وضعها الله ﷻ ليتميّز بها هذا الكتاب عمّا سواه من الكتب، فهي لفتة إشراقيّة، تكشف لنا الحكمة والأسرار في هذه الحروف، وهي مجموعة في عبارة: (نص حكيم له سرّ قاطع)، تتألّف من أربعة عشر حرفاً؛ أي: نصف حروف الهجاء، وقلنا سابقاً: إنّ القرآن الكريم مبنيّ على الوصل وليس على القطع، في آياته وفي سوره، فآخر حرف في السّورة موصول بأوّل حرف في الّتي تليها، إلّا هذه الحروف بُنِيَت على الوقف، كلّ حرف منها على حِدَة، يقول ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ**

وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[1]، ففيها من الثّواب الشّيء العظيم، وهي مفاتيح أسرار الرّوح، وأسرار الإشراقات في النّفس البشريّة عند قراءة القرآن الكريم.

(الآية ٢) - ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾:

﴿غُلِبَتِ﴾: تدلّ على وجود معركة غَلب فيها فريقٌ، وغُلِب فريق، فالّذي غُلِب هنا الرّوم، وحزن المسلمون؛ لأنّ الرّوم كانوا أهل كتاب، ومقرّهم الشّام وعراق العرب، فالعراق منها قسم ناحية العرب، وقسم ناحية فارس، والرّوم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم.

(الآية ٣) - ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾:

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: يعني: أقرب لأرض العرب، كما في قوله ﷻ: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٢]، فالعُدْوة الدّنيا؛ أي: القريبة من المدينة، والقُصْوى البعيدة عنها، فمعنى ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: أقرب أرض للجزيرة العربيّة.

﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾: فيها بشرى للمسلمين، أنّ الرّوم سيعاودون الكرّة ويغلبون؛ لأنّ الفرس كانوا يعبدون النّار، أمّا الرّوم فأهل كتاب، فالخلاف بيننا وبين الفرس في القمّة الإلهيّة، أمَّا الخلاف بيننا وبين الرّوم ففي القمّة الرّساليّة، فَهُم أقرب إلينا؛ لأنّهم يؤمنون بإلهنا ﷻ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا ﷺ، وهذا من عظمة الإسلام، فالّذي يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الّذي لا يؤمن بالإله؛ لأنّه على الأقلّ موصول

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ فضائلِ القرآنِ، بابُ ما جاءَ فِيمَنْ قرأَ حرفاً مِنَ القرآنِ ما لهُ مِنَ الأجرِ، الحديث رقم (٢٩١٠).

بالسّماء؛ لذلك لـمّا غُلِبت الرّوم فرح كفّار قريش وحزن المؤمنون، وفرح كفّار قريش؛ لأنّ في هزيمة الرّوم دليلاً على أنّ محمّداً ﷺ وأصحابه سينهزمون كأصحابهم.

وكلمة: ﴿غَلَبِهِمْ﴾ مصدر يُضاف للفاعل مرّة، ويُضاف للمفعول مرّة أخرى، تقول: أعجبني ضَرْبُ الأمير مذنباً، فأضفتَ المصدر للفاعل، وتقول: أعجبني ضَرْب المذنب، فأضفتَ المصدر للمفعول، وكذلك هنا: ﴿غَلَبِهِمْ﴾ مصدر أُضيف إلى المفعول، لكن لماذا قال ﷻ: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾، وجاء بالسّين الدّالّة على الاستقبال، ثمّ قال بعدها: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، وهي أيضاً دالّة على الاستقبال؟ قال العلماء: لأنّ الغلبة لا تأتي فجأة، إنّما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النّصر، وتجهيز القوّة اللّازمة له، فكأنّهم في مدّة البضع سنين يُعدّون للنّصر، فكلّما أعدّوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النّصر، فالنّصر لا يأتي في بضع سنين، إنّما من عمل دائم على مدى بضع سنين.

(الآية: ٤-٥) - ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾:

أثارت فرحة الكفّار حفيظة المؤمنين، إلى أنْ نزل قوله ﷻ: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾، ففرح المؤمنون، حتّى قال أبو بكر: "والله لا يسرُّ الله هؤلاء، وسينصر الرّومَ على

فارس بعد ثلاث سنين"؛ لأنّ كلمة: ﴿بِضۡعِ﴾ تعني من الثّلاثة إلى العشرة، فأخذها الصِدّيق على أدنى مدلولاتها، لماذا؟ لأنّه الصِدّيق، والحقّ سبحانه وتعالى لا يُحمِّل المؤمنين مشقّة الصّبر مدّة السّنين التّسع، وهذه من الصّدّيقيّة الّتي تميّز بها أبو بكر رضي الله عنه، لكنّ الله سبحانه وتعالى لم يحدّد ثلاث سنوات، بل قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، والله سبحانه وتعالى أراد في هذه المدّة أن يتعلّم المسلم كيف يكون الإعداد، فالمسلمون جميعهم فرحوا جدّاً عندما نزلت هذه الآية.

وهنا وقفة إعجازيّة إيمانيّة عقديّة: سبق أنْ تكلّمنا عن الغيب وعن المشهد، وقلنا: إنّ الغيب أنواع: غيب له مقدّمات تُوصِل إليه، كما نعطي التّلميذ تمريناً هندسيّاً، وكالأسرار الكونيّة الّتي يتوصّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون، كالّذي اكتشف الآلة البخاريّة، وأرخميدس لمّا اكتشف قانون الأجسام الطّافية.. إلخ، ولا يقال لهؤلاء: إنّهم علموا غيباً، إنّما أخذوا مقدّمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً، أمّا الغيب المطلق فهو الّذي ليس له مقدّمات تُوصِل إليه، فهو غيب عن النّاس كلّهم، وفيه يقول سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجنّ]، ومن الغيب ما يغيب عنك، لكن لا يغيب عن غيرك، كالشّيء الّذي يُسرق منك، فهو غيب عنك؛ لأنّك لا تعرف مكانه، وليس غيباً عَمَّنْ سرقه منك، وآفة الإنسان أنّه لا يستغلّ المقدّمات للبحث في أسرار الكون ليرتقي في الكونيّات، إنّما يستغلّها لمعرفة غيب الآخرين، ونقول له: إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك، وأعتقد أنّ أحداً لا يرضى ذلك، فسَتْر الغيب عن الخَلْق

نعمة كبرى من الله ﷻ؛ لأنّه ﷻ ربّ النّاس جميعاً، ويريد ﷻ أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه، ألا ترى أنّك إنْ علمتَ في إنسان سيّئة واحدة تزهّدك في حسناته كلّها، وتجعلك تكرهه، وتكره كلّ حسنة من حسناته، فَسَتَر الله ﷻ عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم، والغيب حجزه الله ﷻ عنّا، إمّا بحجاب الزّمن الماضي، أو الزّمن المستقبل، أو بحجاب المكان، فأنت لا تعرف أحداث الماضي قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتي مَنْ تثق به، فيخبرك بما حدث في الماضي، وكذلك لا تعرف ما سيحدث في المستقبل، أمّا حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد في مكان آخر غير مكانك، وقد يكون الشّيء في مكانك، لكن لا تطّلع عليه، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٨]، فمَنِ الّذي أخبر رسول الله ﷺ بما في نفوسهم؟ لقد خرق الله ﷻ له حجاب المكان، وأخبره بما يدور في نفوس القوم، وأخبرهم رسول الله ﷺ به، أَمَا كان هذا كافياً ليؤمنوا بالله ﷻ الّذي أخرج مكنون صدورهم؟ فالمسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار، كما خَرق الله ﷻ لنبيّه ﷺ حجاب الماضي، فأخبره بحوادث في الأمم السّابقة كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ [القصص: من الآية ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِىٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: من الآية ٤٥]، كما خرق له ﷺ حجاب المستقبل، كما في هذه الآية الّتي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، فلا يوجد قوّة على وجه الأرض تستطيع أن تتنبّأ بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين، فالنّبيّ ﷺ، وهو الأمّيّ المقيم في جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوّة الرّوم أو قوّة

الفرس، يخبرنا بهذه النّتيجة؛ لأنّ الّذي يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الّذي أخبره، وكون النّبيّ ﷺ يعلنها ويتحدّى بها في قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله سبحانه وتعالى له، وأنّه واثق من حدوث ما أخبر به، ولهذه الثّقة سُمِّي الصِّدّيق صدِّيقاً، فحين أخبروه بمقالة رسول الله ﷺ عن الإسراء ما كان منه إلّا أنْ قال: "إنْ كان قال فقد صدق"، ورسول الله ﷺ يخبر بهذه النّتيجة، ويراهن المشركين عليها، ويتمسّك بها، وما ذاك إلّا لثقته في صدق هذا البلاغ، وأنّه لا يمكن أبداً أنْ يتخلّف.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾: يعني: إيّاكم أنْ تفهموا أنّ انتصار الفرس على الرّوم أو انتصار الرّوم على الفرس خارج عن مرادات الله عزّ وجلّ، فحين غَلبت الرّوم لله سبحانه وتعالى الأمر، وحين انتصرت الفرس لله عزّ وجلّ الأمر؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يهيّج أصحاب الخير بأن يُغلّب أصحاب الشّرّ، ويُوقظ فيهم الإيمان، فنصر المكروه لله سبحانه وتعالى على المحبوب لله عزّ وجلّ جاء بتوقيت من الله جلّ جلاله؛ لذلك إيّاك أن تحزن حين تجد لك عدوّاً، فالأحمق هو الّذي يحزن لذلك، والعاقل هو الّذي يرى لعدوّه فَضْلاً عليه، فالعدوّ يُذكِّر الإنسان دائماً أن يكون قويّاً مستعدّاً، يُذكِّره أن يكون مستقيماً حتّى لا يجد عدوّه منه فرصة أو نقيصة، فالعدوّ يجعل الإنسان يُجَنِّد ملكاته كلّها للخير ليكون أفضل منه؛ لذلك يقول الشّاعر:

عِداتي لهم فَضلٌ عليّ ومِنَّةٌ ... فَعِنْدي لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا
فَهُمْ كدَواءٍ والشِّفاء بِمُرّهِ ... فلا أبعدَ الرّحمنُ عنّي الأعَادِيا
هُم بحَثُوا عن زَلّتي فاجتَنَبْتُهَا ... وهُمْ نافسُوني فاكتسبْتُ المعَاليَا

فللّه ﷻ الأمر من قبل ومن بعد، وله الحكمة في أنْ ينتصر الباطل أحياناً، ألا ترى غزوة أحد، وكيف هُزِم المسلمون لمّا خالفوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا مواقعهم طمعاً في مغنم، وانهزموا، مع أنّ رسول الله ﷺ معهم؛ لأنّ سنّة الله ﷻ في كونه تقضي بالهزيمة حين نخالف أمر رسول الله ﷺ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم ﷺ؟ لو انتصروا لفقد أمر الرّسول ﷺ مصداقيّته، فطاعة الرّسول ﷺ واجبة، وفي يوم حنين: ﴿حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التّوبة: من الآية ٢٥]، حتّى قالوا: لن نُغلب اليوم عن قِلّة، فلمّا نظروا إلى قوّتهم ونسُوا تأييد الله ﷻ هُزِموا في بداية الأمر، ثمّ تداركتهم رحمة الله ﷻ، فنصرهم في النّهاية، فللّه الأمر من قبل ومن بعد، فإيّانا أن نظنّ أنّ انتصار الباطل جاء غصْباً عن إرادة الله ﷻ، أو خارجاً عن مراده ﷻ، إنّما أراده الله ﷻ وقصده لحكمة.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾: أيّ نصر الّذي يفرح به المؤمنون؟ أيفرحون لانتصار الرّوم على الفرس؟ قالوا: بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية، فهم أوّلاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفّار وملحدين، ويفرحون أنّ بشرى رسول الله ﷺ تحقّقتْ، ويفرحون لأنّهم آمنوا برسول الله ﷺ وصدّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى، كما أنّ اليوم الّذي انتصر فيه الرّوم صادف اليوم الّذي انتصر فيه المسلمون في بدر.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾: الفرس أو الرّوم، ما دام أنّ له الأمر من قبل ومن بعد.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بهاتين الصّفتين: العزيز والرّحيم، مع أنّ العزيز هو الّذي يغلب ولا يُغْلب، فقاهريّته سبحانه وتعالى عالية في هذه الصّفة، ومع ذلك أتبعها بصفة الرّحمة؛ ليُحدِث في نفس المؤمن هذا التّوازن بين صفتي القهر والغلبة وبين صفة الرّحمة، كما أنّنا نفهم من صفة العزّة هنا أنّه لا يحدث شيء إلّا بمراده جل جلاله، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر، حتّى لو انتصر الباطل، لا يتمّ ذلك إلّا لمراده عز وجل؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يُبقي الباطل ولا يُعلي الكفر إلّا ليظهر الحقّ، فحين يُعَضُّ النّاس بالباطل، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسّكون به، واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التّوبة: من الآية ٤٠]، ولم يقل: وجعل كلمة الله هي العليا؛ لأنّها ليستْ جَعْلاً؛ لأنّ الجَعْل تحويل شيء إلى شيء، أمّا كلمة الله جل جلاله فهي العليا بداية ودائماً، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين.

(الآية ٦) - ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾:

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: الوعد: هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون.

﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾: وفرْقٌ بين وعد الله سبحانه وتعالى ووعد النّاس؛ لأنّك قد تعد إنساناً بخير، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به، كأن يتغيّر رأيك أو تضعف إمكاناتك، أو يتغيّر السّبب الّذي كنت ستفعل من أجله، فأنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه، أمّا وعد الحقّ سبحانه وتعالى فوعد محقّق، حيث

لا توجد قوّة تُخرِجه عمّا وعد، وهو جَلَّ جَلَالُهُ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، فما دام الوعد وعدَ الله عَزَّ وَجَلَّ فثِقْ أنّه محقّق، لذلك يُعلِّمنا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: الآية ٢٣- من الآية ٢٤].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: نفى عنهم العلم؛ أي: ببواطن الأمور وحقيقتها، فهناك قلّة تعلم، هذه القلّة الّتي أنار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قلبها بالإيمان.

(الآية ٧) - ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾:

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: إذا رأينا فعلاً نُفِي مرّة، وأُثبت مرّة أخرى، فلنعلم أنّ الجهة منفكّة، فهم لا يعلمون بواطن الأمور، إنّما يعلمون ظواهرها، وليتهم يعلمون ظواهر كلّ شيء، إنّما ظواهر الدّنيا فحسب، ولا يعلمون بواطنها، فما بالنا بالآخرة؟! فحين نتأمّل أمور الدّنيا والقوانين الوضعيّة الّتي وضعها البشر، ثمّ رجعوا عنها بعد حين، نجد أنّنا لا نعلم من الدّنيا إلّا الظّاهر؛ لأنّ الأحوال تتبدّل، فتتبدّل القوانين والأنظمة، هذا عن عِلْمنا بأمور الدّنيا، أمّا الآخرة فنحن في غفلة عنها؛ لذلك يقول سيّدنا الحسن: "أعجب للرّجل يمسك الدّينار بأنامله فيعرف وزنه، ويرنّه فيعرف زيوفه من جيّده، ولا يُحسن الصّلاة"، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: من الآية ١٧]، فنفى الرّمي، وأثبته في آية واحدة؛ لأنّ الجهة منفكّة، فالإثبات لشيء، والنّفي لشيء آخر، كذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفّار، لكن: ﴿وَمَا

﴿رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ [الأنفال: من الآية ١٧]، هذه الحفنة؛ لأنّ قدرتك البشريّة لا توصل هذه الرّمية إلى الجيش كلّه، فهذه قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾: الآخرة دار باقية دائمة، دار نعيم لا ينتهي، ولا يفوتك بحال، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة؟ لذلك عندما سُئِل الإمام عليّ -كرّم الله وجهه-: أريد أن أعرف أنا من أهل الدّنيا أم من أهل الآخرة؟ فقال: لم يدع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الجواب لي، إنّما الجواب عندك أنت، فإنْ دخل عليك اثنان: واحد جاء بهدية، والآخر جاء يسألك عطيّة، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهديّة فأنت من أهل الدّنيا، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطيّة فأنت من أهل الآخرة.

لكن، لماذا أعاد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الضّمير في: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، ولم يقل: (وهم عن الآخرة غافلون)؟ الجواب: لو قال الحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: (وهم عن الآخرة غافلون) لَفُهم أنّ الغفلة مسيطرة عليهم، وليست هناك أدلّة تُوقِظهم، إنّما: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ يعني: الغفلة واقعة منهم أنفسهم، وإلّا فالأدلّة واضحة، لكن ما جدوى الأدلّة مع قوم هم غافلون؟.

(الآية ٨) - ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾:

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾: المعنى: أن يكون ذلك منهم: لا يعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدّنيا، ويغفلون عن الآخرة، ولم يتفكّروا في أنفسهم، فيأتي لهم بالدّليل مرّة في أنفسهم، ومرّة في السّموات والأرض.

الدّليل في الأنفس يقول لك: فكِّر في نفسك؛ أي: اجعلها موضوع تفكيرك، وتأمّل ما فيها من أسرار دالّة على قدرة الخالق ﷻ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال في الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد، وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدّمتْ العلوم، ومهما بحثنا في أنفسنا، ويكفي أن نقرأ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات]، فدعانا ربّنا سبحانه وتعالى إلى البحث في أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السّماء والأرض؛ لأنّ أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما في السّموات والأرض من آيات، أمّا نفس الإنسان فهي أقرب دليل منه وأقوى دليل عليه، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾؛ أي: فكِّروا في أنفسكم بعيداً عن ضجيج النّاس وجدالهم ومِرائهم، فحين تجادل النّاس تجد لجاجة وحرصاً على الظّهور، ولو بالباطل، إنّما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمّل فيها، فلا مُعاند، ولا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك، ولا تطمع في مكانة أو منزلة؛ لذلك تصل بالنّظر في نفسك إلى الحقيقة، لذلك يخاطب القرآن الكريم النّبيّ ﷺ بقوله: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ [سبأ: من الآية ٤٦]، يعني: يا مَنْ تفكِّرون في صدق هذا الرّسول، وتتّهمونه بالكذب والافتراء والسّحر، أريد منكم شيئاً واحداً: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: من الآية ٤٦]؛ أي: مثنى مثنى، أو منفردين، كلٌّ على حدة: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: من الآية ٤٦]، فالطّريق إلى الحقيقة يكون بتأمّل الإنسان مع نفسه، أو مع مثله.

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾: بعد أنْ أمرنا ربّنا سبحانه وتعالى بالتّفكّر في أنفسنا يلفتنا إلى التّأمّل فيما حولنا من السّموات

والأرض، وهناك آية أخرى تقدّم التّفكُّر في السّماء والأرض على التّفكّر في النّفس، هي قوله ﷻ: ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: من الآية ٥٧]، فالآيات والأدلّة في أنفسكم وفي السّموات والأرض.

﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾: أي: من الكواكب والأفلاك والنّجوم الّتي نشاهدها في جوّ السّماء، فالكونيّات تُبنَى على علوم ودراسات، تقود إلى الإيمان.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾: لأنّ السّموات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلّف، والحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر أبداً، ولنتأمّل حركة الكواكب والأفلاك والشّمس والقمر نجد أنّها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً، ومع ذلك، ومع أنّ الكون خلقه الله ﷻ بالحقّ الثّابت لكن إيّانا أن نظنّ أنّ ثباته دائم باقٍ؛ لأنّ الله ﷻ خلقه على هيئة الثّبات لأجل ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾، فبعد أن ينقضي هذا الأجل الّذي أجَّلَه الله ﷻ تُكوَّر الشّمس وتنكدر النّجوم، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسّموات، فالأمر ليس مجرّد أنْ يتغيّر الشّيء الثّابت، إنّما يزول وينتهي.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾: فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ﷻ ضرورة يقتضيها المنطق السّليم، ومع ذلك يكفر بها كثير من النّاس، فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللّقاء؛ لأنّ قوانين الأرض إنّما تَحْمي من ظاهر المنكر، وأمّا باطن المنكر فلا يعلمه إلّا الله ﷻ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقب فيها أصحاب باطن المنكر.

(الآية ٩) - ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾:

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: المعنى: أيكفرون بلقاء ربّهم ﷻ ولم يسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم -خُذْ فقط أمور الدّنيا، فهي كافية لمن اعتبر بها- فهؤلاء لم يسيروا في الدّنيا، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة، ولم يتّعظوا بما وقع في الدّنيا فضلاً عمّا سيقع في الآخرة، فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين في الدّنيا وشاهدناه بأعيننا، فينبغي أن نُصدِّق ما أخبر به الله ﷻ عن الآخرة؛ لأنّك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة ممّا تعلم، فسيروا في الأرض، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الّذين كذَّبوا، وماذا فعل الله ﷻ بهم؟!

والسَّيْر: قَطْع المسافات من مكان إلى مكان.

﴿يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: لكن أنسير في الأرض أم على الأرض؟ هذا من دقّة الأداء القرآنيّ، ومظهر من مظاهر إعجازه، فالظّاهر أنّنا نسير على الأرض، لكنّ التّحقيق أنّنا نسير في الأرض؛ لأنّ الّذي خلقنا وخلق الأرض قال: ﴿ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: من الآية ١٨]؛ ذلك لأنّ الأرض ليست مجرّد اليابسة الّتي تحمل الماء، والّتي نعيش عليها، إنّما الأرض تشمل كلّ ما يحيط بها من الغلاف الجوّيّ؛ لأنّها دونه لا تصلح للعيش عليها،

فغلاف الأرض مِن الأرض، فحين نسير لا نسير على الأرض، إنّما في الأرض. والسّير في الأرض نظر له الدّين من ناحيتين: سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار، وسيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار، فالسّير للاعتبار أن نتأمّل الآيات في الأرض الّتي نمرّ بها، فالجزيرة العربيّة مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزّرع، فإنْ ذهبنا إلى أسبانيا مثلاً نجدها بلاداً خضراء لا نكاد نرى سطح الأرض من كثرة النّباتات بها، وفي كلّ منهما خيرات؛ لأنّ الخالق ﷻ وزَّع أسباب الفضل على الكون كلّه، فحين نسير في الأرض وننظر بعين الاعتبار نجد أنّ الله ﷻ وزّع بها الخيرات على اختلاف ألوانها، فمجموع الخير في كلّ قطاع من الأرض يساوي مجموع الخيرات في القطاعات الأخرى، فالجبال الّتي هجرناها في الماضي، وقُلْنا: إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها، هي الآن مخازن للثّروات والخيرات، قد اتّجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها، فالخالق ﷻ وزَّع الخيرات على الأرض، كما وزَّع المواهب على الخَلْق، ليظلّ الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة، لا يستغني النّاس بعضهم عن بعض، ولا البلاد بعضها عن بعض، وهنا لفتة إيمانيّة: أنّ الخلق كلّهم عباد الله ﷻ وصنعته، والبلاد كلّها أرض الله ﷻ وملكه، وليس لله ﷻ ولد، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ولا نسب، فجميعهم عنده سواء، لذلك سبق أن قلنا: لا ينبغي لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده؛ لأنّ خيره سيعود على الجميع حتماً.

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: أي: الأمم الّتي كذَّبَتْ الرّسل، وفي آية أخرى يوضّح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذّبين: ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]، ويخاطب سبحانه وتعالى كفّار قريش فيقول جلَّ جلاله: ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصّافّات]؛ أي: في أسفاركم ورحلات تجارتكم ترونَ مدائن صالح وغيرها من القرى الّتي أصابها العذاب ما زالت شاخصة لكلّ ذي عينين، ويقول جلَّ جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر]، وكانوا في رمال الأحقاف، ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]، لقد كان لكلّ هؤلاء حضارات ما زالت حتّى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم، فيأتون إليها ليتأمّلوا ما فيها من أسرار وعجائب، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمي نفسها من الدّمار والزّوال، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله عزَّ وجلَّ حين حَلَّ بها، فلكم في هؤلاء عِبْرة، وكأنّ الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ يقول لكفّار قريش: أنتم يا مشركي قريش أقلّ الأمم، لا قوّةَ لكم، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم، إنّما سبق أنْ أخذتم العهد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]، لذلك يقول بعدها:

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: فالأمم المكذِّبة الّتي أخذها الله سبحانه وتعالى وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم، وأخصب أرضاً، لذلك أثاروا الأرض؛ أي: حرثوها للزّراعة والإعمار، وأنتم بواد ذي زرع، والحرث يُطلَق على

الزّرع، كما في قوله ﷻ: ﴿ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ ﴾ [البقرة: من الآية ٢٠٥]، فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتّعوا بها وجمعوا خيراتها.

﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي: بما يسّر الله ﷻ لهم من الطّاقات والإمكانات، وأعملوا فيها الموهبة الّتي جعلها الله ﷻ فيهم، فاستخرجوا من الأرض خيراتها، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: من الآية ٦١]، وإعمار الأرض يكون بكلّ مظهر من مظاهر الرّقيّ والحياة، إمّا بالزّرع أو الغَرْس، وإمّا بالبناء، وإمّا بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطّرق وغير ذلك ممّا ينفع النّاس، ونُفرِّق هنا بين الزّرع والغَرْس: فالزّرع ما تزرعه ثمّ تحصده مرّة واحدة، كالقمح مثلاً، أمّا الغرس فما تغرسُه، ويظلّ فترة طويلة يُدرّ عليك، فمحصوله مُتجدِّد كحدائق الفاكهة، والزّرع يكون ببذْر الحبِّ، أمّا الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾: فبعد أنْ أعطاهم مقوِّمات الحياة وإمكانات المادّة وطاقاتها، وبعد أنْ جَنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادّة، إنّما أعطاهم إمكانات القِيَم والدّين، فأرسل لهم الرّسل.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: أي: الآيات الواضحات الدّالّة على صِدْق الرّسول في البلاغ عن ربّه ﷻ، وهذه الّتي نسمّيها المعجزات.

وسبق أنْ ذكرنا أنّ كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة: آيات كونيّة دالّة على قدرة الصّانع ﷻ، كالشّمس والقمر، وآيات تُؤيِّد الرّسل وتُثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله ﷻ، وهي المعجزات، وآيات القرآن الكريم الّتي تحمل الأحكام والمنهج، وكلّها أمور واضحة بيّنة.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: نعم، ما ظلمهم الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه جل جلاله أمدّهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادّة، ثمّ أمدّهم بمقوّمات الرّوح والقيم، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه وتعالى فما ظلموا إلّا أنفسهم.

(الآية ١٠) - ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾:

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾: الإساءة ضدّها الإحسان، وسبق أن قلنا: إنّ الإحسان: أن نترك الصّالح على صلاحه، أو أن نزيده صلاحاً، فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾: أي: الّذي جاء إلى الصّالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً، وطبيعيّ أن تكون عاقبته من جنس فِعْله.

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: مؤنّث سيّء، مثل: حسن للمذكّر، وحُسْنى للمؤنّث، وأصغر وصُغْرى، فهي أفعل تفضيل من السُّوء.

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾: فالأمر لم يقف عند حَدّ التّكذيب بالآيات، إنّما تعدّى التّكذيب إلى الاستهزاء، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين؟ فكثيراً ما نلاحظ أنّ التّلميذ الفاشل يستهزىء بالمجتهد، والمنحرف يستهزىء بالمستقيم.

(الآية ١١) - ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١﴾:

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: هل بدأ الله سبحانه وتعالى الخلق بالفعل، أم ما زال يبدأ الخلق؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلّم، فهو سبحانه وتعالى بدأ الخَلْق أصوله أوّلاً،

وما يزال خالقاً ﷻ، وما دام هو الّذي خلق بَدْءاً، فهو الّذي يُعيد، وفي أعراف البشر أنّ إعادة الشّيء أهون من ابتدائه؛ لأنّ الابتداء يكون من عدم، أمّا الإعادة فمن موجود، لذلك يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]؛ أي: بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم، لكن في الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون في حقّه ﷻ؛ لأنّه ﷻ لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها، إنّما بـ: ﴿كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: من الآية ١١٧]، لكن يخاطبنا ﷻ على قَدْر عقولنا، فالحقّ ﷻ بدأ الخلق وما يزال ﷻ يخلق، وانظر مثلاً إلى الزّرع تحصده وتأخذ منه للعام القادم، وهكذا في دورة مستمرّة بين بَدْء وإعادة، وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطّريّة بما فيها من جمال في المنظر والرّائحة، فإذا ما قُطِفتْ جفَّتْ؛ لأنّ المائيّة الّتي بها تبخّرتْ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر في الأثير، ثمّ يتفتّت الباقي ويصير تراباً، فإذا ما زرعت وردة جديدة أخذت من المائيّة الّتي تبخّرت ومن اللّون والرّائحة الّتي في الجوّ، وهكذا تبدأ دورة وتنتهي أخرى؛ لأنّ مُقوِّمات الحياة الّتي خلقها الله ﷻ هي ذاتها في الكون، لا تزيد ولا تنقص، فالماء في الكون كما هو منذ خلقه الله ﷻ، هَبْ أنّك شربت طوال حياتك عشرين طنّاً من الماء، هل تحمل معك هذا الماء الآن؟ الجواب: لا، إنّما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن.. إلخ، وهذا كلّه تبخَّر ليبدأ دورة جديدة.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: نلحظ أنّ الكلام هنا عن الخَلْق: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، لكن انتقل السّياق من المفرد إلى الجمع: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولم يقل: (يرجع)؛ أي: الخلْق، لماذا؟ قالوا: لأنّ النّاس جميعاً لا يختلفون في بَدْء الخلق

ولا في إعادته، لكن يختلفون في الرّجوع إلى الله ﷻ، فهذا مؤمن، وهذا كافر، هذا طائع، وهذا عاصٍ، وهذا بين بين، ففي حال الرّجوع إلى الله ﷻ ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين: طريق للسّعداء، وطريق للأشقياء، لذلك لزم صيغة الإفراد في البَدْءِ وفي الإعادة، وانتقل إلى الجمع في الرّجوع إلى الله ﷻ لاختلافهم في الرّجوع.

(الآية ١٢) - ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢﴾:

﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أي: يسكتون سُكوتَ اليائس الّذي لا يجد حجّة، فينقطع لا يدري ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه، حتّى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب، فلم يعُدْ لهم أمل في النّجاة، كما قال ﷻ عن فرعون: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: من الآية ٩٨]، ومن ذلك سُمِّي (إبليس)؛ لأنّه يئس من رحمة الله ﷻ، وفي موضع آخر يقول الحقّ ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام]؛ أي: لمّا نسوا منهج الله ﷻ أراد ﷻ أن يعاقبهم في الدّنيا، وحين يعاقبهم الله ﷻ في الدّنيا لا يأخذهم على حالهم، إنّما يُرخي لهم العَنان، ويُزيد لهم في الخيرات، ويُوسِّع عليهم مُتَع الدّنيا وزخارفها، حتّى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليماً، وكانت سقطتهم من أعلى، ولنا ملحظ في قوله ﷻ: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٤]، فمادّة (فتح) إنْ أراد الحقّ ﷻ الفتح لمصلحة المفتوح عليه، يقول: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ [الفتح]، وإن أراد الفتح لغير مصلحته، يقول: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٤]، والفرق بيِّن بين المعنيين؛ لأنّ اللّام هنا للملك:

﴿فَتَحۡنَا لَكَ﴾ [الفتح: من الآية ١]، إنّما (على): ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٤]، فتعني ضدّهم وفي غير مصلحتهم، كما نقول في المحاسبة: له وعليه، له في المكسب وعليه في الخسارة.

(الآية ١٣) - ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣﴾:

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾: نعم، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم؛ لأنّ الشّركاء قد تبرّؤوا منهم، كما قال ﷻ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة]، وكذلك يقول التّابعون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصّلت: من الآية ٢٩]، وما أشبه هذين: التّابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللّعب وتضييع الوقت، وشغَل كلّ منهما صاحبه عن دروسه، وأغواه بالتّسكّع في الطّرقات، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة، فراح كلّ منهما يعاتب الآخر، ويُلقي عليه بالمسؤوليّة، فساعة الجدّ تنهار هذه الصّلات الواهية كلّها، وتتقطّع كلّ الحبال الّتي تربط أهل الباطل في الدّنيا.

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾: ولِمَ لا وقد تكشّفتْ الحقائق، وظهر زيفهم وبان ضلالهم؟.

(الآية ١٤) - ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: أراد الله ﷻ من التّكرار أن يتعلّم الإنسان، وأن يستعدّ، وأن يسمع دائماً عبارة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾: أي: الّذين اجتمعوا في الدّنيا على الشّرّ وعلى الضّلال يتفرّقون يوم القيامة، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلّاء، فيمتاز المؤمنون في ناحية والكافرون في ناحية، حتّى العصاة من المؤمنين الّذين لهم شيء من الطّاعة لا يتركهم المؤمنون، إنّما يشفعون لهم ويأخذونهم في صفوفهم.

والتّنوين في: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من جملة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾؛ أي: يوم تقوم السّاعة يتفرّقون.

(الآية ١٥) - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرّقون، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة: الّذين آمنوا، والّذين كفروا، وها هي الآيات تُرينا هذا التّفصيل:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فما جزاؤهم؟

﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾: الرّوضة: هي المكان المليء بالخضرة والأنهار والأشجار والنّضارة، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب؛ لأنّهم أهل صحراء تقلُّ في بلادهم الحدائق والرّياض، لذلك فالرّياض والبساتين عندهم شيء عظيم ونعمة كبيرة.

﴿يُحْبَرُونَ﴾: من الحبور، وهو الفرحة حينما يظهر على الإنسان أثر النّعمة، هذا عن المؤمنين، فماذا عن الكافرين؟

(الآية ١٦) – ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: المحضَر (بالفتح): الّذي يحضره غيره، ولا تُقَال إلّا في الشّرّ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة، وإلّا لحضر هو بنفسه، والإنسان يفزع لسماع هذه الكلمة؛ لأنّ المحضر لا يأتيك إلّا لشرّ، كذلك حال الكفّار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة، وتجبرهم، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم. ويجب أن ننتبه لأمر مهمّ جدّاً أنّ الله سبحانه وتعالى يؤكّد عند الحديث عن الإيمان على الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر، وعندما يتحدّث عن التّكذيب والكفر يتحدّث أيضاً عن لقاء الآخرة، فاليوم الآخر يجب أن يكون حاضراً في الحياة الدّنيا، حتّى لا يكون المحسن والمسيء سواء.

وبعضهم يسأل: لماذا كُتبت الهمزة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على ألف مقصورة، بينما في أماكن أخرى نجد الهمزة على السّطر؟ السّبب أنّه قرآن، وليس كتاباً كباقي كتب البشر، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، بأنّك تجد اختلافاً لا يوجد في كتاب آخر، أحياناً في التّاء المفتوحة أو المربوطة، وأحياناً بحذف الحرف وإثباته، ليتميّز القرآن الكريم عن غيره.

(الآية ١٧) – ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هنا تتجلّى عظمة الإيمان، وتتجلّى محبّة الله سبحانه وتعالى لخَلْقه، حيث يدعوهم إليه في أوقات اليوم واللّيلة كلّها، في الصّباح وفي المساء، في العشيّة والظّهيرة.

وكلمة: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هي في ذاتها عبادة وتسبيح لله سبحانه وتعالى، تعني: أُنزِّه الله عز وجل عن أنْ يكون مثله شيء؛ لذلك يقول أهل المعرفة: "كلّ ما يخطر ببالك فالله عز وجل غير ذلك"؛ لأنّه سبحانه وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فالله سبحانه وتعالى مُنزَّه في ذاته، مُنزَّه في صفاته، مُنزَّه في أفعاله، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه وتعالى نفهمها في إطار: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، ولو استقرأنا مادّة (سبّح) ومشتقّاتها في كتاب الله سبحانه وتعالى نجد في أوّل الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ١]، وفي أوّل سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: من الآية ١]، ثمّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: من الآية ١]، فكأنّ الله سبحانه وتعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه، فالتّسبيح ثابت لله عز وجل أوّلاً، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السّموات والأرض، ولم ينقطع تسبيحها، إنّما ما زالت مُسبِّحة لله سبحانه وتعالى، فإذا كان التّسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه، وحين خلق السّموات والأرض سبَّحتْ له السّموات والأرض وما زالت، فعليك أيّها الإنسان ألّا تشذَّ عن هذه القاعدة، وألّا تتخلّف عن هذه المنظومة الكونيّة، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً؛ لذلك جاء في القرآن الكريم: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى]، لذلك نقول في صلواتنا: سبحان ربّي العظيم، سبحان ربّي الأعلى، في الرّكوع وفي السّجود، فاستح أيّها الإنسان، فكلّ شيء في الوجود مُسبِّح: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، ألم يقُلْ عن الجبال: إنّها تُسبِّح مع داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص]، ألم يُثبت

للنّملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً؟ وقال في عموم الكائنات: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النّور: من الآية ٤١]، فالتّسبيح لله ﷻ من الكائنات كلّها، فساعةَ نسمع كلمة التّسبيح فلنعلم أنّنا سنستقبل حدثاً فريداً، ليس كأحداث البشر، ولا يخضع لقوانينهم، كرحلة الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء].

(الآية ١٨) - ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾:

نلحظ أنّ قوله ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة، فجعلت: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ في ناحية، ﴿وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ في ناحية، مع أنّها جميعاً أوقات وأزمنة في اليوم واللّيلة، لماذا هذا التّفصيل؟ قالوا: لأنّه ﷻ يريد أنْ يُشعرنا أنّ له الحمد، ويجب أنْ نحمده على أنّه مُنزَّه عن المثيل؛ لأنّها في مصلحة الإنسان، وهو الجاني لثمار هذا التّنزيه، فإذا أرادك بخير فلا مثيلَ له ﷻ يمنعه عنك، وله وحده الكبرياء الّذي يحميك أن يتكبّر أحد عليك، وله وحده تخضع وتسجد، لا تسجد لغيره، فسجودك لوجه ربّك يكفيك الأوجه كلّها، فبعد التّسبيح: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾؛ لأنّ التّسبيح ينبغي أنْ يُتبَع بالحمد، فتقول: سبحان الله والحمد لله؛ أي: الحمد لله ﷻ على أنّني سبَّحت مسبَّحاً.

وحين نتأمّل هذه الأوقات الّتي أمرنا الله ﷻ فيها بالتّسبيح، وهي المساء، والصّباح، والعشيّ -وهي من العصر إلى المغرب-، ثمّ الظّهيرة، نجد أنّها أوقات عامّة سارية في كَوْن الله ﷻ لا تنقطع أبداً، فأيّ صباح وأيّ

مساء؟ صباحي أنا؟ أم صباح الآخرين؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة؟ إنّ المتأمّل في دورة الوقت يجد أنّ كلّ لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء، وعشيّة وظهيرة، وهذا يعني أنّ الله ﷻ مُسبَّح معبود في كلّ لحظة من لحظات الزّمن، وفي ضوء هذا نفهم قول الرّسول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ**»(١)، فالكون لا يخلو في لحظة واحدة من ليل أو نهار، وهذا يعني أنّ يد الله ﷻ مبسوطة دائماً لا تُقبَض: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: من الآية ٦٤].

(الآية ١٩) - ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾:

أوّلاً: ما مناسبة الحديث عن البعث، وإخراج الحيّ من الميّت، وإخراج الميّت من الحيّ بعد الحديث عن تسبيح الله ﷻ وتحميده؟ قال العلماء: لأنّه تكلّم عن المساء والصّباح، وفيهما شبه بالحياة والموت، ففي المساء يحلُّ الظّلام، ويسكُن الخَلْق وينامون، فهو وقت للهدوء والاستقرار، والنّوم الّذي هو صورة من صور الموت؛ لذلك نسمّيه الموت الأصغر، وفي الصّباح وقت الحركة والعمل والسّعي على المعاش، ففيه حياة، كما يقول ﷻ: ﴿ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾ [النّبأ]، ويُمثَّل الموت والبعث بالنّوم والاستيقاظ منه، كما جاء في بعض المواعظ: "لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون"، وما دُمْنا قد شاهدنا الحالَيْنِ، وعايَنّا النّوم واليقظة، فلنأخذ منهما

(١) صحيح مسلم: كتاب التَّوبةِ، بابُ قَبُولِ التّوبةِ مِنَ الذُّنوبِ وإنْ تكرَّرتِ الذُّنوبُ والتّوبةُ، الحديث رقم (٢٧٥٩).

دليلاً على البعث بعد الموت، وإنْ أخبرنا القرآن الكريم بذلك، فعلينا أنْ نُصدِّق، وأنْ نأخذ من المُشَاهَد دليلاً على الغَيْب، وهذا ما جاءتْ به الآية:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: وقوله ﷻ هنا: ﴿ٱلْحَىَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتَ﴾؛ أي: في نظرنا نحن وعلى حَدِّ عِلْمنا وفَهمنا للأمور، وإلّا فكُلُّ شيء في الوجود له حياة تناسبه، ولا يوجد موت حقيقيّ إلّا عند قيام السّاعة الّتي قال الله ﷻ فيها: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، فضدُّ الحياة الهلاك، بدليل قوله ﷻ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٢]، فمعنى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: في عُرْفنا نحن، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة والموت، وعلينا أن ننتبه أنّ الله ﷻ يقول هنا:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الأنعام: من الآية ٩٥]، فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع (يُخْرِج)، لذلك وقف عندها المشكّكون في أسلوب القرآن الكريم، يقولون: إنْ كانت إحداهما بليغة، فالأخرى غير بليغة، وهذا منهم نتيجة طبيعيّة لعدم فَهْمهم للغة القرآن الكريم، وليستْ لديهم المَلَكة العربيّة الّتي تستقبل كلام الله ﷻ، وهنا نقول: إنّ الّذي يتكلّم ربٌّ يُعطي لكلّ لفظة وزنها، ويضع كلّ كلمة في موضعها الّذي لا تُؤدِّيه كلمة أخرى، فقوله ﷻ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ هذه في مصلحة مَنْ؟ في مصلحتنا نحن؛ لأنّ الإنسان بطَبْعه يحبّ الحياة، وربّما استعلى بها، واغترَّ بهذا الاستعلاء، كما قال ربّنا ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، لذلك يُذكِّره ربّه ﷻ بالمقابل: فأنا كما أُخرج الحيَّ من الميّت أُخرِج الميّت

من الحيِّ فانتبه، وإيّاك أنْ تَتعالى أو تتكبَّر، وافهم أنّ الحياة موهوبة لك من ربّك يمكن أنْ يسلبها منك في أيِّ لحظة، وعبَّر عن هذا المعنى مرّة بالفعل المضارع: (يُخْرِج) الدّالّ على الاستمرار والتّجدُّد، ومرّة باسم الفاعل: (مُخْرِج) الدّالّ على ثبوت الصّفة وملازمتها للموصوف، لا مجرّد حدث عارض، لذلك تأمّل قول الله ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك]، وفي نظرنا أنّ الحياة تسبق الموت، لكنّ الله ﷻ يريد أن ينتبه الإنسان إلى أنّ الموت هو المآل، وجعله يستقبل الحياة بما يناقضها، فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ [الملك: من الآية ٢]، فقدَّم الموت على الحياة، فقبل أنْ تفكّر في الحياة تذكّر الموت حتّى لا تغترّ بها ولا تَطْغى، ويتجلّى هذا المعنى أيضاً في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾ [الواقعة]، يعني: خذوا بالكم، وافهموا أنّ الله ﷻ واهب الحياة، ويستطيع أنْ يسلبها فلا تغترَّ بها ولا تطغى، وكأنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يَدُكَّ في الإنسان صفة الكبرياء والتّعالي، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذِكْر الحياة في آيات القرآن الكريم، ثمّ ألَا ترى أنّ الخالق ﷻ لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسّنين، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر، وآخر يموت بعد عدّة أعوام، وآخر بعد مئة عام، فالمسألة لا ضابط لها إلّا أقدار الله ﷻ وأجله الّذي أجّله ﷻ، وفي هذا إشارة للإنسان: احذر فقد تُسْلَب منك الحياة الّتي تغترّ بها في أيّ لحظة، ودون أنْ تدري، ودون سابق إنذار أو مقدّمات، فاستقِمْ على منهج ربّك ﷻ، ولا تجترىء على المعصية؛ لأنّك

قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسَك بالتّوبة، لذلك يقولون: إنّ الحقّ ﷻ حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غايةَ البيان، كيف؟ قالوا: لأنّه ﷻ لو حدَّد لنا موعد الموت لكنّا نستعدّ له قبل أوانه، إنّما حين أبهمه جعلنا نستعدّ له كلّ لحظة من لحظات حياتنا.

﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾: وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء، لا أثرَ فيها لحياة، فلمّا نزل عليها الماء وسقاها المطر تحرّكت وأنبتتْ من كلّ زوج بهيج، فهي نموذج حيٌّ مُشاهد للخَلْق والحياة، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ [الحجّ: من الآية ٦٣]، فهل اخضرّتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر؟ لا، إنّما بعد فترة، كأنّه ﷻ يقول لك: لاحظ الحدث ساعة يوجد، واستحضر صورته، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجيّاً، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً، ففيها بذور شتَّى حملَتْها الرّياح، ثمّ استقرّتْ في التّربة ولو لسنوات طوال تظلّ صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدّي مهمّتها.

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾: كذلك: إشارة إلى ما سبق ذِكْره من إحياء الأرض بعد موتها، كمِثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عمليّة إحياء الأرض الجامدة بالنّبات بعد نزول المطر عليها.

(الآية ٢٠) - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم﴾: الكلام هنا عن بَدْء الخلق، وقال ﷻ:

﴿خَلَقَكُم﴾ بصيغة الجمع، والمراد آدم ثمّ حواء، ثمّ بثَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهما رجالاً كثيراً ونساء، فالعالم اليوم الّذي يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضي لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء، فلمّا التقيا نشأ منهما النّسل، لكن هل نشأ النّسل من أبعاض ميّتة خرجتْ من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أم من أبعاض حيّة هي الحيوانات المنويّة؟ الجواب: لو أنّ الحيوان المنويّ كان ميّتاً لما حدث الإنجاب، فجاء أولاد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من نطفة من أبيهم آدم، وانتشروا في الأرض وأنجبوا، وكلّ منهم يحمل ذرّة من أبيه الأوّل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالتّالي فكُلٌّ مِنّا فيه ذرّة حيّة من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحتّى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً، وهذا هو عَالَم الذَّرِّ الّذي شهد خَلْق الله عَزَّ وَجَلَّ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنّها أبعاضنا الّتي شهدتْ هذا العهد الأوّل بين الخَلْق والخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف]، ففي كلّ مِنّا الآن وحتّى قيام السّاعة ذرّةٌ حيَّة من أبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذه الذّرّة الحيّة هي الّتي شهدتْ هذا العهد، وهي الّتي تمثّل الفطرة الإيمانيّة في كلّ نفس بشريّة، لكنّ هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصي .. إلخ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا أنّه يخلق الأشياء ويُوجِدها بـ: كُنْ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، إلّا الإنسان، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيده، وجعله خليفة له في الأرض، وتجلّى عليه بصفات من صِفاته، فأعطاه من قدرته قدرةً، ومن عِلْمه عِلْماً، ومن حكمته حكمة، ومن غِنَاه غِنىً.

﴿مِّن تُرَابٍ﴾: أي: الأصل الّذي خُلِق منه آدم عليه السلام، والتّراب مع الماء يصير طيناً، فإنْ تعطَّن وتغيَّرَتْ رائحته فهو حمأ مسنون، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخّار، فهذه هي العناصر الّتي وردت ومراحل خَلْقِ الإنسان، وكلّها مُسمَّيات للتّراب، وحالات طرأتْ عليه، فإنْ جاء مَنْ يقول في مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدّقه؛ لأنّ الّذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه، أمّا هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً، وهم في نظر الدّين مُضلّلون، يجب الحذر من أفكارهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول في شأنهم: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ٥١﴾ [الكهف: من الآية ٥١]، فالحقّ سبحانه وتعالى بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب، ثمّ صار طيناً، ثمّ صار حمأ مسنوناً، ثمّ صلصالاً كالفخّار، ثمّ نفخ فيه سبحانه وتعالى من روحه، ونحن لم نشاهد هذه المسألة، إنّما أخبرنا بها الله جل جلاله، ومن رحمته سبحانه وتعالى بخَلْقه، ولكي لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العمليّة يعطينا في الكون المشَاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الّذي لم نشاهده، ففي أعرافنا أنّ هَدْم الشّيء أو نَقْض البناء يأتي على عكس البناء، فما بُني أوّلاً يُهْدَم آخراً، وما بُني آخراً يُهدَم أوّلاً، ونحن لم نشاهد عمليّة الخَلْق، لكن شاهدنا عمليّة الموت، والموت نَقْض للحياة، ولنا أنْ نتأمّلَ الإنسان حينما يموت، فأوّل نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الرّوح، وكانت آخر شيء في بنائه، ثمّ يتصلّب الجسد ويتجمّد، كما كان في مرحلة الصّلصاليّة، ثمّ يتعفّن وتتغيّر رائحته، كما كان في مرحلة الحمأ المسنون، ثمّ تمتصّ الأرض ما فيه من مائيّة ليصير إلى التّراب كما بدأه خالقه جل جلاله من تراب، فصدق الله سبحانه وتعالى في المشهد حين بيَّن لنا الموت، فصدَّقنا ما قاله في الحياة، وكما أنّ التّراب والطّين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر الخصْب والنّماء.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾: ثمّ: أي بعد أنْ خلقنا الله ﷻ من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة؛ لأنّ السّياق استعمل هنا (إذا) الفجائيّة الدّالّة على الفجأة، فالمعنى أنّكم تتزايدون وتنتشرون في الأرض بسرعة.

(الآية ٢١) - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: قلنا: إنّ الآية هي الشّيء العجيب الّذي يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورِث إعجاباً، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق ﷻ، ومن هذه الآيات العجيبة الباهرة:

﴿أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾: يعني: من جنسكم ونوعكم.

فلم يشأ ﷻ أنْ يحدث التّكاثر مثلاً بين إنسان وبين شيء من غير جنسه، إنّما إنسان مع إنسان، يختلف معه فقط في النّوع، هذا ذكر وهذه أنثى، والاختلاف في النّوع اختلاف تكامل، لا اختلاف تعاند وتصادم، فالمرأة للرّقّة والحنان، والرّجل للقوّة والخشونة، فيحدث التّكامل الّذي أراده الله ﷻ وقصده للتّكاثر في بني الإنسان، وعجيب أنْ يرى بعض النّاس أنّ الذّكورة نقيض الأنوثة، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الّذي لا معنى له، فالذّكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل اللّيل والنّهار، وهما آيتان يستقبلهما النّاس جميعاً، هل نُجري مقارنة بين اللّيل والنّهار، أيّهما أفضل؟ لذلك لنتأمّل دقّة الأداء القرآنيّ حينما جمع بين اللّيل والنّهار، وبيّن الذّكر والأنثى، ولنتدبّر هذا المعنى الدّقيق: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ

﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل]؛ أي: مختلف، فلكُلٍّ منكما مهمّته، كما أنّ اللّيل للرّاحة والسّكون، والنّهار للسّعي والعمل، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التّكامل الأعلى، فلا داعي لهذه المسرحيّات الّتي يطالب بها الغرب من المساواة بين الرّجل والمرأة، لقد صُدّعت رؤوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة، وهدفهم تحويل المرأة للمتعة والزّينة، وعندما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل]؛ أي: لكلّ منهما مهمّة.

وبعضهم يرى أنّ: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، يعني: خَلْق حوّاء من ضلع آدم، فهي قطعة منه، لكنّ الكلام هنا: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ مخاطَب به الذّكر والأنثى معاً، فهذا المعنى لا يستقيم، كما أنّ الأزواج تُطلق عليهما أيضاً، على الرّجل وعلى المرأة، وبعضهم يفهم أنّ الزّوج يعني اثنين، لكنّ الزّوج مفرد معه مثله؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [الرّعد: من الآية ٣]. وفي الماضي كنّا نعتقد أنّ نوع الجنين إنّما يتحدّد من ماء الرّجل وماء المرأة، لكنّ القرآن الكريم يقول غير ذلك: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة]، فماء المرأة لا دخلَ له في نوع الجنين، ذكراً كان أم أنثى، الذّكورة والأنوثة يحدّدها ماء الرّجل، وهذا ما أثبته العلم الحديث، وعلى هذا نقول: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، يعني: من ذكور الأزواج.

﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾: هذه هي العلّة الأصيلة في الزّواج؛ أي: يسكن الزّوجان أحدهما للآخر، والسّكن لا يكون إلّا عن حركة، كذلك فالرّجل طوال يومه في حركة العمل والسّعي على المعاش يكدح ويتعب، فيريد آخر النّهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرّقة، وفي هذا السّكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل في

الغد، فالمرأة لا تجد غير زوجها، والرّجل لا يجد غير زوجته، ثمّ إنّ الأمر لا يقتصر على السَّكَن، إنّما:

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: المودّة هي الحبّ المتبادل في الحياة وشراكتها، وبعد مرور سنوات من الحبّ والحنان المتبادل، تأتي الرّحمة في مؤخّرة هذه الصّفات: سكن ومودّة ورحمة؛ ذلك لأنّ البشر عامّة أبناء أغيار، وكثيراً ما تتغيّر أحوالهم، فالقويّ قد يصير إلى الضّعف، والغنيّ قد يصير إلى فقر، والمرأة الجميلة تُغيّرها الأيّام أو يهدّها المرض... إلخ، وتلد وتُرضع وتتعب، لذلك يلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى أنّ هذه المرحلة الّتي ربّما فقدتم فيها السّكن، وفقدتُم المودّة، فإنّ الرّحمة تسعكما، فليرحم الزّوج زوجته إنْ قَصّرت، ولترحم الزّوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر، فهذا هو المعيار الّذي قاله النّبيّ ﷺ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ»[(١)]، وعندما قال ﷺ في اختيار الزّوجة: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ»[(٢)]، فأنت وهي أبناء أغيار، لا يثبت أحد منكما على حاله، ستمرّ بكم السّنون والأيّام، فأنتما تحتاجان إلى الرّحمة، هذا هو المنهج الإلهيّ، إن كرهت منها خلقاً رضيت منها خلقاً آخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ النِّكاحِ، بابُ ما جاءَ إذا جاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دينهُ فَزَوِّجُوهُ، الحديث رقم (١٠٨٥).

(٢) صحيح البخاريّ: أبوابُ النّكاحِ، بابُ الأكْفاءِ في الدِّينِ، الحديث رقم (٥٠٩٠).

﴿ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾ [النّساء: من الآية ١٩]، **فالعلاقة هي علاقة مودّة وسكن** ورحمة، وإيّاك حين تكبر زوجتك أن تقول: إنّها لم تعد تملأ نظري، أو كذا وكذا؛ لأنّ الله ﷻ جعلها سكناً ورحمة ومودّة لك، وجعلك كذلك لزوجتك، وكلّما طبّق الزّوجان المقاييس الشّرعيّة، وتحلّيا بآداب الدّين وجد كلّ منهما في الآخر ما يعجبه، فإنْ ذهب الجمال الظّاهريّ مع الزّمن فسيبقى جمال الرّوح والقيم ووقارها، سيبقى في المرأة جمال الطّبع والسّلوك، وكلّما تذكّر الرّجل إخلاصها وتفانيها وسهرها وتعبها، تمسّكْ بها، وكذلك الحال بالنّسبة إلى الزّوجة، فلكلّ مرحلة من العمر جاذبيّتها وجمالها الّذي يُعوّضنا ما فات، فلا يكفي في عرض الزّواج الإيجاب والقبول والشّهود والمهر والإشهار، لكن لا بدّ أن نقول كما قال رسول الله ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ**»(١)، وَعَن الحَسَن أَتَاهُ رجل، فَقَالَ: إِنّ لي بِنْتاً أحبّها وَقد خطبَها غيرُ وَاحِد، فَمن تُشِير عَليّ أَن أزوّجها؟ قَالَ: "زوّجها رجلاً يَتَّقِي اللَّه، فَإِنَّهُ إِن أَحبّها أكرمها، وَإِن أبغضها لم يظلمها".

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: يتفكّرون في هذه المسائل وفي هذه المراحل الّتي تمرُّ بالحياة الزّوجيّة، وكيف أنّ الله ﷻ جعل لنا الأزواج من أنفسنا، وكيف بنى هذه العلاقة الزّوجيّة على السَّكَن والحبّ والمودّة، ثمّ في مرحلة الكِبَر على الرّحمة الّتي يجب أنْ يتعايش بها الزّوجان طيلة حياتهما معاً.

---

(١) صحيح مسلم: كتابُ الحجّ، بابُ حَجَّةِ النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (١٢١٨).

(الآية ٢٢) - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: في خلق السّموات والأرض آيات أظهرها سُبحانه وتعالى لنا، كما قال جلّ جلاله في موضع آخر: إنّها تقوم على غير عمد، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٠]، فالسّماء الّتي نراها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة، ولنا أنْ نسير في الأرض، وأنْ نبحث عن هذه العُمد فلن نرى شيئاً، أو أنّ المعنى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٠]، يعني: هي موجودة لكن لا ترونها، والمنطق يقتضي أنّ الشّيء العالي لا بُدَّ له إمّا من عُمُد تحمله من أسفل، أو قوّة تُمسكه من أعلى؛ لذلك ينبغي أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصّورة، فالله سُبحانه وتعالى يقول في موضع آخر: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: من الآية ٤١]، فليست للسّماء أعمدة، إنّما يمسكها خالقها عزّ وجلّ من أعلى، فلا تقع على الأرض إلّا بإذنه، ولا نتعجّب من هذه المسألة، فقد أعطانا الله سُبحانه وتعالى مثالاً مُشاهداً في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ٧٩]، فإنْ قُلْت: يمسكها في جوّ السّماء حركة الجناحين ورفرفتها الّتي تحدث مقاومة للهواء، فترتفع به، وتمسك نفسها في الجوّ، نقول: وتُمسك أيضاً في جوّ السّماء دون حركة الجناحين، واقرأ إنْ شئتَ قوله سُبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: من الآية ١٩]، فترى الطّير في السّماء مادّاً جناحيه ثابتاً دون حركة، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه في جَوِّ السّماء إلّا

قدرة الله ﷻ، فنأخذ ممّا نشاهد دليلاً على صدْق ما لا نشاهد؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: من الآية ٥٧]، مع أنّها خُلِقت لخدمة الإنسان، فمع أنّك أيّها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ﷻ، وفيك انطوى العالم الأكبر، إلّا أنّ عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسّماء والشّمس والقمر.. إلخ، ثمّ يعود السّياق هنا إلى آية من آيات الله ﷻ في الإنسان:

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾: اللّسان يُطلَق على اللّغة، كما قال ﷻ: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشّعراء]، وقال ﷻ: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النّحل: من الآية ١٠٣]، ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة، وإنّما أُطلِق اللّسان على اللّغة؛ لأنّ أغلبها يعتمد على اللّسان وعلى النّطق، مع أنّ اللّسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً في عمليّة النّطق، حيث يشترك معه في النّطق الفم والأسنان والشّفتان والأحبال الصّوتيّة.. إلخ، لكنّ اللّسان هو العمدة في هذه العمليّة، فاختلاف الألسنة يعني اختلاف اللّغات.

وسبق أنْ قُلْنا: إنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم ﷺ، وقلنا: إنّ الله ﷻ هو الّذي علّمه اللّغة حين علَّمه الأسماء كلّها، ثمّ يتّخذ آدم وذرّيّته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها، وليضيفوا إليها أسماء جديدة، لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقّيهم نُعلِّمهم أوّلاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلّموا الأفعال؛ لأنّ الاسم أظهر، والفِعْل والحدث يُدَلّ عليه بـ (اسم)، فكلمة (فِعْل) هي ذاتها اسم، لكن، كيف ينشأ اختلاف اللّغات؟ لو تأمّلنا

مثلاً اللّغة العربيّة نجدها لغة واحدةً، لكنّ بيئاتها متعدّدة: هذا سوريّ، وهذا مصريّ، وهذا سودانيّ، وهذا مغربيّ، وهذا عراقيّ، وهذا سعوديّ.. إلخ، فنشترك جميعاً في لغة واحدة، لكن لكلّ بيئة لهجة خاصّة قد لا تُفهَم في البيئة الأخرى، أمّا إذا تحدَّثنا جميعاً باللّغة العربيّة لغة القرآن الكريم تفاهم الجميع بها، أمّا اختلاف اللّغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض، هذا الانعزال يؤدّي إلى وجود لغة جديدة، فمثلاً الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة ... إلخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللّغة اللّاتينيّة، فلمّا انعزلتْ البيئات أرادتْ كلّ منها أن يكون لها استقلاليّة ذاتيّة بلغة خاصّة بها مستقلّة بألفاظها وقواعدها.

أو أنّ معنى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ يعني: اختلاف ما ينشأ عن اللّسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة، كما نرى الآن في آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصّوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع، بل بصمة الصّوت أوضح دلالة من بصمة اليد، ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له، وكذلك هناك هواتف وأمور كثيرة تعمل على الصّوت، ومن العجيب والمدهش في مجال الصّوت أنّ المصوِّتات كثيرة، منها: الجماد، كحفيف الشّجر وخرير الماء، ومنها: الحيوان، نقول: نقيق الضّفادع، وصهيل الخيل، ونهيق الحمار، وثُغَاء الشّاة، ورُغَاء الإبل.. إلخ، لكن إذا سئلت: لو سمعت صوت حمار ينهق، أتستطيع أن تقول: هذا حمار فلان؟ لا، لأنّ كلّ الأصوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميّزه شيء، أمّا في

الإنسان، فلكُلٍّ منّا صوته المميّز في نبرته وحدّته، واستعلائه أو استفاله، أو في رقّته أو في تضخيمه.. إلخ، فلماذا تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقي الأصوات؟ قال العلماء: لأنّ الجماد والحيوان ليس لهما مسؤوليّات ينبغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان، وإلّا كيف نُميّز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه، ولا نعرف شيئاً من أوصافه؟ وحتّى لو عرفنا أوصافه فإنّها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسؤوليّة ويترتّب عليها الجزاء.

﴿وَأَلْوَانِكُمْۚ﴾: فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التّميُّز بين النّاس، ولأنّ الإنسان هو المسؤول، خلق اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه اختلافَ الألسنة والألوان؛ لنستدلّ عليه بشكله؛ بطوله أو قِصَره أو ملابسه... إلخ، وفي ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنّه لن يفلت بفِعْلته، ولا بُدَّ أنْ يدلّ عليه شيء من هذه المميّزات، لذلك نرى رجال البحث الجنائيّ ينظّمون خطّة للبحث عن المجرم قد تطول، لماذا؟ لأنّهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم، وما يزالون يُضيِّقون الدّائرة حتّى يصلوا للجاني. والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، فالتّميُّز والتّعارف أمر ضروريّ لاستقامة حركة الحياة، نرى مثلاً الرّجل يضع لكلّ ولد من أولاده اسماً يُميِّزه، فإن عشق اسم محمّد مثلاً، وأحبّ أن يسمّي كلّ أولاده محمّداً لا بدّ أن يميّزه، فهذا محمّد الكبير، وهذا محمّد الصّغير، وهذا الأوسط.. إلخ، فلا بُدَّ أن يتميّز الخَلْق لنستطيع تحديد المسؤوليّات.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: أي: في الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: معجزات دالّات.

﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾: أي: الّذين يبحثون في الأشياء، ولا يقفون عند ظواهرها، إنّما يتغلغلون في بطونها، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها، لذلك يلوم علينا ربّنا عز وجل: ﴿مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف]، فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات، بل يجب أن يتأمّلوها ليستنبطوا منها ما ينفعهم في مستقبل حياتهم، كما نرى في المخترعات والاكتشافات الحديثة الّتي خدمتْ البشريّة، كالّذي اخترع عصر البخار، والّذي اخترع العجلة، والّذي اكتشف الكهرباء والجاذبيّة والبنسلين.. إلخ، فنمرّ على آيات الله سبحانه وتعالى في الكون بيقظة، وكلّ العلوم التّجريبيّة نتيجة لهذه اليقظة.

والعَالمون: جمع عالم، وكانت تطلق في الماضي على مَنْ يعرف الحلال والحرام، لكن هي أوسع من ذلك، فالعالم: كلّ مَنْ يعلم قضيّة كونيّة أو شرعيّة، ويُسمَّى هذا: (عالم بالكونيّات)، وهذا: (عالم بالشّرع)، ولنقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ [فاطر: الآية ٢٧- من الآية ٢٨]، فذكر سبحانه وتعالى النّبات، ثمّ الجماد، ثمّ النّاس، ثمّ الحيوان، ثمّ يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: من الآية ٢٨] على إطلاقها فلم يُحدِّد أيّ علماء: علماء النّبات، أو الحيوان، أو الجمادات، أو علماء الشّرع، فالعَالِم كلّ مَنْ يعلم حقيقة في الكون وجوديّة أو شرعيّة من عند الله عز وجل.

(الآية ٢٣) - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: كذلك من الآيات العجيبة الدّالّة على قدرة الله ﷻ:

﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: فحتّى الآن لم يكتشف علماء وظائف الأعضاء والتّشريح سِرّ النّوم، ولم يعرفوا -مع ما قاموا به من تجارب- ما هو النّوم، لكنّه ظاهرة موجودة وغالبة، لا يقاومها أحد مهما أُوتي من القوّة، ومهما حاول السّهر، لا بُدَّ أن يغلبه النّوم فينام على أيّة حال، ولو على الحصى، أو وهو واقف، وفلسفة النّوم، لا أن نعرف كيف ننام، إنّما أن نعرف لماذا ننام؟ قال العلماء: لأنّ الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكلّ منها مهمّة، فالعين للرّؤية، والأُذُن للسّمع .. إلخ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل، فتحتاج -دون شعورك وبأمر غريزيّ- إلى أن ترتاح، كأنّها تقول لك: كفى، فإنّك لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة، فنم، ومن عجيب أمر النّوم أنّه لا يأتي بالاستدعاء؛ لأنّك قد تستدعيه بشتّى الطّرق فلا يطاوعك ولا تنام، فإنْ جاءك هو غلبك على أيِّ حال كنتَ، حتّى مع الضّوضاء والأصوات المزعجة، لذلك قيل: النّوم ضيف إنْ طلبتَه أعْنَتك، وإنْ طلبك أراحك.

ونلحظ في هذه الآية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أنّه جعل اللّيل والنّهار محلّاً للنّوم، ولابتغاء الرّزق، وفي آية أخرى، يقول ﷻ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]، فجمعهما معاً، ثمّ ذكر

تفصيل ذلك على التّرتيب: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]؛ أي: في اللّيل، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]؛ أي: في النّهار، وهذا أسلوب يُعرف في اللّغة باللّفِّ والنّشر، وهو أنْ تذكر عدّة أشياء محكوماً عليها، ثمّ تذكر بعدها الحكمَ عليها جملة، وتتركه لذكاء السّامع لِيُرجِع كلّ حكم إلى المحكوم عليه المناسب، ومن ذلك قول الشّاعر:

قَلْبي وجَفْني واللّسَان وخَالِقي رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِر وغَفُـــور

فجمع المحكوم عليه في ناحية، ثمّ الحكم في ناحية، فجَمْع المحكوم عليه يسمّى لَفّاً، وجَمْع الحكم يُسمّى نَشْراً.

وهاتان الآيتان من الآيات الّتي وقف أمامها العلماء، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلّا بالجمع بين الآيات، لا أن نفهم كلّ آية على حدة، فنلحظ هنا في الآية الّتي معنا: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ أنّ الله ﷻ جعل كلّاً من اللّيل والنّهار محلّاً للنوم، ومحلّاً للسّعي، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]، ثمّ قال: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]، ولم يقل: (فيه)، ويجب هنا أنْ نتنبّه، فهذه آية كونيّة أن يكون اللّيل للنّوم والسّكون والرّاحة، والنّهار للعمل والحركة، فلا مانع أن نعمل باللّيل أيضاً، فبعض الأعمال لا تكون إلّا باللّيل، كالحرّاس ورجال الأمن والعسس والخبّازين في المخابز وغيرهم، وسكن هؤلاء يكون بالنّهار، وبهذا الفهم تتكامل الآيات في الموضوع الواحد. فقوله ﷻ: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾: يعني: طلب الرّزق والسَّعْي إليه يكون في النّهار ويكون في اللّيل، لكنّ جمهرة النّاس يبتغونه

بالنّهار ويسكنون باللّيل، والقلّة على عكس ذلك، فإنْ قلتَ: هذا عندنا حيث يتساوى اللّيل والنّهار، فما بالك بالبلاد الّتي يستمرّ ليلها مثلاً ثلاثة أشهر، ونهارها كذلك، نريد أن نفسّر الآية على هذا الأساس، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر؟ أم يجعلون من أشهر اللّيل ليلاً ونهاراً، ومن أشهر النّهار أيضاً ليلاً ونهاراً؟ لا مانع من ذلك؛ لأنّ الإنسان لا يخلو من ليل للرّاحة، ونهار للعمل أو العكس، فكلّ من اللّيل والنّهار ظرف للعمل أو للرّاحة، لذلك فالله ﷻ يمتنُّ علينا بتعاقُب اللّيل والنّهار، فيقول ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ [القصص]، وذيَّل الآية بـ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ [القصص: من الآية ٧١]، ثمّ قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص]، وذيَّل هذه بـ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص: من الآية ٧٢]؛ لأنّ النّهار محلُّ الرّؤية والبصر، أمّا اللّيل فلا بصرَ فيه، فيناسبه السّمع، والأُذُن هي الوسيلة الّتي تؤدّي مهمّتها في اللّيل عندما لا تتوفّر الرّؤية، وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان]، فاللّيل يخلُف النّهار، والنّهار يخلُف اللّيل، هذا في الزّمن العاديّ الّذي نعيشه، أمّا في بدْء الخَلْق فأيّهما كان أوّلاً، ثمّ خلفه الآخر؟ إنْ قلنا: إنّ اللّيل جاء أوّلاً، فالنّهار بعده خِلْفة له، لكنّ اللّيل في هذه الحالة لا يكون خِلفة لشيء، والنّص السّابق يوضّح أنّ كلّاً منهما خِلْفة للآخر، فما حَلُّ هذا اللّغز؟ الجواب: مفتاح هذه المسألة يكمن في كرويّة الأرض، ولو أنّ رسول الله ﷺ أخبر في بداية

البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتّى الآن؟! والله ﷻ لا يترك قضيّة كونيّة كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخِفّة، حتّى إذا ارتقت العقول تنبّهتْ إليها، فلو أنّ الأرض مسطّحة وخلقَ الله ﷻ الشّمس في مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول: إنّ النّهار جاء أوّلاً، ثمّ عندما تغيب الشّمس يأتي اللّيل، أمّا إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشّمس، فاللّيل في هذه الحالة أوّلاً، ثمّ يعقبه النّهار، هذا على اعتبار أنّ الأرض مسطّحة، وما دام أنّ الخالق ﷻ أخبر أنّ اللّيل والنّهار كلّ منهما خِلْفة للآخر، فلا بُدَّ أنّه ﷻ خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد اللّيل والنّهار معاً، فإذا ما دارت دورة الكون خَلَف كلّ منهما الآخر، ولا يتأتّى ذلك إلّا إذا كانتْ الأرض مُكوَّرة، فما واجه الشّمسَ منها صار نهاراً، وما لم يواجه الشّمس صار ليلاً، لذلك يقول ﷻ في آية أخرى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس]، فالحقّ ﷻ ينفي هنا أنْ يسبقَ اللّيلُ النّهارَ.

(الآية ٢٤) - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾:

نلحظ في تذييل الآيات مرّة يقول ﷻ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الرّوم: من الآية ٢١]، ومرّة: ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ [الرّوم: من الآية ٢٢]، ومرّة: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝٢٣﴾ [الرّوم: من الآية ٢٣]، ومرّة: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾ [الرّوم: من الآية ٢٤]،

فتختلف الأدوات الباحثة في الآيات، وبعضهم يظنّ أنّ العقل آلة يُعملها في كلّ شيء، فالعقل هو الّذي يُصدِّق أو لا يُصدِّق، والحقيقة أنّك تستعمل العقل في مسألة الدّين مرّة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك، فالإنسان يستعمل العقل في أنْ يؤمن أو لا يؤمن، فإنْ هداه العقل إلى أنّ الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلّا هو ووثق بهذه القضيّة، فإنّها لا تطرأ على تفكيره مرّة أخرى، ولا يبحثها العقل بعد ذلك، ثمّ إنّه في القضايا الفرعيّة يسير فيها على وَفْق قضيّة الإيمان الأولى، فلا تحتاج فيها إلى العقل، وهكذا العقل أوصل إلى الإيمان ثمّ انتهى دوره، فإذا ما سمعتَ: قال الله عزّ وجلّ، فأنت واثق من صِدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقل، وحين يقول سبحانه وتعالى: يعقلون، يتفكّرون، يعلمون، حين يدعونا للتّدبُّر والعِظَة إنّما ينبّه فينا أدوات المعارضة لنتأكّد، والعقل هنا مهمّته النّظر في البدائل وفي المقدّمات والنّتائج، كذلك الخالق عزّ وجلّ يُنبِّهنا إلى البحث والتّأمّل في آياته، فيقول: تفكَّروا، تدبَّروا، تعقَّلوا، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم، وهذا دليل على أنّنا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه وتعالى، وهو الإيمان.

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾: البرق: ظاهرة من ظواهر فصل الشّتاء، حيث نسمع صوتاً مُدوِّياً نسمّيه الرّعد، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع في الجوّ نسمّيه (برق)، وهو عامل من عوامل كهربة الجوّ الّتي توصَّل إليها العلم الحديث، لكن قبل ذلك كان النّاس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلّا أحد أمرين: إمّا أنْ يأتي بصاعقة تحرقهم، أو ينزل عليهم المطر، فيخافون من الصّاعقة ويرجون المطر، لذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: ليظلّ العبد دائماً مع ربّه عَزَّوَجَلَّ بين الخوف والرّجاء، لكن أكُلّ النّاس يرجون المطر؟ هَبْ أنّك مسافر أو مقيم في بادية ليس لك كِنٌّ تكِنُّ فيه، ولا مأوى يأويك من المطر، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره، لذلك من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغلّب انفعال الطّمع في الماء الّذي به تحيا الأرض بالنّبات.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: كلمة السّماء لها مدلولان: مدلولٌ غالب، وهي السّموات السّبع، ومدلولٌ لُغويّ، وهي كلّ ما علاك فأظلَّك، وهذا هو المعنى المراد هنا: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأنّ المطر إنّما ينزل من السّحاب، فالسّماء هنا تعني: كلّ ما علاك فأظلَّك، ولو تأمّلنا الماء الّذي ينزل من السّماء لوجدناه من سحاب متراكم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النّور: من الآية ٤٣]، وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفيّة تكوُّن السُّحُب، وأنّها نتيجة لبخر الماء، لذلك من حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والرّبع يابسة، ذلك لتتّسع رقعة بَخْر الماء، فكأنّ الثّلاثة أرباع جُعِلَت لخدمة الرُّبْع، وليكفي ماء المطر سكّان اليابسة، ولقد بيّنا أهمّيّة اتّساع مسطّح الماء في عمليّة البخر، بأنّنا حين نترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدّة طويلة يظلّ كما هو، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً، أمّا لو سكبنا ماء الكوب على أرض الغرفة مثلاً فإنّه يجفّ في عدّة دقائق؛ لأنّ مسطّح الماء اتّسع فكَثُر الماء المتبخِّر، ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعمليّة التّقطير الّتي نُجريها في الصّيدليّات لنحصل منها على الماء النّقي المعقّم، وهذه تقوم على نظريّة استقبال بخار الماء من الماء المغلي،

ثمّ تمريره على سطح بارد فيتكثّف البخار مُكوّناً الماء الصّافي، فنحن حينما نستقبل ماء المطر، إنّما نستقبل ماءً مقطّراً في غاية الصّفاء والنّقاء، دون أن نشعر بهذه العمليّة، ودون أن تُكلّفنا شيئاً، ولنتأمّل هذه الهندسة الكونيّة العجيبة الّتي ينشأ عنها المطر، فحرارة الشّمس على سطح الأرض تُبخّر الماء بالحرارة، وفي طبقات الجوّ العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السّحاب، ومن العجيب أنّنا كلّما ارتفعنا ثلاثين متراً عن الأرض تقلّ الحرارة درجة، مع أنّنا نقترب من الشّمس؛ ذلك لأنّ الشّمس لا تُسخّن الجوّ، إنّما تُسخّن سطح الأرض، وهو بدوره يعطي الحرارة للجوّ؛ لذلك كلّما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة، ومن حكمة الله ﷻ أنّ ماء الأرض الّذي يتبخّر منه الماء العَذْب جعله الله ﷻ مالحاً؛ لأنّ ملوحته تحفظه أنْ يأسن، أو يعطن، أو تتغيّر رائحته، تحفظه أن تنمو به الطّفيليّات الضّارّة، وليظلّ على صلاحه؛ لأنّه مخزن للماء العذب الّذي يروي بعذوبته الأرض.

(الآية ٢٥) - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

السّماء هنا بمعنى السّموات السّبع الّتي تقوم بلا عَمَد، وقلنا: إنّ الشّيء الّذي يعلونا إمّا أنْ يُحمل على أعمدة، وإمّا أنْ يُشدَّ إلى أعلى، مثل الجسور المعلّقة مثلاً، وكذلك السّماء سقف مرفوع لا نرى له أعمدة، فلا تبقى إلّا الوسيلة الأخرى، وهي أنّ الله ﷻ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحجّ: من الآية ٦٥]، فهي قائمة بأمره.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾: لا يهتزّ لها نظام أبداً، ولا نجد فيها فروجاً؛ لأنّها محكَمة البناء، ولننظر إليها حين صفاء السّماء وخُلوّها من السّحب نجدها ملساء ذات لون واحد على اتّساعها، أيستطيع أحد أن يطلي لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف؟ وإذا أخذنا السّماء على أنّها كُلُّ ما علانا فأظلَّنا، فلننظر إلى الشّمس والقمر والنّجوم والكواكب، وكيف أنّها تقوم بأمر خالقها سبحانه وتعالى على نظام دقيق لا اختلالَ فيه، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر، ولا شيئاً منها خرج عن مساره، وصدق الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٣]، فلكلّ منها سرعة، ولكلّ منها مداره الخاصّ ونظام بحسبان؛ ذلك لأنّها تقوم بأمر الله سبحانه وتعالى وقدرته جل جلاله، فهي منضبطة تؤدّي مهمّتها دون خلل، ودون تخلّف.

﴿تَقُومَ﴾: تظلّ قائمة على حالها دون فساد، وهو فعل مضارع دالٌّ على استمرار، وحين نتأمّل: قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشّمسيّة غير الشّمس، فلمّا اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى الّتي تدور حولها، والعجيب أنّها لا تدور في دوائر متساوية، إنّما في شكل إهليليّ، يتّسع من ناحية، ويضيق من ناحية، وهذه الكواكب لها دورة حول الشّمس، ودورة أخرى حول نفسها، فالأرض مثلاً لها مدار حول الشّمس ينشأ عنه الفصول الأربعة، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها اللّيل والنّهار، وكلّ هذه الحركة المركّبة تتمّ بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط، وهذه الكواكب تتفاوت في قُرْبها أو بُعْدها عن الشّمس، فأقربها من الشّمس عطارد، ثمّ الزّهرة، ثمّ الأرض، ثمّ المشتري، ثمّ

المرّيخ، ثمّ زحل، ثمّ أورانوس، ثمّ نبتون، ثمّ أبعدها عن الشّمس بلوتو، ولكلّ منها مداره الخاصّ حول الشّمس، وتسمّى: (عام)، ودورة حول نفسه تسمّى (يوم)، وعجيب أنّ يوم الزّهرة، وهو ثاني كوكب من الشّمس يُقدَّر بـ (٢٤٤) يوماً من أيّام الأرض، في حين أنّ العام بالنّسبة إليها يُقدَّر بـ (٢٢٥) يوماً من أيّام الأرض، فالعام أقلّ من اليوم، كيف؟ قالوا: لأنّ هذه دورة مستقلّة، وهذه دورة مستقلّة، فهي سريعة في دورانها حول الشّمس، وبطيئة في دورانها حول نفسها، ولو علمنا أنّ في الفضاء وفي كون الله سبحانه وتعالى الواسع مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشّمسيّة لتبيَّن لنا عظَم هذا الكون الّذي لا نعرف عنه إلّا القليل؛ لذلك حين تقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذّاريات] فاعلم أنّها مسألة لا نهاية لها ولا حدود في علمنا وفي عقولنا، لكن لها نهاية عند الله عزّ وجلّ، ولا أدلَّ على انضباط حركة هذه الكونيّات من انضباط موعد الكسوف أو الخسوف الّذي يحسبه العلماء فيأتي منضبطاً تماماً، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب ودورانها؛ لذلك نقول لمن يكابر حتّى الآن ويقول بعدم دوران الأرض: عليك أن تعترف أنّ هؤلاء الّذين يتنبّؤون بالكسوف والخسوف يعلمون الغيب! وهذا غير ممكن، فالأقرب أن نقول: إنّها لله عزّ وجلّ الّذي خلقها على هذه الهيئة من الانضباط والدّقّة.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: المراد النّفخة الثّانية، فالأولى الّتي يقول الله جلّ جلاله عنها: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ [يس]، والثّانية يقول فيها: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣﴾ [يس]، فالأولى للموت

الكلّيّ، والثّانية للبعث الكلّيّ، ولو نظرنا إلى هاتين النّفختين وما جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيهما من أسرار تلتقي بما في الحياة الدّنيا من أسرار لوجدنا عجباً، فكلّ لحظة من لحظات الزّمن يحدث فيها ميلاد، ويحدث فيها موت، فنحن مختلفون في مواليدنا وفي آجالنا، أمّا في الآخرة فالأمر على الاتّفاق، فالّذين اختلفوا في المواليد سيتّفقون في البعث: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٥٣﴾ [يس]، والّذين اختلفوا في الموت سيتّفقون في الخمود: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ٢٩﴾ [يس]، فالميلاد يقابله البعث، والموت يقابله الخمود، فاختلاف هذه يعالج اتّفاق هذه، واتّفاق هذه يعالج اختلاف هذه؛ لذلك يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التّغابن: من الآية ٩]، والنّفخة الثّانية يؤدّيها إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يزاول أشياء بذاته، ولا نعلم منها إلّا أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان وسوّاه بيده، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، أمّا غير ذلك فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يزاول الأشياء بواسطة خَلْقه في كلّ مسائل الكونيّات، لنتأمّل مثلاً: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]، فالمتوفّي هنا الله عَزَّ وَجَلَّ، والمتوفَّى هو الإنسان، وفي موضع آخر: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السّجدة: من الآية ١١]، فنقلها إلى ملَك الموت، وفي موضع آخر: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: من الآية ٦١]، فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة، وهم جنود لملَك الموت، وبيان ذلك أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نسب الموت إلى نفسه أوّلاً؛ لأنّه صاحب الأمر الأعلى فيه، فيأمر به ملَك الموت، وملَك الموت بدوره يأمر جنوده، فمردُّها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾: أي: حين يسمع الموتى هذه الصّيحة يهبُّون جميعاً أحياء، فـ: ﴿إِذَآ﴾ هنا الفجائيّة الدّالّة على الفجأة، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدّنيا وميلاد الآخرة، ميلاد الدّنيا لم يكُنْ فجأة، بل على مهل، فالمرأة قبل أنْ تلد نشاهد حملها عدّة أشهر، وتعاني آلام الحمل عدّة أشهر.

(الآية ٢٦) - ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾:

نعرف أنّ ﴿مَن﴾ للعاقل، ولنا أن نسأل: لماذا خصَّ العاقل مع أنّ كلّ ما في الكون خاضع لله ﷻ، طائع مُسبِّح يدخل في دائرة القنوت لله ﷻ؟ قال العلماء: لأنّ التّمرّد لا يأتي إلّا من ناحية العقل؛ لذلك بدأ الله ﷻ به، أمّا الجماد الّذي لا عقلَ له، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شيء على الله ﷻ، لا الجماد ولا الحيوان ولا النّبات، ونقف هنا عند قوله ﷻ:

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: فمن في السّموات قانتون لله ﷻ؛ أي: خاضعون له ﷻ، مطيعون لإرادته؛ لأنّهم ملائكة مُكرَّمون: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء]، فما بال أهل الأرض، وفيهم ملحدون ليسوا قانتين؟ فكيف نفهم: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؟ قال العلماء: لأنّهم لمّا تمرَّدوا على الله ﷻ وكفروا به، أو تمرَّدوا على حكمه فعصَوْه، لم يتمرّدوا بذواتهم، إنّما بما خلق الله ﷻ فيهم من اختيار، ولو أرادهم ﷻ مقهورين ما شذَّ واحد منهم عن مراد ربّه ﷻ، والله ﷻ لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة، إنّما يريد لعبده أنْ يأتيه طواعية مختاراً، بإمكانه أن يكفر ومع ذلك آمن، وبإمكانه أن يعصي ومع

ذلك أطاع، فلو أرادهم الله سُبحانه وتعالى مؤمنين ما وجدوا إلى الكفر سبيلاً، ولعصمهم كما عصم الأنبياء، فربّنا يريدنا مؤمنين عن محبّة وإخلاص لا عن قهر وغلبة؛ لذلك قال إبليس في جداله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: من الآية ٨٢- الآية ٨٣]، فلا قدرة له على عباد الله سُبحانه وتعالى المخلصين، الّذين اختارهم الله جلّ جلاله لنفسه، ولا سلطانَ له عليهم، فإبليس ليس في معركة مع ربّه عزّ وجلّ، إنّما في معركة مع الإنسان، وفي موضع آخر قال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: من الآية ٤٢].

(الآية ٢٧) - ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة، ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة، لماذا؟ الجواب: يهتمّ القرآن الكريم بهذه المسألة ويؤكّد عليها؛ لأنّها كانت الأساس في دعوته؛ لأنّهم إنْ آمنوا بأنّهم سيرجعون إلى الله سُبحانه وتعالى خافوا من عقابه؛ لذلك يؤكّد لهم في مواضع كثيرة حتميّة الإعادة وأنّها حقٌّ.

﴿وَهُوَ﴾: استُهلَّت الآية بقوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: من الآية ١١]، فكأنّ: (هُوَ) مدلولها: (اللَّهُ)، ﴿وَهُوَ﴾ كما نعلم ضمير غيبة، والحقّ سُبحانه وتعالى غَيب عن الأنظار، ومن عظمته جلّ جلاله أنّه غيب، فلو كان مُدْركاً مُحسَّاً ما استحقّ أنْ يكون إلهاً، وكيف نطمع في إدراكه جلّ جلاله ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته؟! فالمعاني الّتي خلقها الله عزّ وجلّ

لتسوس حركة الحياة: كلمة (الحقّ)، (العدل)، الحقّ الّذي يقف القضاء كلّه ليؤيّده ويُعلنه، والعدل الّذي يحكم موازين الحياة؛ ليوازن بين الشّهوات وبين الحقائق، هذه المعاني لا تُدرَك بالحواسّ، فهل رأيتم العدل؟ هل سمعتم العدل؟ هل شممتم العدل؟ الجواب: بالتّأكيد لا، فالمعاني العالية لا يمكن أنْ تُدرك؛ لأنّها أرفع من الإدراك؛ ولأنّ بها يكون الإدراك، أيكون المخلوق لله سبحانه وتعالى أسمى من أنْ يُدرَك، ويكون الحقّ عز وجل موضعاً للإدراك؟! فإذا سمعت: (هُوَ) فاعلم أنّها لا تنصرف إلّا إلى الإله الواحد الّذي من عظمته أنّه لا يُدرَك: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٠٣]، لذلك نقرأ في سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص]، فنرى أنّ: ﴿ٱللَّهُ﴾ اسم الجلالة، وهو عَلَم على واجب الوجود يأتي بعد: ﴿هُوَ﴾، فكأنّ ﴿هُوَ﴾ أدلُّ على وجود الحقّ سبحانه وتعالى من اسم الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾، فكأنّه لا يصحّ أن يُطلَق ضمير الغيبة ﴿هُوَ﴾ على شيء إلّا الله؛ لأنّه لا شيء في الكون إلّا الله جل جلاله.

﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾: بالفعل المضارع الدّالّ على الاستمراريّة، مع أنّه سبحانه وتعالى بدأ الخَلْق بالفعل، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: من الآية ٢٩]، فإنْ ذكرنا الأولى فقد بدأ الخَلْق، وإن ذكرنا الاستمراريّة في الإيجاد فهو يبدأ دائماً، وفي كلّ وقت نرى في خَلْق الله سبحانه وتعالى شيئاً جديداً، فالخَلْق لم يأتِ مرّة واحدة ثمّ توقّف، بل بدأ ثمّ استمرّ، ونلحظ أنّ القرآن الكريم يذكر هذه المسألة مرّة بالماضي: (بَدَأ)، ومرّة بالمضارع: (يَبْدأ)؛ لأنّ الخالق جل جلاله بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأوّل: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [السّجدة]، ولا يزال سبحانه وتعالى بقيّوميّته خالقاً، يبدأ كلّ يوم وكلّ

لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده في الإنسان، وفي الحيوان، وفي النّبات.. إلخ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحذِّرنا أن نأخذ قصّة بَدْء الخلق من غير الخالق عَزَّ وَجَلَّ، فمن النّاس مضلّون سيضلّونكم في هذه المسألة، فلا تُصغْون إليهم؛ لأنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ يقول: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف]. ونلحظ فصاحة الأداء في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، فهو أسلوب قَصْر، حيث قدّم المتعلّق الّذي حقُّه أن يكون مؤخّراً، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: من الآية ٥]، فقدّم المفعول، ومن حقّ المفعول أن يُؤخَّر عن الفعل والفاعل، وقدَّمه هنا، لنقصر العبادة على الله عَزَّ وَجَلَّ وحده دون سواه، وحتّى لا نعطف على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئاً، فلو قلت: نعبدك، لجاز أن تقول: ونعبد غيرك، كذلك هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أفادت تخصيص الخلق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده دون أن نعطف عليه أحداً.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أي: إلى الخَلْق، فهي بمعنى: يخلقه، فالمعنى: يبدأ الخلق ثمّ يميته ثمّ يُعيده، بعضهم يظنّ أنّ يعيده يعني يبعثه في الآخرة، لكنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الرّوم]، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ غير ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، ف: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾؛ أي: في القيامة.

﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾: أي: على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء، وإلّا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُقال في حقّه: هذا سهل وهذا أسهل، ولا هيِّن وأهون؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن، ولا يعالج الأفعال، إنّما يفعل جَلَّ جَلَالُهُ ب: ﴿كُن﴾ فيكون، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لزكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمّا تعجّب أن يكون له ولد، وقد بلغ من الكِبَر عتيّاً وامرأته عاقر: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: من الآية ٩]؛ ذلك لأنّ

طلاقَة القدرة لا تقف عند أسبابكم، وكذلك قال ﷻ لمريم: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: من الآية ٢١].

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: نقول: عَالٍ وأعلى، فهي أفعل تفضيل، بمعنى: الّذي لا يُشابَه ولا يُضَاهى؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فينفي أن يوجد شبيه لمثل الله جل جلاله لا شبيه لله عز وجل؛ لأنّ الكاف هنا بمعنى: مثل، فكأنّك قلت: ليس مِثْل مِثْله شيء، ولننظر إلى جمال الحقّ ﷻ حين يُجلّي للخَلْق مثلاً في دنياهم، ويجعل من ذاته ﷻ المماثلة، يقول عز وجل ليُقرّب لأفهامنا: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النّور: من الآية ٣٥]، وكما أنّ الحقّ ﷻ له المثَل الأعلى في الأرض، فلا مثيلَ له، كذلك له المثل الأعلى في السّماء فلا مثيلَ له، مع أنّ ما في السّماء غيب، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا، فللّه المثَل الأعلى في السّموات.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي: أنّه ﷻ بذاته عزيز لا يُغلب، ومع عزّته تبارك وتعالى فهو حكيم لا يَظلِم.

(الآية ٢٨) - ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا﴾: ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن الكريم للبيان والتّوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، ففي موضع آخر يقول ﷻ:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [الحجّ: من الآية ٧٣]، فهذا كثير في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والمثَل يُضرَب ليُجلّي حقيقة، والضَّرْب هنا لا يعني إحداث أثر ضارّ بالمضروب، إنّما إحداث أثر نافع إيجابيّ، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المزّمّل: من الآية ٢٠]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضرب لنا المثل للتّوضيح ولتقريب المعاني للأفهام؛ لذلك يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، ومن الأمثلة الّتي ضربها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا ليوضّح لنا قضيّة التّوحيد قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [الزّمر]، وفي هذه الآية، وبهذا المثَل، يؤكّد الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قمّة تربية العقيدة الإيمانيّة على واحديّة الله عَزَّوَجَلَّ وعلى أحديّته جَلَّ جَلَالُهُ، فالواحديّة شيء والأحديّة شيء آخر، الواحديّة أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واحد لا فرد آخر معه، لكنّ هذا الفرد الواحد قد يكون في ذاته مُركّباً من أجزاء، فوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسه بأنّه (أحدٌ)؛ أي: ليس مُركَّباً من أجزاء، وأكّد تبارك وتعالى هذه الحقيقة في قرآنه بالحجج والبراهين، وضرب لها المثل، وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكّد على هذه الوحدانيّة.

﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾: يعني: ليس بعيداً عنكم، وأقرب شيء للإنسان نفسه، فأوضح مثَل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك، لكن، ما المثَل المراد؟ المثل هو:

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾: يقول جَلَّ جَلَالُهُ: أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أنّ الإله الواحد يجب عقلاً ألّا تشركوا به أشياء أخرى، والمثل أنّي أرزقكم، ومن

رزقي لكم مَوَالٍ وعبيد، فهل جئتم للرّزق الّذي رزقكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وللعبيد وقلتم لهم: أنتم شركاء لنا في أموالنا تتصرّفون فيها كما نتصرّف نحن، ثمّ جعلتم لهم مطلق الحرّيّة والتّصرّف، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم في أنْ تتصرّفوا دونهم في شيء كخيفتكم أنفسكم؟ هل فعلتم ذلك؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم؟ لماذا تقبلونه في حقّ الله عَزَّ وَجَلَّ وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده في ملكه؟ إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم، وهم بشر أمثالكم، هذا معنى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾؛ أي: من البشر، فهم مثلكم في الآدميّة، وملكيّتكم لهم ليست مُطْلقة، فأنتم تملكون رقابهم، وتملكون حركة حياتهم فقط، ونلحظ هنا أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يناقشهم في مسألة الشّركاء بأسلوب الخبر منه جَلَّ جَلَالُهُ، إنّما اختار أسلوب الاستفهام، وهو أبلغ في تقرير الحقيقة: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلّا وأنت تعلم وتثق بأنّ الإجابة ستكون في مصلحتك، لذلك يستفهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو أعلم بخَلْقه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾، لا بدّ أنْ يقولوا: لا، ليس لنا شركاء في أموالنا، فلماذا جعلتم لله عَزَّ وَجَلَّ شركاء؟

﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: سبق أنْ تحدّثنا في مسألة الرّزق، وقلنا: إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الرّازق، ومع ذلك احترم ملكيّة خَلْقه، واحترم سعيهم؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واهب هذا الملك، ولا يعود جَلَّ جَلَالُهُ في هبته لخَلْقه؛ لذلك لـمّا أراد أنْ يُحنّن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضَاعفاً. والرّزق لا يقتصر على المال -كما يظنّ بعض النّاس-، إنّما كلّ ما انتفعتَ به فهو

رزق ينبغي عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده، فالقويُّ رزقه القوّة يُعدّيها للضّعيف، والعالم رزقه العلم يُعدّيه للجاهل، والحليم رزقه حلْم يُعدِّيه للغضوب.. وهكذا، وإلّا فالمال أهون ألوان الرّزق؛ لأنّ الفقير الّذي لا يملك مالاً، ولم يتصدّق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع، ويُباح له في هذه الحالة أنْ يسأل النّاس، والله ﷻ تكفَّل لكلّ إنسان برزقه، إنّما جعل للرّزق أسباباً، وكلّ ما علينا أنْ نأخذ بهذه الأسباب ثمّ لا نشغل بالنا همّاً في موضوعه، وإيّانا أن نظنّ أنّ السَّعْي هو مصدر الرّزق، فالسّعي سبب، والرّزق من الله ﷻ، وما علينا إلّا أنْ نتحرّى الأسباب، فإنْ أبطأ رزقنا فلنرحْ أنفسنا؛ لأنّنا لا نعرف عنوانه، أمّا هو فيعرف عنواننا، وسوف يَأتينا يطرق علينا الباب، والّذي يُتعِب النّاس أنْ يظلّ الواحد منهم مهموماً لأمر الرّزق مُفكِّراً فيه، ولو علم أنّ الّذي خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح، فإنْ أخطأت أسباب الرّزق في ناحية اطمئنّ فسوف يأتيك من ناحية أخرى.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: أي: نُبيِّنها ونُوضِّحها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: من العقل، وسُمِّي عقلاً؛ لأنّه يعقل صاحبه ويقيّده عمّا لا يليق، وبعضهم يظنّ أنّ العقل إنّما جُعل لترتع به في خواطرك، إنّما هو جاء ليقيّد هذه الخواطر، ويضبط السّلوك، فلا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحبّ، بل تفعل ما يصحّ، وتقول ما ينبغي، ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا، وأنْ يختار بين البدائل، والأمر الّذي لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه، فلو أنّك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلّا طريق واحد، فلا مجال للتّفكير

فيه، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق، فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه، وما دام العقل هو الّذي يختار فهو الميزان الّذي تَزِن به الأشياء، وتحكم به القضايا؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتي نتائجه كذلك سليمة وموضوعيّة، ومعلوم أنّ الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهمّيّته، فحين يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني: أنّه جلّ جلاله بيّن وفصّل، ووضّح الحجج والبراهين، ولكن أنتم الّذين لا تعقلون.

(الآية ٢٩) - ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾: اتّبعوا أهواءهم؛ لأنّهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له ولا تكليف، عبدوا إلهاً لا أمر له ولا نهي، لا يرتّب على التّقصير عقوبة، ولا على العمل ثواباً، وهذا كلّه من وحي الهوى الّذي اتّبعوه، فإيّاك أن تُقدِّم الهوى على العقل؛ لأنّك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريريّاً، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النّظر عن عاقبته، لكن بالعقل أوّلاً حدِّد الهوى، ثمّ اجعل حركة حياتك تبعاً له، وهذا الهوى الواحد هو المعنيّ في الحديث الشّريف: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[1]، فالنّبيّ صلى الله عليه وسلم لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبّه؛ لأنّ ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح في حركة الحياة، لكن يجب أن يكون هذا الهوى فيما يُرضي الله عزّ وجلّ.

---

(١) السّنّة لابن أبي عاصم: بابُ ما يجبُ أنْ يكونَ هوى المَرْءِ تَبَعاً لِمَا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم (١٥).

﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: لأنّهم عزلوا الهوى الواحد، ونَحَّوْه جانباً، وأخذوا أهواء شتّى تعارضتْ وتضاربت، فلم يصلوا منها إلى نتيجة، وما ظلموا بالشّرك إلّا أنفسهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذّة فانية، وغفلوا عن عاقبة ذلك، فهم إمّا كارهون لأنفسهم، أو يحبّونها حبّاً أحمق، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكّم فيه.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾: ما هو العلم؟ في الكون قضايا نجزم بها، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلّل عليه، كما نُعلِّم مثلاً الولد الصّغير: (الله أحد)، فإن استطاع أن يدلّل عليها فهي عِلْم، وإنْ لم يستطع فهي تقليد، وكمن يقول مثلاً: الأرض كرويّة وهي فعلاً كذلك، أمّا مَنْ يكابر حتّى الآن ويقول: ليست كرويّة، والواقع أنّها كرويّة، فهذا جهل، فنقول: ليس الجهل ألَّا تعلم، إنّما الجهل أنْ تعلم قضيّة على خلاف الواقع؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمّيّ، فالأمّيّ خالي الذِّهْن ليست لديه قضيّة من أساسه، فإنْ أخبرته بقضيّة أخذها منك دون عناد، ودون مكابرة، أمّا الجاهل فعنده قضيّة خاطئة معاندة، فيحتاج منك أوّلاً أنْ تُخرِجَ القضيّة الفاسدة لتُلقِي إليه بالقضيّة الصّحيحة.

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾: يعني: مَنْ ينقذه؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربّه عزّ وجلّ وتركه يفعل ما بدا له؟ الجواب: لا أحد.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: يعني: يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله سبحانه وتعالى فختم على قلوبهم، فلا يدخلها إيمان، ولا يخرج منها كفر، فليس لهم من الله عزّ وجلّ نصير ينصرهم، ولا مجير يجيرهم منه جلّ جلاله، وهو سبحانه وتعالى يُجير ولا يُجار عليه.

(الآية ٣٠) - ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾:

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾: الخطاب هنا للنّبيّ ﷺ: يا محمّد، ما دام الأمر كذلك، وما داموا قد اتّبعوا أهواءهم وضلّوا، وأصرّوا على ضلالهم، فدَعْك منهم ولا تتأثّر بإعراضهم، فهنا: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾؛ أي: دعْكَ من هؤلاء الضّالّين، وتفرَّغ لمهمّتك في الدّعوة إلى الله ﷻ، وإيّاك أنْ يشغلوك عن دعوتك.

ومعنى إقامة الوجه للدّين؛ أي: اجعل وجهْتك لربّك وحده، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وذكَرَ الوجه خاصّة وهو يعني الذّات كلّها؛ لأنّ الوجه سِمة الإقبال، ومنه قوله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، يعني: ذاته ﷻ.

﴿حَنِيفٗاۚ﴾: هذه الكلمة من الكلمات الّتي أثارت تذبذباً عند الّذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ﷻ؛ لأنّ معنى الحنيف: مائل السّاقين، فترى في رِجلْه انحناء للدّاخل، يقال: في قدمه حنف؛ أي: ميل، فالمعنى: فأقم وجهك للدّين مائلاً، نعم هكذا المعنى، لكن مائلاً عن أيّ شيء؟ مائلاً عن الشّرك، لا بُدَّ أن نفهم أسلوب القرآن الكريم، فالرّسول ﷺ جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشّرك والوثنيّة، فالمعنى: مائلاً عن هذا الفساد، ومائلاً عن هذا الشّرك، وهذه الوثنيّة الّتي جاء النّبيّ ﷺ لهدمها والقضاء عليها، ومعنى: مال عن الباطل، يعني: ذهب إلى الحقّ.

و(أَقِمْ) هنا بمعنى: أقيموا؛ لأنّ خطاب الرّسول ﷺ خطاب لأمّته، بدليل أنّه سبحانه وتعالى سيقول في الآية بعدها: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، ولو كان الأمر له وحده لَقالَ: (منيباً إليه)، ومثال ذلك أيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق: من الآية ١]، فالخطاب للأمّة كلّها في شخص رسول الله ﷺ؛ لأنّه ﷺ هو المبلّغ، والمبلّغ هو الّذي يتلقّى الأمر، ويقتنع به أوّلاً ليستطيع أنْ يُبلّغه؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: من الآية ٢١]، وقال: ﴿حَنِيفًا﴾، فالرّسل لا تأتي إلّا على فساد شمل النّاس جميعاً؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى كما خلق في الجسم مناعة مادّيّة خلق فيه مناعة قِيَميّة، هذه المناعة القِيَميّة هي الفطرة؛ لأنّه يقول بعدها:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: فنحن نرى البشر يتّخذون الطّعوم والأمصال للتّحصين من الأمراض، كذلك الحقّ سبحانه وتعالى -وله المثل الأعلى- جعل هذا المصل التّطعيميّ في كلّ نفس بشريّة، حتّى في التّكوين المادّيّ، نرى قوله سبحانه وتعالى في تكوين الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، فالمُخلَّقة هي الّتي تكوّن الأعضاء، وغير المُخلَّقة هي الرّصيد المختزن في الجسم، وبه يعوِّض أيَّ خلل في الأعضاء المخلَّقة، فهي الّتي تمدّه بما يصلحه، كذلك في القيم جاء دين الله عزّ وجلّ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة، إمّا من ذات النّفس (الفطرة)، وإمّا برسول جاء بمنهج جديد، وقد كرَّم الله سبحانه وتعالى أمّة محمّد ﷺ بأن يكون رسولُها خاتَم الرّسل، فهذه بُشْرى لنا بأنّ الخير باقٍ فينا، ولا يزال

إلى يوم القيامة، ولن يفسد المجتمع بمجمله؛ لأنّ فيه مناعة، فإذا فسدتْ فيه مجموعة نجد مجموعة أخرى تُقوّمها، وهذا واضح في قول النّبيّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[1]، وإلّا لو عَمَّ الفساد هذه الأمّة لاقتضى الأمر شيئاً آخر كالاستئصال.

وحين نقرأ الآية نجد أنّ كلمة: ﴿فِطْرَتَ﴾ منصوبة، ولم يتقدّم عليها ما ينصبها، فلماذا نُصِبَتْ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النّصب، وللفعل المحذوف، لنبحث عنه بأنفسنا، فكأنّه قال: (فأقم وجهك للدّين حنيفاً والزم فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها).

والفطرة: يعني الخلقة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: من الآية ١٠١]، يعني: خالقهما، والفطرة المرادة هنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات]، فلنلزم هذه الفطرة، ولنعلم أنّنا مخلوقون للعبادة، وهي كلّ عمل نافع في المجتمع إضافة إلى إقامة الشّعائر.

أو: أنّ فطرة الله تعني: الطّبيعة الّتي أودعها الله سبحانه وتعالى في تكوين الإنسان منذ خلق آدمَ عليه السلام، وخلق منه ذرّيّته، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، وسبق أنْ بيّنّا كيف أنّ في كلّ منّا ذرّة حيّة من أبينا آدم عليه السلام باقية في كلّ واحد منّا، فالإنسان لا ينشأ إلّا من العنصر الذّكريّ الحيّ الّذي يُخصِّب البويضة، وحين نسلسل هذه العمليّة لا بُدَّ أن

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب ٥٣، الحديث رقم (١٩٢٠).

نصل بها إلى آدم عليه السلام، وهذه الذّرّة الباقية في كلّ منّا هي الّتي شهدتْ العهد الأوّل الّذي أخذه الله عز وجل علينا، وما دام الله سبحانه وتعالى قد فطرنا على هذه الفطرة، فلا تبديل لما أراده جل جلاله.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾: يعني: ما استطاع أحد أنْ يقول: أنا خلقتُ السّموات والأرض، ولا أنْ يقول: أنا خلقتكم أو خلقتُ نفسي.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾: أي: الدّين الحقّ ودين القِيَم والأخلاقيّات الّتي تقوم به حياة الإنسان.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: لا يعلمون الأمور على حقيقتها، ولا يعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدّنيا.

(الآية ٣١) - ﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾:

﴿۞مُنِيبِينَ﴾: أناب: يعني رجع وقطع صلته بغير الحقّ، ومنه يسمّون النّاب؛ لأنّه يقطع الأشياء، ويقولون: ناب إلى الرّشد، وثاب إلى رشده، كلّها بمعنى: رجع، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه، وهو أصل الفطرة.

﴿إِلَيۡهِ﴾: إلى الله عز وجل، فلا علاقة له بالخَلْق في مسألة العقائد، فجعل كلّ علاقته بالله جل جلاله.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: لأنّه لا يجوز أنْ تُنيب إلى الله سبحانه وتعالى، وأن ترجع إليه، وأن تجعله في بالك، ثمّ تنصرف عن منهجه الّذي شرَّعه لينظّم حركة حياتك، فالإنابة وحدها والإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يكفيان؛ بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله عز وجل، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن الكريم بين الإيمان والعمل

الصّالح: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشّعراء: من الآية ٢٢٧]؛ لأنّ فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحقّ، وأنّ منهجه هو الصّدق، وفيه نفعك وسلامتك في حركة حياتك، وأنّه الّذي يُوصِلك إلى سعادة الدّارين، ولا معنى لهذا كلّه إلّا بالعمل والتّطبيق، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: اتّقوا غضبه، واجعلوا بينكم وبين غضب الله عزّ وجلّ وقاية، وهذه الوقاية تتحقّق باتّباع المنهج في: افعل ولا تفعل.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أدُّوها على الوجه الأكمل، وأدُّوها على ما أحبّ الله سبحانه وتعالى منّا أن نؤدّيها، فساعة ينادينا: (الله أكبر) يجب أن نُقبِل على الله عزّ وجلّ، وعندما نُلبّي النّداء لا نأتي لنعينه جلّ جلاله على شيء، ولا ينتفع بنا في شيء، إنّما ننتفع نحن بهذا اللّقاء، ونستمدّ منه العون والقوّة، ونأخذ شحنة إيمان ويقين من ربّنا عزّ وجلّ، وكأنّنا نُعرَض على ربّنا خمس مرّات في اليوم، لذلك: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى[1]، وكان يقول لبلال: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»[2]، ويقول أيضاً ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[3]، وما دام ربّنا سبحانه وتعالى غيباً، فهو جلّ جلاله يُصلحنا بالغيب أيضاً، ومن حيث لا ندري؛ لذلك أمرنا ربّنا عزّ وجلّ بإقامة الصّلاة، وجعلها عماد الدّين

---

(١) سنن أبي داود: أبوابُ قيامِ اللّيلِ، بابُ وقت قيامِ النَّبيّ ﷺ مِنَ اللّيلِ، الحديث رقم (١٣١٩).

(٢) سنن أبي داود: كتاب الأدبِ، بابٌ في صلاةِ العَتَمَةِ، الحديث رقم (٤٩٨٥).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسندُ المُكثرينَ مِنَ الصَّحابةِ، مُسندُ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، الحديث رقم (١٤٠٣٧).

والرّكْن الّذي لا يسقط عنّا بحال، فالزكاة والحجّ مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر، والصّوم يسقط عن المريض أو المسافر في حين مرضه أو سفره، ثمّ يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار، أمّا الصّلاة فهي الرّكْن الدّائم، ليس مرّة واحدة في العمر، ولا مرّة واحدة في العام، إنّما خمس مرّات في اليوم واللّيلة، فبها يكون إعلان استدامة الولاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا إنْ دلَّ فإنّما يدلّ على عظمة الإنسان ومكانته عند ربّه وخالقه عَزَّوَجَلَّ، ولأنّ للصّلاة هذه المنزلة بين أركان الإسلام لم تُفرض بالوحي كباقي الأركان، إنّما فُرِضَتْ مباشرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين استدعاه جَلَّ جَلَالُهُ للقائه في السّماء في رحلة المعراج.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: وهنا وقفة: فكيف بعد الإنابة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتّقوى، وبعد الأمر بإقامة الصّلاة يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؟ وأين الشّرك ممَّنْ يُؤَدِّي التّعاليم على هذا الوجه؟ قال العلماء: الشّرك المنهيّ عنه هنا ليس الإشراك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلهاً آخر، إنّما شرك النّيّة، كما جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ رَأَيْتُ بِوَجْهِهِ أَمْراً سَاءَنِي، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الَّذِي أَرى بِوَجْهِكَ؟ قَالَ: «**أَمْرٌ أَتَخَوَّفُهُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي**»، قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ وَشَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «**يَا شَدَّادُ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا وَثَناً وَلَا حَجَراً وَلَكِنْ يُرَاءُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّيَاءُ شِرْكٌ هُوَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»[1]،

(١) المستدرك على الصّحيحين: ج ٤، كتابُ الرّقاقِ، الحديث رقم (٧٩٤٠).

فالإشراك هنا بمعنى الرّياء، والنّظر إلى النّاس لا إلى الله ﷻ، فالّذي يصلّي أو يبني مسجداً للشّهرة، وليحمده النّاس فهو مُراءٍ، وهو خائب خاسر؛ لأنّ النّاس انتفعوا بعمله، ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً، فمعنى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: الشّرك الخفيّ وهو الرّياء.

(الآية ٣٢) - ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: فرّقوا دينهم كالرّكْب الّذين اختلفتْ وجهاتهم ونيّاتهم.

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾: جمع شيعة، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور، خيراً كان أم شرّاً، خيراً مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصّافّات]، أو شرّاً مثل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: من الآية ٤]، فالدّين يجمع ولا يفرّق، فالّذين فرّقوا اعتقادهم وجعلوه أقساماً أقساماً:

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾: فرحون بما قاموا به من عمل دنيويّ؛ أي: من أمور دنيويّة؛ لأنّ الدّين يكون لصلاح الدّنيا والآخرة، وهم أسرى للسّلطة الزّمنيّة، فإذا جاءهم أمر جامع فرّقوا دينهم، وكانوا أقساماً، كلّ حزب بما لديهم فرحون بما حقّقوه وما استطاعوا أن يحصلوا عليه من متعة وسلطات وأموال.

(الآية ٣٣) - ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾: الضّرّ: هو الشّيء الّذي نتضرّر منه، ولا تستطيبه النّفس، فإنْ أصابهم الضّرّ وأسبابهم لا تفي بالخلاص منه:

﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾: أي: رجعوا إليه ﷻ، والآن علموا أنّ لهم ربّاً يلجؤون إليه، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحي عن رسول الله ﷺ، فسرَّهم ذلك، وقالوا: إنّ ربّ محمّد قلاه، سبحان الله! الآن عرفتم أنّ لمحمّد ربّاً؟! وقلنا: إنّ ساعة الضّيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها، فإذا مسّهم الضّرّ فوراً لجؤوا إلى الله ﷻ، لا إلى أصنام ولا أوثان ولا بشر.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾: أي: يعودون إلى ما كانوا عليه من الشّرك بالله ﷻ، وحين نتأمّل هذه المسألة نجد أنّ القرآن الكريم عرضها مرّة بصيغة الإفراد، فقال: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ [الزّمر: من الآية ٨]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: من الآية ١٢]، لكنّ الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفي لإثبات الظّاهرة؛ لأنّ الإنسان الواحد يمكن أن يستذلّ أمام ربّه ﷻ، ويعود إليه بعد أنْ تجرَّأ على معصيته، يكون ذلك بينه وبين نفسه، فلا يفضح نفسه أمام النّاس، فأراد ﷻ أنْ يثبت هذه المسألة عند النّاس جميعاً؛ ليفضح بعضهم بعضاً، فذكر هنا: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت]، فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض، لذلك قلنا في ميزات الصّلاة: إنّها تُسوِّي بين النّاس، فيجلس الرّجل العادي بجوار مَنْ لم يكُن يُؤمَل أنْ يجلس بجواره، ففي الصّلاة الجميع سواء، والجميع منتفع بهذه المساواة.

﴿مَسَّ﴾: هو اللّمس الخفيف، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضرّ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث.

﴿أَذَاقَهُم﴾: الذّوق حاسّة من حواسّ الإنسان يُحِسُّ بها الطّعام عند مروره على منطقة معيّنة في اللّسان، فإذا ما تجاوز الطّعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه، فَلذَّة الطّعام مقصورة على هذه المنطقة في الفم، والتّذوّق أقوى انفعالات النّفس في استقبال المذاق.

﴿مِّنْهُ﴾: أي: من الله ﷻ، يعني بلا أسباب، أو: ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ﴾؛ أي: بدَّل الضّرّ برحمة، وخلَّصهم من الضُّرِ برحمة، كما أنّ الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشّديد للمستقبل، فإنّها أيضاً تدلُّ على التّناول الخفيف بلُطْف، كما تقول: ذُقْتُ الطّعام، أو تقول: والله ما ذُقْتُ لفلان طعاماً، لذلك عبّر الحقّ ﷻ عن الرّحمة هنا بالإذاقة؛ لأنّ رحمة الدّنيا لا تستوعب رحمة الله ﷻ كلّها، فالقليل منها في الدّنيا، وجُلُّها في الآخرة.

ونلحظ هنا أنّه قال ﷻ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، أمّا في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]، فلماذا قال في الأولى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، وفي الأخرى: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٥]، فلم يستثْنِ منهم أحداً؟ قال العلماء: لأنّ الآية الأولى تتكلّم عن الّذين دَعَوا الله ﷻ في البَرِّ، والنّاس في البرّ عادة ما يكونون مختلفين، فيهم الصّالح والطّالح، والمطيع والعاصي، فهم مختلفون في رَدِّ الفعل، فالمؤمنون لـمّا عَاينوا النّجاة ورحمة الله ﷻ، قالوا: الحمد لله الّذي نجّانا، أمّا المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم، أمّا الآية الأخرى

فتتكلّم عن الّذين دَعَوا الله ﷻ في البحر، وعادة ما نرى الّذين يركبون البحر على شاكلة واحدة، وهم لا يركبونه كوسيلة للسّفر، إنّما للترّف، فهم على طريقة واحدة وسلوك واحد، ما دام هؤلاء كانوا في البحر فلا بُدَّ أنّهم كانوا سواسية في الشّرك وفي التّخلّي عن الله ﷻ بمجرّد أنْ أَمِنوا الخطر، لذلك استخدم الأسلوب هنا: ﴿إِذَا﴾ الفجائيّة، واستخدمه في الآية الأخرى: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٥]، فبعد أنْ أنجاهم الله ﷻ أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشّرك. ففي هذه الآية يُبيّن الحقّ ﷻ لنا حقيقة الإنسان، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه، فإنْ كان الخير الّذي أعدَّه الله ﷻ له يُبطره ويُطغيه كما قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، فإنّه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربّه ﷻ حين ينفض الله ﷻ عنه كُلَّ أسباب الخير، ويهدّده في نفسه وفي ذاته الّتي لم تنتفع بآيات الله ﷻ في الكون، فالإنسان يفزع عندما يمسّه الشّرّ، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: من الآية ٦٧]، فهؤلاء الّذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم، أمّا أنا فربّكم الأعلم بكم، والقادر على إغاثتكم، وإنزال الرّحمة بكم، فهؤلاء المشركون أشركوا بالله ﷻ في وقت الرّخاء، أمّا في وقت الضّيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه، ولن يغشَّها، ولن يقول: يا هُبَل؛ لأنّه يعلم أنّ هُبَلَ لا يسمعه ولا يُجيبه، فلا ينفعه الآن، ولا يُنجيه إلّا الإله الحقّ، فقد ألجأتْه الضّرورة أن يعترف به ويدعوه.

(الآية ٣٤) - ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾:

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾: يتبادر إلى الذّهن أنّ اللّام في: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ لام التّعليل، أو لام السّببيّة الّتي يكون ما بعدها سبباً لما قبلها، كما تقول: ادرس لتنجح، وكذلك في الشّرط والجواب: إنْ تدرس تنجح، فِعِلَّة الدّراسة النّجاح، فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم؟ وهل نجّاهم الله عز وجل وأذاقهم الرّحمة ليكفروا به؟ نقول: ليس الشّرط سبباً في مجيء الجواب كما يفهم السّطحيّون في اللّغة، بل الجواب هو السّبب في الشّرط، لكنّهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع، فالتّلميذ يذاكر؛ لأنّ النّجاح ورد بباله، وتراءتْ له آثاره الطّيّبة أوّلاً فدفعتْه للمذاكرة، فالجواب سبب في الشّرط؛ أي: سبب دافع إليه، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشّرط ليجيء الجواب، وكما تقول: ركبتُ السّيّارة لأذهب إلى طرطوس، فركوب السّيّارة ليس سبب ذهابك إلى طرطوس؛ لأنّك أردْتَ أوّلاً الذّهاب فركبتَ السّيّارة، فلمّا ركبتها وصلتَ بالفعل، فنقول: الشّرط سبب للجواب وهو دافع يدفع إليه، والجواب سبب للشّرط، فهنا نجّاهم الله سبحانه وتعالى من الكرب، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به، إنّما ليُبيِّن لهم أنّه لا مفزعَ لهم إلّا إليه، فيتمسّكون به سبحانه وتعالى، فيؤمن منهم الكافر، ويزداد مؤمنهم إيماناً، لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك، لقد كفروا بالله عز وجل؛ لذلك يسمّون هذه اللّام لام العاقبة؛ أي: أنّ كفرهم عاقبة النّجاة والرّحمة، فالأسلوب هنا: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ يحمل معنى التّفريع؛ لأنّ ما بعد لام العاقبة ليس هو العلّة الحقيقيّة لما قبلها، إنّما العلّة

الحقيقيّة لما قبلها هو المقابل لما بعد اللّام: أذاقهم الرّحمة، ونجّاهم ليؤمنوا، أو ليزدادوا إيماناً، فما كان منهم إلّا أنْ كفروا، ولهذه المسألة نظائر كثيرة في القرآن الكريم، كقوله سبحانه وتعالى في قصّة موسى عليه السلام: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: من الآية ٨]، ومعلوم أنّهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بني إسرائيل.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: لأنّه كفر ليتمتّع بكفره في الدّنيا؛ لأنّ للإيمان مطلوبات صعبة تشقُّ على النّفس، فيأمرك بالشّيء الثّقيل على نفسك، وينهاك عن الشّيء المحبّب إليها، أمّا الأصنام الّتي عبدوها من دون الله عزّ وجلّ وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج، ومتاع الدّنيا قليل؛ لأنّ الدّنيا بالنّسبة إلينا مدّة بقائنا فيها، فلا تقُلْ: إنّها ممتدّة من آدم عليه السلام إلى قيام السّاعة، فهذا العمر الطّويل لا يعنينا في شيء، الّذي يعنينا عمرنا نحن، ومهما كان عمر الإنسان في الدّنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل، ثمّ إنّ هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقَّن، فربّما داهمنا الموت في أيِّ لحظة، ومَنْ مات قامت قيامته، ونلحظ هنا أنّ الأسلوب القرآنيّ عطف فعل الأمر: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على الفعل المضارع: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾، وفي موضع آخر قال سبحانه وتعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٦]، فجعل التّمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر، إنّما للعلّة: ليكفروا وليتمتّعوا، لذلك اختلفوا حول هذه اللّام، أهي للأمر أم للتّعليل؟! ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٦]، جاءت بعد: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٦]، وهذه جاءتْ معطوفة على: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾

[العنكبوت: من الآية ٦٦]، فكأنّه قال: اكفروا وتمتّعوا، لكن ستعلمون عاقبة ذلك، والّذي جعلهم يقولون عن اللّام هنا: لام التّعليل، أنّها مكسورة، أمّا لام الأمر فساكنة، فلمّا رأوا اللّام مكسورة قالوا: لام التّعليل، أمّا الّذي فهم المعنى منهم قال: ما دام السّياق عطف فعل الأمر ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۚ﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٦]، على المضارع المتّصل باللّام، فاللّام للأمر أيضاً؛ لأنّه عطف عليها فعل الأمر، وهو هنا للتّهديد، لكن، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنّها ساكنة؟ قال أحد النّحاة: لام الأمر ساكنة، ويجوز أنْ تُكْسَر، واستشهد بهذه الآية: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۚ﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٦]، ونقول لمن يقول: إنّها لام التعليل: إذا سمعت لام التّعليل فاعلم أنّها تعني لام العاقبة؛ لأنّ الكفر والتّمتّع لم يكُنْ سبباً في إذاقة الرّحمة، ويا مَنْ تقول: لام الأمر، سيقولون لك: لماذا كُسِرَت؟ وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة تدلّ على أنّها قد تُكسَر.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تدلُّ على التّراخي واستيعاب المستقبل كلّه، سواء أكان قريباً أم بعيداً، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة، أو سيموت بعده بوقت طويل.

(الآية ٣٥) - ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥﴾:

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾: التّقدير: أهُمُ اتّبعوا أهواءهم، أم عندهم كتاب أُنزِل إليهم فهو حجّة لهم على الشّرك؟ وبما أنّهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلّا التّعيين الآخر أنّهم اتّبعوا أهواءهم.

﴿أَنزَلْنَا﴾: الإنزال يقتضي عُلُوَّ المنزَّل منه، وأنّ المنزَّلَ عليه أَدْنى، فالإنزال من عُلُوّ الرّبوبيّة إلى ذُلِّ العبوديّة، ونحن لم نَرَ الإنزال، إنّما الّذي تلقَّى القرآن الكريم أول مرّة وباشر الوحي ﷺ هو الّذي رآه وأخبرنا به، والأصل في الإنزال أن يكون من الله سبحانه وتعالى، وحين ينزل الله عز وجل علينا إنّما ليعطينا سبحانه وتعالى شيئاً من هذا العُلْوّ، سواء أكان العُلُوّ معنويّاً؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ليس له مكان، أم عُلُوّاً حِسّياً، كما في قوله جل جلاله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: من الآية ٢٥].

﴿سُلْطَانًا﴾: السّلطان: من التّسلُّط، وهي تدلُّ على القوّة، سواء أكانت قوّة الحجّة والبرهان، فمَنْ أقنعك بالحجّة والبرهان فهو قويٌّ عليك، أم قوّة قهر وإجبار، كمَنْ يُرغِمك على فعل شيء وأنت كاره، أمّا سلطان الحجّة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع.

وإذا استقرأنا كلمة: (سلطان) نجد أنّ الله سبحانه وتعالى عرضها لنا في موقف إبليس في الآخرة، حين يتبرأ من الّذين اتّبعوه ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]؛ أي: لم يكُنْ لي عليكم سلطان حجّة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم، ولم يكُنْ لي عليكم سلطان قهر، فأقهر به قوالبكم، والحقيقة أنّكم كنتم ضعفاء مجرّد أنْ دعوتكُم جئتم مُسرعين، وأطعتُم مختارين، وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً في القرآن الكريم خاض النّاس فيه طويلاً –عن خُبْث نيّة أو عن صدق نيّة– هذا في قوله سبحانه وتعالى مرّة لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، ومرّة أخرى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، فالأولى تدلّ على سُلْطان القهر، كأنّك

كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السّجود، والأخرى تدلّ على سلطان الحجّة والإقناع، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السّجود.

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾: أي: ينطق بما كانوا به يشركون، يقول: اعملوا كذا وكذا، فجاء هذا على وَفْق أهوائهم.

(الآية ٣٦) - ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾:

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾: أمرٌ جيّد أنْ يفرح النّاس، وأنْ يستبشروا برحمة الله ﷻ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيّئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون؟ فمُجري الرّحمة هو مُجري السّيّئة، لكنّهم فرحوا في الأولى؛ لأنّها نافعة في نظرهم، وقنطوا في الأخرى؛ لأنّها غير نافعة في نظرهم، وكان عليهم أنْ يعلموا أنّ هذه وتلك من الله ﷻ، وأنّ له ﷻ حكمةً في الرّحمة وحكمةً في المصيبة أيضاً، فأنتم نظرتم إلى شيء وغفلتم عن شيء، نظرتُم إلى ما وُجِد من الرّحمة وما وُجِد من المصيبة، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرّحمةَ، ومَنْ أوجد المصيبة، ولو ربطتم وجود الرّحمة أو المصيبة بمَنْ أوجدها لَعلِمتُم أنّه حكيم في هذه وفي تلك، فآفة النّاس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها، فينبغي ألَّا تنظروا إلى ذات الواقع، إنّما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع، فلو دخل عليك ولدك يبكي؛ لأنّ شخصاً ضربه، فأوّل شيء تبادر به: مَنْ فعل بك هذا؟ فإنْ قال لك: فلان، تقول: نعم إنّه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. إلخ، فإنْ قال لك: عمّي ضربني أو أخي، فإنّك تقول: لا بُدَّ أنّك فعلتَ شيئاً أغضبه، أو أخطأتَ في

شيء فعاقبك عليه، فلم تنظر إلى الواقع في ذاته، إنّما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه، فإنْ كان من العدوّ فلا بُدَّ أنّه يريد شرّاً، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنّه يريد بك خيراً، وهكذا ينبغي أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده، فإنْ كان الّذي أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ نتأمّل الحكمة، ولن نتحدّث عن الرّحمة؛ لأنّ النّفع ظاهر فيها للجميع، لكن لنسأل عن المصيبة الّتي تُحزِن النّاس، فيقنطوا وييأسوا بسببها، ونقول: لو نظرنا إلى مَنْ أنزلها بنا لارتاح بالنا، واطمأنّتْ أنفسنا، فالمصيبة تعني الشّيء الّذي يصيبنا، خيراً كان أم شرّاً، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: من الآية ٧٩]، فالمصيبة لا تُذَمُّ في ذاتها، إنّما بالنّتيجة منها، وكلمة أصاب في الحسنة وفي السّيّئة تدلُّ على أنّ سهمها أُطلِق عليك، وعمرها مقدار وصولها إليك، فهي لا بُدَّ أن تصيبك، لن تتخلَّف عنك أبداً، ولن تُخطئك؛ لأنّ الّذي أطلقها إله وربّ حكيم، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعِب نفسك، ولا تُزاحِم النّاس عليها، وإنْ كانت مصيبة فإيّاك أنْ تقول: أحتاط لها لأدفعها عن نفسي؛ لأنّه لا مهربَ لك منها، ثمّ لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة؟ لماذا لا تنتظر وتتأمّل، لعلّ لها حكمة، ولعلّ من ورائها خيراً لا تعلمه الآن، وربّما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب، قال ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٦]، فلا نقنط من ضُرٍّ أصابنا، ولنعلم أنّ الّذي أجراه علينا ربّنا ﷻ، وأنّ له حكمة فلننتظر حتّى تتكشّف لنا، ولا يقنط إلّا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه، ثمّ تعالَ نناقشك في المصيبة الّتي قَنطت من أجلها: ألكَ دَخْلٌ

فيها؟ أم ليس لك دَخْل؟ إنْ كان لك دَخْل فيها، كالتّلميذ الّذي أهمل دروسه فرسب في الامتحان، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا، فالرّسوب يُعدِّل لك خطأك، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتّى تتدارك الأمر وتجتهد، وإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها، كالّذي درس واجتهد، ومع ذلك لم يُوفَّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان، أو لعارض عرض له، نقول: إيّاك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط.

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة، ففي الكلام عن الرّحمة قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾، فاستخدم أداة الشّرط: (إذا)، أمّا في المصيبة فقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾، فاستخدم أداة الشّرط (إنْ)، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من (إذا) إلى (إن)؟ قال العلماء: حين تقارن بين النِّعَم وبين المصائب الّتي تنزل بالإنسان في دنياه تجد أنّ النِّعَم كثيرة والمصائب قليلة، فنِعَم الله ﷻ متوالية علينا في كلّ وقت لا تُعدُّ ولا تُحصَى، أمّا المصائب فربّما تُعَدُّ على الأصابع، لذلك استخدم مع النِّعَم (إذا) الدّالّة على التّحقيق، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدّالّة على الشّكّ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النّصر]، فاستعمل ﴿إِذَا﴾؛ لأنّها تدلُّ على التّحقيق وتُرجِّح حدوث النّصر، وقال ﷻ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ﴾ [التّوبة: من الآية ٦]. كما نلحظ في أسلوب الآية أنّها لم تذكر السّبب في إذاقة الرّحمة، إنّما ذكرتْ سبب المصيبة: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ ليدلَّ على عدله ﷻ في إنزال المصيبة،

وتفضُّله في إذاقة الرّحمة؛ لأنّ الرّحمة من الله ﷻ والنِّعَم فضل منه ﷻ، لكن في المصيبة قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، فذكر العِلّة حتّى لا يظنّ أحد أنّ الله ﷻ يُجري المصيبة على عبده ظُلماً، بل بما قدَّمَتْ يداه، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهيّ.

(الآية ٣٧) – ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾:

﴿يَبۡسُطُ﴾: يُوسّع.

﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾: يُضيّق.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾: يعني: ألم يروا هذه المسألة، فواحد يُوسِّع الله ﷻ عليه الرّزق، وآخر يُضيِّق عليه، وربّما صاحب السّعة لم يتعب فيها، إنّما جاءته من ميراث أو غيره، وصاحب الضّيق يكدّ ويتعب، ومع ذلك فعيشته كفاف، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما في ضمائرهم من إيمان أو إلحاد، فقالوا: العالم لا يسير بحركة ميكانيكيّة ثابتة، إنّما بقيّوميّة الخالق ﷻ عليه، فلننظر إلى البسط لمن بسط الله ﷻ له، والقبض لمن قبض الله ﷻ عنه، ولا نعزل الفعل عن فاعله ﷻ، ولنتأمّل أنّ الله ﷻ واحد، وأنّ عباده عنده سواء، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيّق على الآخر، فلا بُدَّ أنّ في هذه حكمة، وفي تلك حكمة أخرى، ولو تتبّعنا عواقب السّعة هنا والتّضييق هناك لتراءتْ لنا الحكمة، ونرى صاحب سعة ورزق ونِعَم كثيرة، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده؛ لأنّ

مظاهر التّرف جرفتهم إلى الانحراف، ففشلوا في حياتهم العمليّة، وفي المقابل نرى الفقير الّذي يعيش على الكفاف يتفوّق أولاده، ويأخذون أعلى المراتب؟ فقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ وفق حكمة يعلمها سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وسبق أن ذكرنا أنّ في ألمانيا مدرستين فلسفيّتين في الإلحاد، إحداهما لواحد اسمه: (جيبل)، والأخرى لـ: (بختر)، أحدهما: ينكر أن يكون للعالم إله، يقول: لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور.. إلخ، فالحكمة في الخَلْق تقتضي المساواة، فأخذ من الشّذوذ في الخَلْق دليلاً على إلحاده، أمّا الآخر فقال: ليس للكون إله، إنّما يسير سَيْراً ميكانيكيّاً رتيباً، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا، فأخذ ثبات النّظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه، فالمسألة عندهم رغبة في الإلحاد بأيّ شكل، وعلى أيّة صورة، واستخدام منهج مُعْوَجّ يخدم القضيّة الّتي يسعون إلى إثباتها، ونقول في الرّدّ على الأوّل الّذي اتّخذ من الشّذوذ في الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم: الشّذوذ الّذي ذكره شذوذ في الأفراد الّذين يُعوّض بعضهم عن بعض، فواحد أعمى، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين، فوجود هذه النّسبة الضّئيلة لا تُفسِد القاعدة العامّة في الخَلْق، ولا تؤثّر على حركة البشر في الكون، فالصّحيح يعوّض غير الصّحيح، أمّا النّظام الثّابت الّذي يريده الثّاني فعليه أن ينظر إلى الملأ الأعلى، وفي الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم.. إلخ، فسيرى فيه نظاماً ثابتاً لا يتغيّر؛ لأنّ الشّذوذ في هذه المخلوقات يفسد الكون كلّه؛ لذلك خلقه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على هيئة الثّبات وعدم الشّذوذ، ففي النّظام العامّ

للكون نجد الثّبات، وفي الأفراد الّذين يغني الواحد منهم عن الآخر نجد الشّذوذ والاختلاف، فالثّبات يثبت حكمة القدرة، والشّذوذ يثبت طلاقة القدرة، فيا مَنْ تريد ثبات النّظام دليلاً على الإيمان، فالثّبات موجود، ويا مَنْ تريد شذوذ النّظام دليلاً على الإيمان، فالشّذوذ موجود، فما عليكما إلّا أن تتّفقا وأن ينفتح كلّ منكما على الآخر لتصلا إلى الصّواب.

ومسألة الرّزق لها فلسفة في الإسلام، فالحقّ ﷻ أخبرنا بأنّه الرّزّاق، فمرّة يرزق بالأسباب، ومرّة يرزق بلا أسباب، لكن علينا ألّا نغترّ بالأسباب، فقد نقدّم الأسباب ونسعى ثمّ لا يأتينا منها رزق، ويخيب سَعْينا، كالفلّاح الّذي يأخذ بالأسباب حتّى يقارب الزّرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه، فاحذر أن تغترّ بالأسباب، وانظر إلى المسبِّب ﷻ، وقلنا: ينبغي أنْ نتحرّى إلى الرّزق أسبابه، ولا نشغلنّ بعدها بالنا بأمره، فقد تكفّل به خالقنا الّذي استدعانا إلى الوجود، وقد عبَّر الشّاعر عن هذا المعنى بقوله:

تَحَــرَّ إلى الرِّزْقِ أَسْــبابَهُ ... ولَا تشغلنْ بعــدَهَا بَــالَكا

فَإنَّك تجهــلُ عنــوانه ... ورِزْقُكَ يعــرِفُ عُنْوانَكا

ونلحظ على أسلوب الآية قوله ﷻ في البسط: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وفي التّضييق: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾، ولم يقُلْ: (لمن يشاء)؛ لأنّ البسط في نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمنّاه، فقال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، لنطمئنّ نحن إلى أنّنا سندخل في هؤلاء الّذين سيُبْسط لهم في الرّزق، أمّا في التّقتير فلم يقُلْ: (لمنْ) ليظلّ مبهماً يستبعده كلٌّ مِنّا عن نفسه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: قال جَلَّاللهُ: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنّ مسألة الرّزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرّازق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الإعطاء وفي المنع.

(الآية ٣٨) - ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾: حينما نتأمّل النّسق القرآنيّ هنا نجد أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أوّلاً البسْطَ في الرّزق، ثمّ التّقتير فيه، ثمّ أكّد بعده مباشرة على حَقِّ ذي القُرْبى والمسكين وابن السّبيل، وكأنّه يلفت أنظارنا إلى أنّ هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرّزق، إنّما هي على الجميع حتّى مَنْ كان في خصاصة، وضُيّق عليه رزقه، فلا ينسى هؤلاء، لذلك يذيّل المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والجميع: مَنْ بُسِط له، ومَنْ قُتِر عليه يريدون وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التّوبة]، نجد أنّها لم تذكر ذا القربى الّذي ذكر هنا، وكأنّ الآية تُشير إلى أمر ينبغي أن نلتفت إليه، وهو أنّ القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة، مع أنّه حقّ، ويكون صدقة وصلة معاً، فلا تربط هؤلاء الثّلاثة -القريب والمسكين وابن السّبيل- بمسألة الزكاة فقط، فلهم حَقٌّ حتّى على الفقير الّذي لا يملك نصاباً، وعلى مَنْ ضُيّق عليه رزقه، ومع هذا الحقّ الّذي قرّره الشّرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب، ويحتالون لحرمانهم منها،

فمثلاً بعض النّاس لا ينجب ذكوراً، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمّهم أو أبناء عمومتهم من الميراث، مع أنّ البنت لها نصف التّركة، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثّلثان، ويُوزَّع الثّلث على العمّ أو ابن العمّ؛ ذلك لأنّ البنات في هذه الحالة ليس لهنّ ذَكَر عصبة، فجعلها الشّرع في العمّ أو ابن العمّ، والشّارع الحكيم يوازن بين الأطراف، فيأخذ منك ويعطيك، فلماذا في حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العمّ أو ابن العمّ بالنّفقة حتّى يحقّ لهنّ أن يقاضوه في المحاكم؟ فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب بحقوقنا؟ فهذا نوع من التّغفيل، لماذا لا نُعطي العمّ أو ابن العمّ، وهو الّذي سيحمي البنات ويسهر على راحتهنّ، ويقف بجوارهنّ حال شدّتهنّ؟ فإيَّاك أنْ تُدخِل الأقارب في الزكاة فقط، أو تربط مساعدتهم بالحالة الماليّة لك؛ لأنّ لهم عليك حقّاً حال رخائك وحال شدّتك، ويكفي أنّ الحقّ ﷻ خصَّهم بقوله: ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فكلمة (ذو) بمعنى صاحب، تدلّ على المصاحبة الدّائمة والملازمة، فلا نقول: فلان ذو علم لمن عَلِمَ قضيّة أو قضيّتين، إنّما لمن اتّصف بالعلم الواسع وتمكّن منه، كذلك لا نقول: فلان ذو خُلُق إلّا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفكّ عنه، ومن ذلك نقول: ذو القربى يعني ملاصقين لنا لا ينفكّوا عنّا، فيجب أنْ نراعي حقوقهم علينا، فنجعل لهم نصيباً، حتّى إنْ لم نكُنْ نملك نصاباً، وكذلك للمسكين وابن السّبيل؛ لأنّ الله ﷻ ذكرهم معاً في غير بند الزكاة، فدلَّ ذلك على أنّ لهم حقّاً غير الزكاة الواجبة، فلهم حقّ بالزكاة وحقّ إضافيّ بالصّدقات، ونلحظ أنّ القرآن الكريم رتَّبهم حسب الأهمّيّة والحاجة، فأوّلهم القريب لقرابته الثّابتة

منّا، ثمّ المسكين وهو متوطّن معروف لنا، وهو الّذي لا يملك قوت يومه، ثمّ ابن السّبيل العابر الّذي نراه يوماً ولا نراه بعد ذلك، فهو حسب موضعه من الحال، والمسكين قد يتغيّر حاله، ويتيسّر له الرّزق فيُوسِّع الله ﷻ عليه، وابن السّبيل يعود إلى بلده، فالوصف الثّابت لذي القربى؛ لذلك وصفه الله ﷻ بما يدلّ على الثّبات.

﴿حَقَّهُۥ﴾: فالحقّ مُلازِم له وهو أَوْلَى به، لذلك لم يَقُل مثلاً: (وآت ذا القربى حقّه، والمسكين، وابن السّبيل حقوقهم)، وقد مثَّل العلماء لذلك بقولهم: قال الأمير: يدخل عليَّ فلان، وفلان، وفلان، فالإذن بالدّخول للأوّل يتبعه في ذلك الباقون، فلهؤلاء الثّلاثة خصوصيّة، فقد أمرنا الله ﷻ أنْ نعطيهم، وألّا نربطهم بالزكاة فقط ولا ببسط الرّزق، أمّا باقي السّبعة فلم يُلزمنا نحوهم بشيء غير الزكاة المفروضة، ولمّا حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير، أيّهما أحوج من الآخر؟ قالوا: المسكين مَنْ له مال، ولكن لا يكفيه، واستشهد الإمام أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله ﷻ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: من الآية ٧٩]، فأثبت لهم ملكيّة وسمّاهم مساكين، أمّا الفقير فهو الّذي لا شيء له، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين، فيدخل في هذه الآية من باب أَوْلَى.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: الإيفاء لهؤلاء.

﴿خَيۡرٞ﴾: كلمة خير تُطلَق في اللّغة، ويُراد بها أحد المعنيين: مرّة نقول: خير، ويقابلها: شرّ، كما في قوله ﷻ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]، ومرّة نقول: خير، ونقصد الأخْيَر، كالأحسن؛

أي: أفعل تفضيل، لكنّ الشّائع أن تُستعمل خير في أفعل التّفضيل، كقول النّبيّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»(١)، فخَيْر الأولى بمعنى أخير، لكن لمن؟

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: أي: في الوفاء بحقِّ ذي القربى والمسكين وابن السّبيل، يريدون بذلك وجه الله ﷻ، لا يريدون رياءً ولا سمعة ولا دعاية ولا إعلاماً؛ لأنّ الّذي يفعل خيراً يأخذ أجره مِمَّن فعل من أجله:

مَن يَفعَلِ الخَيرَ لا يَعدَم جَوازِيَهُ ... لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللهِ وَالنّاسِ

فمَنْ عمل لله ﷻ مخلصاً فأجره على الله ﷻ، ومَنْ عمل للنّاس رياءً وسمعة فليأخذ أجره منهم، وهؤلاء الّذين يتصدّقون للسّمعة وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النّور]؛ أي: فوجئ بوجود إله لم يكُنْ في باله، ولم يعمل من أجله، فمعنى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يقصدون بعملهم وجه الله ﷻ، سواء رآه النّاس، أو أخفى عمله، حتّى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه؛ لأنّ الأمر قائم على النّيّة، والله ﷻ مطّلع على النّيّات والسّرائر، فقد تعطي أمام النّاس ونيّتك أنْ يتأسَّوْا بك، فهذا محمود، وحين تعطي علانية بنيّة خالصة لله ﷻ فإنّها صدقة مخصِّبة للعطاء، مخصِّبة للأجر؛ لأنّك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطي، ويكون لك من الأجر مثله؛ لأنّ النّبيّ ﷺ

(١) صحيح مسلم: كتاب القَدَرِ، بابٌ في الأمْرِ بالقُوَّةِ وتَرْكِ العَجْزِ والاستعانةِ باللهِ وتفويضِ المقاديرِ للهِ، الحديث رقم (٢٦٦٤).

قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ، وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ»[1]، والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضيّة في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٤]، ثمّ يعطينا مثلاً توضيحيّاً: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٤]، فمثَل المرائي كهذا الحجر النّاعم الأملس حين يُصيبه المطر، وعليه طبقة من التّراب يزيحها المطر، فيبقى صَلْداً ناعماً لا يحتفظ بشيء، ولا ينبت عليه شيء، وهذا المثَل يُجسّد لنا خيبة سَعْي المرائي، وأنّه مغفّل، سعى واجتهد فانتفع النّاس بسَعْيه، وتعدّى خيره إلى غيره، وخرج هو خالي الوفاض من الخير ومن الثّواب، ثمّ يذكر الحقّ ﷻ المقابل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة]، فالصّدقة ابتغاء وجه الله ﷻ كالأرض الخِصْبة حين ينزل عليها المطر، فيأتي نباتها مضاعفاً مباركاً فيه، فإنْ لم يكُن مطر كفاها الطَّلّ لتنبت وتُؤتي ثمارها، ولو قال ﷻ: (كمثل جنّة)، لكانت كافية، لكنّها: ﴿جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٥]، يعني: على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها، فكلّما كانت الأرض مرتفعة زادتْ

---

(١) سنن الدّارميّ: ج١، بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً، الحديث رقم (٥٣١).

خصوبتها، وخلَتْ من المياه الجوفيّة الّتي تؤثّر على النّبات، وهذه الجنّة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى، فيغسل الأوراق والغصون، فتزيد نضارتها وجودتها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يترك لآثار الذّات في النّاس تذكرةً وعبرة، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل، فتكون النّتيجة الطّبيعيّة أنْ ينكر الآخر جميله، بل ويكرهه ويحقد عليه، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وهو معنى القول الشّهير: اتَّقِ شرّ مَنْ أحسنتَ إليه، لماذا؟ لأنّه حين يراك يتذكّر ما لك من يَدٍ عليه، وما لك من فضل، فيشعر بالذّلّة؛ لأنّ وجودك يدكُّ كبرياءه؛ لذلك يكره وجودك، ويكره أنْ يراك، بينما عندما تدفع دائماً الأمور بالّتي هي أحسن، وتعمل العمل لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنّه لا يمكن أن نقول: اتّق شرّ من أحسنت إليه، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ٦٠﴾ [الرّحمن]، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرّياء، أو بالأغراض الدّنيّة؛ لأنّ معروفك هذا سيُنكر، وسينقلب ما قدّمتَ من خير شرّاً عليك، فعلينا بالنّظر في أعمالنا إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ لا إلى غيره، فإنْ حدث وأنكر النّاس جميلنا فجزاؤنا محفوظ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وكأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغار علينا، ويريد أنْ يحفظ لنا الجميل ويدّخره عنده، وهذا المعنى عبَّر عنه الشّاعر بقوله:

أقُولُ لأصْحاب المرُوءَاتِ قَوْلةً ... تُريحهُم إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحَاجَاتِ خَلْفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدْرَكُوها خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثـوابَ الله أربى وأجْـزَلُ

لذلك يقول بعض العارفين: إنّ الّذين يريدون بأعمالهم وجه الله ﷻ هم الّذين يُغْلون أعمالهم؛ أي: يرفعون قيمتها، ويضاعفون ثوابها: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥].

وقوله ﷻ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ بعد قوله: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ يدلّ في ظاهره على أنّه يأخذ منك مع أنّك مُقِلٌّ، وهذا يدخل في إطار قوله جلّ جلاله: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: من الآية ٩]، وقلنا سابقاً: إنّ الشّارع حكيم، إذا ألزمنا، وأخذ منّا، فإنّما ذلك ليعطينا إنْ احتجنا، وهذه المسألة واضحة في كفالة اليتيم، فلو أنّ المجتمع الإيمانيّ عوّضه عن أبيه عملاً بقول النّبيّ ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى[1]، لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم؛ لأنّهم في مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين، والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً، فإنّما يُنغِّص هذه النّعمة أنّها عُرْضة للزّوال، فيريد الله ﷻ أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة في امتداده من بعده، وهذا هو التّأمين الحقّ الّذي أرسله الله ﷻ قضيّة تأمينيّة في الكون، ليست في شركات التّأمين، إنّما ممّن في يده ملكوت السّموات والأرض، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النّساء]، فإذا اتّقوا الله ﷷ، وقالوا القول السّديد، فإنّ يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه، ويخافون عليه، ويتولَّوْن أمره، وسبق أنْ تعرَّضْنا في سورة الكهف لقصّة الجدار الّذي تبرّع الخضر عليه السلام ببنائه مع أنّه في قرية أهلها لئام منعوهم حتّى

---

(١) صحيح البخاريّ: كِتَابُ الأدَبِ، بابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يتيماً، الحديث رقم (٦٠٠٥).

الطّعام، وقلنا: إنّ سؤال الطّعام هو أصدق سؤال، ولا يُرَدُّ سائله، ومع ذلك بناه الخضر، وقال في بيان أمر الجدار: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: من الآية ٨٢]، فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين، فيُسخِّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهما مَنْ يبني لهما الجدار، ويحافظ لهما على كنزهما حتّى يكبرا، ويستطيعا حمايته من هؤلاء اللّئام الّذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذْين الصّغيريْن، وهنا يتبيّن لنا أهمّيّة الإنفاق في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، ويتبيّن لنا أنّ الإنفاق يجب أن يكون في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

(الآية ٣٩) - ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعرف أنّ خَلْقه يفعلون الخير، ويطلبون الأجر عليه، لكنّ هذا الطّلب قد يضيع إذا دخل الرّياء في أعمالهم، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرّياء، لكنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد أن يرتفع بالصّدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ، فيأخذ صاحبها الثّمن من يد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مضاعفاً.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾: أي: الزّيادة عمّا تُعطي، وهذه الزّيادة غير مشروطة في عقد، والزّيادة تكون في المال، أو بأيّ وسيلة أخرى فيها نفع؛ لأنّهم قالوا في تعريف الرّبا: كلّ قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا، فالإمام أبو حنيفة كان يجلس في ظلّ جدار لجاره، فلمّا طلب منه جارُه مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس في ظلّ الجدار كما كان يجلس، فسأله عن ذلك، فقال: كنت أجلس في ظلّ جدارك وأعلم أنّه تفضّل منك، أمّا الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتّى لا تظنّ أنّ هذه الجلسة للمال الّذي أخذتَه منّي.

فالمعنى: وما آتيتم من ربا تبغون به الزّيادة سواء أكانتْ نفعاً، أم مالاً، أو غير مال، وسواء أكانت مشروطة أم غير مشروطة.

﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: (في) هنا للظّرفيّة، فالمال ظرف، وما تضعه فيه ينقص منه، ويزيد ما عندك.

﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾: يربو عندك أنت بالزّيادة الّتي تأخذها من فلان، أمّا عند الله سُبحانه وتعالى فلا يربو، هكذا قال ابن عبّاس رضي الله عنهما، وإن كان بعض العلماء قال: هي مطلق في الرّبا الأصل، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها، لكن رأى ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ آية الرّبا معروفة، وهذه للرّبا في زيادات التّحيّة والمجاملات بين النّاس.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: أي: الّذين يُؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله عزّ وجلّ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: ليست من الإضعاف، إنّما من الأضعاف، فالزكاة أضعاف (بالفتح)، كما في قوله جلّ جلاله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: من الآية ١١]، أمّا الرّبا فإضعاف (بالكسر)، وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الّذين يحبّون أنْ يستدركوا على كلام الله عزّ وجلّ، قالوا: في القرآن الكريم آيات تصادم الحديث النّبويّ، فالقرآن الكريم يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: من الآية ١١]، فالقرض الحسن يضاعف به الله سُبحانه وتعالى الثّواب، وعندكم أنّ الحسنة بعشر أمثالها، وقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مَكْتُوبٌ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،

وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ»[1]، فلو أنّ القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، فهو بعشرين لا بثمانية عشر، فكان الجواب: لو تصدّقْتَ بدرهم مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضَاعف لك إلى عشر، لكن هل أردُّ إليك درهمك الّذي تصدَّقْتَ به؟ الجواب: لا، فحقيقة الأمر أنّك أخذتَ تسعة فتضاعف إلى ثمانية عشر، قالوا: فلماذا زاد ثواب القرض؟ نقول: لأنّ المتصدِّق حين يتصدّق ينقطع أمله فيما قدَّم، لكنّ المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردّه، فكلّما صبر عليه أخذ أجراً، ثمّ إنّ المقترض لا يقترض إلّا عن حاجة، أمّا المتصدَّق عليه فقد يقبل الصّدقة وهو غير محتاج إليها، وربّما كان ممَّنْ يكنزون المال، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد أنْ يُنمي القرض، لماذا؟ قالوا: لأنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ يريد أن تسير حركة الحياة، وأنْ تتكامل، وأنت تعتزّ بمالك وتخاف عليه وتريد له النّماء، وسوف تجد هذا كلّه في القرض، فاجعله قرضاً، فهو الباب الّذي فتحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك للزّيادة والثّواب، ثمّ إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى احترم ملكيّتك لمالك، وحرص على حمايته لك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٢]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحيّة المعطي ومروءته: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٣]، وبهذه الفلسفة الإيمانيّة يدور المال وتسير به حركة الحياة، بحيث يضمن لصاحب المال ماله؛ لأنّه مُحِبٌّ له حريص عليه، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرّك من

---

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه محمّد، الحديث رقم (٦٧١٩).

مال غيره، فإذا كانت هناك أمانة أداء، فكلّ صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقّها، فإنِ اختلّت هذه الموازين، وماطل الفقيرُ الغنيَّ، وضنَّ عليه أنْ يردَّ إليه حقّه، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض، ولِمَ لا؟ والنّاس يأكلون الحقوق، وبذلك تتوقّف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التّقدّم، فإذا كان الرّبا غير مشروط، وهو الرّبا في الهدايا والمجاملات والتّحيّة بين النّاس الّذي جعله الله ﷻ للمودّات والمروءات بين النّاس، لا يثيب عليه ولا يعاقب، وقال عنه: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أمّا الرّبا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة، وشرع له عقاباً، وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الّذي رَابَى، فأنت ترابي لتزيد من مالك، فيقابلك الله ﷻ بالنّقصان: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٦]، لماذا؟ قالوا: لأنّ المعطي غنيٌّ واجد، لديه فائض من المال يعطي منه، أمّا الآخذ فمحتاج، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد في مال الواجد غير المحتاج؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أنّ عندك مالاً يزيد عن حاجتك، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن، بل تشترط عليه الزّيادة، فتأخذ الزّيادة منه، وهو محتاج؟ ثمّ افرض أنّني أخذت هذا القرض لأثمره وأنمّيه فخسر، أليس كافياً أنْ أخسر عملي، ويضيع مجهودي؟ أمن العدل أن أخسر عملي، ثمّ أكون ضامناً للزّيادة أيضاً؟ هذه ليست من العدالة؛ لأنّ شرط العقد أن يحمي مصلحة الطّرفين، أمّا عقد الرّبا فلا يحمي إلّا مصلحة الدّائن، ونحن نرى حتّى التّشريعات الوضعيّة في الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص

لعمل مشروع مثلاً ثمّ خسر وأرادوا تسوية حالته، أوّل شيء في إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد، وهذا يوافق شرع الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٩]، ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بمعنى: أن نردَّ إليكم رؤوس أموالكم؛ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا نظلمك من ناحية أخرى، فنقول لك: إنْ أردتَ أنْ تتوب فرُدّ ما أخذتَه بالرّبا بأثر رجعيّ؛ لأنّ ما أخذتَه قد صُرِف وتصعب إعادته، وبذلك نراعي مصلحة الدّائن حين نعيد إليه رأس المال، ومصلحة المدين، فلا نكلّفه ردَّ مَا لا يقدر على ردِّه، وحين نتأمّل هذه المسألة: آلدّول أقوى أم الأفراد؟ الجواب: بالتّأكيد الدّول، أرأيتم دولة اقترضت مالاً من دولة أخرى، ثمّ استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدّين فضلاً عن أصل الدَّيْن؟ كذلك الأفراد الأقوياء الّذين يأخذون القروض، ثمّ لا يسدّدون مجرّد الفوائد، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم، فيقعون في خصومات ومشكلات، وهناك شيء آخر، هَبْ أنّ رجلاً لديه مثلاً ألف درهم وآخر لا مال عنده، صاحب الألف يستطيع أن يديرها، وأن يعيش منها، أمّا الآخر الّذي لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه، فإنْ قلت له: إنّ الألف قرضه بمئة درهم، فمن أين يوفّر هذه المئة؟ وحين نقول: إنّ الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضيّة جيّداً، وإيّاك أن تقول: إنّ الإسلام لا يصلح في زمان كذا، أو في مكان كذا، والآن نسمع بعض النّاس ينصرف عن منهج الإسلام، ويقول لك: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]؛ أي: ليس في وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، فنقول له: مَن الّذي يحدّد الوُسْع؟ أنت أم المشرّع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

ما دام الله سبحانه وتعالى قد كلَّف، فاعلم أنّ التّكليف في وُسْعك، فخذ الوُسْع من التّكليف، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله عز وجل به، لذلك نرى أنّ الله جل جلاله إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنا دون أنْ نطلب التّخفيف، كما في صلاة وصوم المريض والمسافر.. إلخ، وكما في التّيمّم إنْ تعذَّر استعمال الماء، فلا معنى لأن نقول: "إنّ تعاليم الدّين لا تناسب العصر، فاجعل العصر هو المشرِّع، وانصرف عن تشريع السّماء إلى ما يحتمله العصر"، هكذا يريد بعض النّاس للتّحلل من الدّين، لذلك قلنا: إنّ الحقّ سبحانه وتعالى حينما يلقي تكاليفه يقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، فمعنى ﴿تَعَالَوْا﴾: ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر، واعلوا إلى تكاليف الله جل جلاله، فإنْ هبطتَ بالتّكاليف إلى مستواك، وقُلْت: ظروف العصر تحتّم عليَّ كذا وكذا، فقد أخضعتَ منطق السّماء لمنطق الأرض، وما جاء منطق السّماء إلّا ليعلو بك، فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الرّبا، فمنهم مَنْ يُحلِّل، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة، وهَبْ أنّهم متساوون؛ مَنْ يحرِّم ومَنْ يحلِّل، فما حكم الله عز وجل فيما تساوتْ فيه الاجتهادات؟ النّبيّ صلى الله عليه وسلم أوضح لنا هذه القضيّة في قوله: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»(١)، فهل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمَنْ فعل

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدينِهِ، الحديث رقم (٥٢).

الشّبهات، أم: فمَنْ ترك الشّبهات؟ فمَنْ وقع في الشّبهات لم يستبرىء، لا لدينه ولا لِعِرْضه، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول: وما علاقة العِرْض بهذه المسألة؟ نقول: والله حتّى غير المؤمن بدين يستنكف أن يُقال عنه: إنّه مُرابٍ عِرْضه، لذلك؛ فالمكّارون الّذين يريدون أن يعيشوا على دماء النّاس لا يدرون أنّ النّفعيّة هي القانون الّذي يحكم الله سُبحانه وتعالى به خَلْقه، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها، لذلك يقول اليهود: كيف تُحرِّمون الرّبا والله يعاملكم به؟ الجواب: نعم، الحقّ سُبحانه وتعالى يعاملنا بالرّبا، ويعطينا بالزّيادة؛ لأنّ هذه الزّيادة لا تُنقِص ممّا عنده جلّ جلاله، أمّا الزّيادة من النّاس ومن المحتاجين فإنّها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة، ثمّ دَعْنا من هذا كلّه، ولنتأمّل في المحيط الّذي نعيش فيه، ففي كلّ بلد أناس يحبّون الرّبا ويتعاملون به، أرأيتم مرابياً مات بخير؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة؟ لا، لأنّ الله سُبحانه وتعالى لم يكن ليقول: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٦]، ثمّ يترك مرابياً ينمو ماله، ويسلم له إلى أنْ يموت، فإن اغتنى لحين، فإنّما غِنَاه كيد فيه، ومبالغة في إيذائه، كما جاء في الأثر: "إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام، فإن اشتدّ غضبه عليه بارك له فيه"، ولنقرأ قول الله سُبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام]، وسبق أن أوضحنا الفرق بين: (فتحنا لهم) و(فتحنا عليهم): (لهم)؛ أي: لمصلحتهم بالخير، أمّا: (عليهم) فيعني كيداً لهم وتحدّياً وإهلاكاً.

(الآية ٤٠) - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾: سبق أنْ قلنا: إنّ قضيّة الخَلْق مُسلَّم بها؛ لأنّها قضيّة لم يدَّعها أحد لنفسه مع كثرة المتبجّحين بالكفر والإلحاد؛ لذلك لمّا ادَّعاها النّمرود الّذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربّه عز وجل، فقال: أنا أحيي وأميت، فعلم إبراهيم عليه السلام أنّه يريد اللّجاج والسّفسطة الّتي لا طائل منها، وإلّا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء؟ ثمّ ما بال الّذين خُلِقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك؟ فأنت لم تخلق ولم تُحي أحداً، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين القتل والموت مع أنّهما يشتركان في إنهاء الحياة وإزهاق الرّوح، لكنّ الموت يكون بإزهاق الرّوح أوّلاً، يتبعه نَقْض البُنيَة وتحطّم الجسم، أمّا القتل فينقض البُنيَة أوّلاً نَقْضاً يترتّب عليه إزهاق الرّوح، فالرّوح لا تُقيم إلّا في بُنيَة سليمة، كذلك مسألة الرّزق فهي مُسلَّمة لله سبحانه وتعالى لم يدَّعِها أحد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، بدليل أنّ الله سبحانه وتعالى جعل بعض المناطق جدباء، يجوع فيها القادر والعاجز، ويجوع فيها ذو المال وغيره، ولو كان هناك رازق غير الله عز وجل فَلْيرزق هذه المناطق الجدباء.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: ولم يقل: يقتلكم.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾: أي: اسألهم هذا السّؤال، ودَعْهم يجيبون عليه: أتستطيع الأصنام الّتي تشركونها مع الله عز وجل أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرّزق أو الإحياء أو الإماتة؟ أفي قدرتها شيء من ذلك،

وأنتم الّذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم، وتُصوِّرونها كما تشاؤون، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها، وربّما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها؟ فأين عقولكم؟ وما هذه الخيبة الّتي أصابتكم؟ لذلك يقول سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾ [النّحل]، ويقول جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحجّ: من الآية ٧٣]، بل وأكثر من ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحجّ: من الآية ٧٣].

ونلحظ في الآية تكرار (مِنْ) وهي للتّبعيض: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾، والمعنى: لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيّناً من الخلق، أو الرّزق، أو الإحياء، أو الإماتة، لذلك يجب أنْ تُعلّقوا على هذه القضايا من الله عز وجل بقول واحد:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: لا تعليق إلّا هذا، لذلك لـمّا تكلّم سيّدنا إبراهيم عليه السلام عن الأصنام، قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٧]؛ أي: أنتم وما تعبدون من دون الله عز وجل؛ لأنّهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله جل جلاله، فالله سبحانه داخل في هذه الشّركة؛ لذلك استثنى ربّه جل جلاله: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٧- الآية ٧٨]، ونلحظ هنا في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٨] أنّه لم يؤكّدها بشيء، ولم يذكر قبل الخَلْق الضّمير (هو)؛ لأنّ مسألة الخَلْق كما قُلْنا: لم يدَّعها أحد، أمّا في الهداية، وهي مجال ادّعاء، فقال: ﴿فَهُوَ﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٨]؛ أي: يقصر الهداية على الله جل جلاله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٨]، وفي هذا إشارة إلى أنّ القانون الّذي يُنظِّم

حياتي والمنهج الّذي يهديني قانون ربّي لا آخذه من أحد سواه، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعي الهداية ويقول: إنّني وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة النّاس، ويفعل كذا وكذا، سمعنا هذه النّغمة مرّة من الرّأسماليّة، ومرّة من غيرها.. إلخ، فهذا مجال ادّعاء واسع، فقيَّده إبراهيم عليه السلام وقصره على الله جل جلاله، كذلك في مسألة الإطعام، قال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٩]، فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الّذي)، ثمّ الضّمير المفرد الغائب: (هو)؛ ليؤكّد أنّ الّذي يُطعمه إنّما هو الله جل جلاله؛ لأنّ الإنسان قد يظنّ أنّ أباه هو الّذي يُطعمه؛ لأنّه يُعطيه المال، أو أنّ أمّه هي الّتي تُطعمه؛ لأنّها تُعِدّ له طعامه، فهما السّببان الظّاهران في هذه المسألة، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكِّد، ثمّ يقول عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ [الشّعراء] هكذا دون توكيد؛ لأنّ الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله سبحانه وتعالى مفروغ منهما، وكذلك: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشّعراء]، وهذه أيضاً لا تكون إلّا لله سبحانه وتعالى، فما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكّدها ويخصُّها لله عز وجل، أمّا الأخرى الّتي لا دخْلَ لغير الله جل جلاله فيها فيسوقها مُطْلَقة دون اختصاص، فالتّعليق في هذا الأمر العجيب لا يكون إلّا بقولنا: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن الشّركة، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا أنّ الله سبحانه وتعالى قال: لا إله إلّا أنا، ولم يَقُمْ لهذه القضيّة منازع، ولم يدَّعها أحد لنفسه، فهي مُسلَّمٌ بها، فتعالى الله سبحانه وتعالى عن كلّ ما سواه. ونقول دائماً في حقّ النّظر والتّفكّر في حقّ الله سبحانه وتعالى: (كلّ ما خطر ببالك فالله غير ذلك)، دائماً نقول: سبحان الله وتعالى عمّا يُشركون، فالله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

(الآية ٤١) - ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾:

﴿ظَهَرَ﴾: بان ووضح، والظّهور: أن يُبيَّن شيء موجود بالفعل لكنّنا لا نراه، وما دام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ فلا بُدَّ أنّ الفساد كان موجوداً، لكنّ أصحابه عمُّوه وأخفوه، والفساد لا يظهر إنّما يظهر أثره، والكون خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هيئة الصّلاح، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً، وللتّأكّد من صِدْق هذه المسألة فلننظر في الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه، فلن نرى فساداً إلّا فيما تتناوله يد الإنسان، أمّا ما لا تتناوله يد الإنسان، فلا نرى فيه خللاً؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التّكوين: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]، فهل خلقنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخلق اختيارنا لنفسد في الكون؟ لا، إنّما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج، ويجعله قانوناً لحركتك بـ: (افعل) و(لا تفعل)، وما لم يقُل فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (افعل) أو (لا تفعل) فالإنسان حرٌّ فيه، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر في الكون، أمّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد قال: (افعل) في الّذي يحصل منه ضرر بعدم فعله، وقال: (لا تفعل) في الّذي يحصل ضرر من فعله، فالفساد يأتي حين تتدخّل يد الإنسان في شيء وحين نطرح قانون الله عَزَّ وَجَلَّ في (افعل) و(لا تفعل) جانباً، أمّا الصّلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصّلاح وغلبه بان للنّاس، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾؛ أي: غلب على قانون الصّلاح الّذي أقام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

عليه نظام هذا الكون، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧١]، فظواهر الكون أشياء وقضايا لكلّ العامّة، ومن الحكمة ألّا تنالها يد الإنسان؛ لأنّ الله ﷻ يريد للكون البقاء، ولم يأْتِ أوان انتهائه، لذلك يجعل الحقّ ﷻ فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين، إلى أن يصل إلى درجة التّشبُّع، فيعلو ويصيح الصّلاح والإصلاح في وجه الفساد والمفسدين، فقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ﴾ نتيجة لدعوته ﷺ؛ لأنّ كلمة: ﴿ظَهَرَ﴾ تدلّ على أنّ شيئاً وقع، فكأنّه يقول لنا: إنْ كرّرتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد، فهو يعطينا مُلخّصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ﷺ، ومقاطعته وعزله وإغراء السّفهاء منهم للتّحرّش به، ثمّ عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتّى لا يستقرّ لهم قرار بمكّة، ثمّ يوضّح الحقّ ﷻ سبب هذا الفساد:

﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾: فنلحظ هنا أنّ الحقّ ﷻ عندما يذكر الرّحمة لا يذكر عِلَّتها، لكن يذكر عِلَّة الفساد؛ لأنّ الرّحمة من الله ﷻ أوّلاً وأخيراً تفضُّل، أمّا الأخذ والعذاب فبعدله ﷻ؛ لذلك يُبيِّن لنا أنّنا فعلنا كذا، ونستحقّ كذا، فالعلَّة واضحة، فإن رأيت الفساد فاعلم أنّه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كلّ الحدود، وما دام الله ﷻ قال: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ فلا بُدّ أنّ الفساد جاء من ناحيتهم، وبالله هل اشتكينا أزمة في الهواء مثلاً؟ لكنّنا نشتكي من تلوّث الهواء بما كسبتْ أيدي النّاس، أمّا حين نذهب إلى أماكن خالية لا يوجد فيها بناء ولا مصانع.. إلخ، حيث لا يوجد الإنسان، نجد الهواء نقيّاً كما خلقه الله ﷯، والله ﷻ تكفّل لنا بالغذاء، فقال:

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصّلت: من الآية ١٠]، لكنّنا نشتكي أزمة طعام، لماذا؟ لأنّ الطّعام يحتاج إلى عمل، ونحن تكاسلنا، وأسأنا التّصرُّف في الكون، إمّا بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها، وإمّا بالأنانيّة حيث الاحتكار والغشّ، وإنّ في القرآن الكريم آية واحدة، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرّخاء والاستقرار والأمان، إنّها قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾ [الرّحمن]، فالأرض كلّ الأرض للأنام كلّ الأنام، لكنّ الواقع خلاف ذلك، فقد وضعوا للأرض حدوداً، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار، فاختلفت الأمور، فأصبح رزق هنا، وهناك لا يوجد رزق.. وكانت نتيجة ذلك أن يوجد في الكون رجال ازدحموا بلا أرض، وفي موضع آخر أرض بلا رجال، ولو حدث التّكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور.

﴿كَسَبَتۡ﴾: عندنا: (كسب) و(اكتسب)، الغالب أن تكون (كسب) للحسنة، واكتسب للسّيّئة؛ لأنّ الحسنة تأتي من المؤمن طبيعة دون تكلُّف أو افتعال، فدلَّ عليها بالفعل المجرّد (كسب)، أمّا السّيّئة، فعلى خلاف الطّبيعة، فتحتاج إلى تكلُّف وافتعال، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدّالّ على الافتعال: (اكتسب)، ومع ذلك نلحظ قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة]، فجعل السّيّئة كَسْباً لا اكتساباً، قال العلماء: لأنّ السّيّئة هنا صارت عادة عنده، وسهلت عليه حتّى صارت أمراً طبيعيّاً يفعله ولا يبالي، كالّذي يفعل الحسنة، وهذا النّوع -والعياذ بالله- أحبّ السّيّئة وعشقها، حتّى أصبح يتباهى بها ويُعلن بها، ولا يسترها، ويتبجّح بفعلها، وهذا نسمّيه فاقداً، فقد أصبح

الشّرّ والفساد حرفة له، فلا يتأثّر به، ولا يخجل منه، كالّذي يقبل الرّشْوة، ويفرح لاستقبالها، فإن سألته قال لك: ما المانع؟ فأنا لا أسرق النّاس.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾: الإذاقة هنا عقوبة، لكنّها عقوبة الإصلاح، كما تعاقب ولدك وتضرّ به حرصاً عليه، وسبق أن قلنا: إنّه لا ينبغي أن نفصل الحدث عن فاعله، فقد يعتدي ولد على ولدك، فيجرحه فتذهب به للطّبيب، فيجرحه جرحاً أبلغ، لكنّ هذا جرح المعتدي، وهذا جرح المداوي، وحين يُذيق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسانَ بعض ما قدَّمت يداه يوقظه من غفلته، ويُنبِّه فيه الفطرة الإيمانيّة، فيحتاط للأمر ولا يهمل ولا يقصّر، وتظلّ عنده هذه اليقظة الإيمانيّة بمقدار وَعْيه الإيمانيّ، فواحد يظلّ يقظاً شهراً، ثمّ يعود إلى ما كان عليه، وآخر يظلّ سنة، وآخر يظلّ عمره كلّه لا تنتابه غفلة، وقد أذاق اللهُ جَلَّجَلَالُهُ أهلَ مكّة عاقبة كفرهم حتّى جاعوا ولم يجدوا ما يأكلونه إلّا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾: لأنّ الكلام هنا في الدّنيا، وهي ليستْ دار جزاء، فالحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُذيقهم بعض أعمالهم ليلتفتوا إليه جَلَّجَلَالُهُ، ويتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإيمان؛ لأنّهم عبيده، وهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أرحم بهم من الوالدة بولدها.

والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ساعة يقول: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ﴾؛ أي: من المشركين على عهد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليُبيّن لنا أنّ الرّسل إنّما جاؤوا لإنقاذ البشريّة من هذا الفساد، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمر يدور مع العلّة وجوداً وعدماً، فكلّما ظهر الفساد حلَّتْ العقوبة، فخذوها في الكون آية من آيات الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى قيام السّاعة، فعندما ظهر الفساد قديماً كانت النّتيجة: ﴿ أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم

مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت]، لكنّ هذا الأخْذ كان قبل سيّدنا رسول الله ﷺ في الأمم السّابقة، فكان هلاك استئصال؛ لأنّ الرّسل السّابقين لم يُكلَّفوا بالمواجهة لأجل نَشْر دعوتهم، فما عليهم إلّا نشر الدّين وتبليغه، مع التّأييد بالمعجزات، فإنْ امتنع أقوامهم تولّى الله سبحانه وتعالى عقابهم، أمّا أمّة محمّد ﷺ فقد أكرمها الله جل جلاله بألّا يعاقبها بعذاب الاستئصال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال]، ثمّ سيظهر الفساد حديثاً، وسيحدث العقاب، فليست هذه الأمّة بِدعاً في هذه المسألة.

(الآية ٤٢) - ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ۝٤٢﴾:

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: السّير: الانتقال من حيّز مكانيّ إلى حيّز آخر، وسبق أنْ قلنا: إنّ النّظرة السّطحيّة في ظاهر الأمر أنّ السّير يكون على الأرض لا فيها؛ لأنّنا نسكن عليها لا فيها، لكنّ الله سبحانه وتعالى يُبصِّرنا بقوله: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّ الأرض ليست هي اليابسة والماء على سطحها، إنّما تشمل غلافها الجوّيّ، الّذي يدور معها، وهو إكسير الحياة فيها؛ فلا حياة لها إلّا به، فهواء الأرض من الأرض، وهو أهمّ الأقوات للأحياء عليها، فحين يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصّلت: من الآية ١٠]، فالهواء داخل فيها، لذلك قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾: فالسّير في الأرض يكون إمّا للسّياحة والتّأمّل في آيات الله عز وجل

في كونه، لذلك يستخدم فيها الفاء: ﴿فَٱنظُرُوا﴾، أو لطلب الرّزق، وفي آية أخرى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ [الأنعام: من الآية ١١]، والمعنى: سيروا في الأرض للاستثمار، وطلب القوت، وقضاء المصالح، لكن لا يفوتكم النّظر والتّأمّل في آيات الله ﷻ وفي مخلوقاته، لتأخذوا منها العبرة والعظة.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾: أي: الّذين ظهر الفساد بينهم، فأذاقهم الله سبحانه وتعالى الألم بما كسبتْ أيديهم، فهذه ليست عندك فقط في مكّة يا رسول الله، إنّما حدثتْ في الأمم السّابقة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧﴾ [الصّافّات]، فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة وغيرهم، ماذا حلَّ بهم بعد الحضارة والنّضارة، وبعد ما توصّلوا إليه من علم التّحنيط الّذي لم يعرف العلم أسراره حتّى الآن؟ إنّهم كانوا يضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشّعير، فتظلّ على حالها، بحيث إذا زُرِعت بعد آلاف السّنين تنبت، إنّها قدرة علميّة فائقة، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمي نفسها من الاندثار، وإذا كان القرآن الكريم قد قال عن الحضارة الفرعونيّة: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ [الفجر]، فقد قال عن إرم: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ [الفجر]، فأيُّ حضارة هذه؟ وأين هي الآن؟ طمرتها رمال الأحقاف، ودفنتها تحت أطباق الثّرى، ولا تعجب من ذلك، ففي هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة، فإنّها تغطّي قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض، فما بالنا بالعواصف منذ قرون طوال؛ لذلك نجد كلّ الآثار يتمّ التّنقيب عنها حَفْراً، فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمي نفسها من الزّوال، وهذا دليل على وجود قوّة أعلى منها تُزيلها وتَقضي عليها متى تشاء.

﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾: أي: أنّ القليل منهم لم يكُنْ مشركاً، قال العلماء: هذه القِلّة هي قلّة الإيمان، قال ﷻ: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: من الآية ١٣]، وكأنّ الله ﷻ يقول لنبيّه ﷺ في هذه المسألة بداية من: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: من الآية ٤١]، ثمّ إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك في دعوتك عليهم، كلّ ذلك إنّما يعني أنّني الفعّال لما أريد، ولن أتخلّى عنك يا محمّد، فإيّاك أن تركن إلى أحد منهم.

(الآية ٤٣) - ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾:

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾: يعني اطمئنّ يا محمّد، وتفرّغ لعبادة الله ﷻ؛ لأنّني وعدتُك بالنّصر، وأجبتُك حين قُلْتَ: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[1]، وقال ﷻ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧]، يعني: مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدّنيا نالته عقوبة الآخرة، وقال ﷻ: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾؛ لأنّ الوجه محلُّ التّكريم، وسيّد الكائن الإنسانيّ، وموضع العزّة فيه، بدليل أنّ السّجود والضّراعة لله ﷻ تكون بوضع هذا الوجه على الأرض؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلّفه أمراً يقضيه بيده، أو بلسانه، أو بأيّ جارحة من جوارحه تقول له: أرجو أنْ تُبيِّض وجهي؛ لأنّ الوجه هو السّيّد.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾: هو يوم القيامة.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الأذانِ، بابٌ: يَهْوِي بالتَّكْبيرِ حينَ يَسْجُدُ، الحديث رقم (٨٠٤).

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: المعنى: أنّ الله سبحانه وتعالى حين يأتي به لا يستطيع أحد أنْ يستردّه من الله جل جلاله، أو يأخذه من يده، أو يمنعه أنْ يأتي به، أو أنّه سبحانه وتعالى إذا قضى الأمر لا يعود ولا يرجع فيه، فكلمة: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ تعطينا المعنيين، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله عز وجل؟ قال العلماء: كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله سبحانه وتعالى أصلاً، وبناءً على أمره سبحانه وتعالى بالحفظ.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: أي: في اليوم الّذي لا مردَّ له من الله عز وجل.

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أي: هؤلاء الّذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك، وتعصَّبوا ضدّك: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: ينشقُّون بعضهم على بعض، ويتفرّقون، وقد وردت هذه المسألة في آيات كثيرة، والتّفريق إمّا إيمان وكفر؛ أي: أشقياء وسعداء، وإمّا أن يكون التّفريق في القوم الّذين عاندوا واتّبعوا أتباعهم على الشّرك، فيتبرأ كلّ منهم من الآخر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٦].

ثمّ قال الله سبحانه وتعالى ليبيّن لنا ذلك التّفريق في الآخرة بعلّته، وعِلَّته ما حدث في الدّنيا، فالله جل جلاله لا يظلم أحداً، فقال بعد ذلك:

(الآية ٤٤) - ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾:

بعد أن بيَّن الدّلائل الواضحة على واحديّته في الكون، وأحديّته في ذاته سبحانه وتعالى، وبيَّن الأدلّة الكونيّة بكُلِّ صورها برهاناً وحجّةً، وضرب أمثالاً

وتفصيلاً بعد ذلك قال: سأقول لكم: إنّكم أصبحتم مختارين؛ أي: خلقتُ فيكم الاختيار في التّكليف حتّى لا أقهر أحداً على الإيمان بي، وخَلْق الاختيار في التّكليف بعد القهر في غير التّكليف يدلُّ على أنّ الله ﷻ لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر، ولكنّه يريد أنْ يجذب النّاس بمحبوبيّتهم للواحد الأحد، وإلّا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكّن من الكفر، وتسير إلى الطّاعة مُرغَمة، كما قال ﷻ حكاية عن السّماء والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت: من الآية ١١]، وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار في النّاس، والله ﷻ حينما تكلّم عن هذه المسألة بوضوح قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، والإباء هنا ليس إباءَ تكبُّر على مراد الله ﷻ، إنّما وضعوا أنفسهم في الموضع الطّبيعيّ، فقالوا: لا لحمل الأمانة؛ لأنّنا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء، والإنسان كذلك ابن أغيار، فقد يحمل الأمانة، ويضمن أداءها في وقت التّحمّل، لكنّه لا يضمن نفسه عند الأداء، فالله ﷻ قال حكاية عن السّموات والأرض والجبال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]؛ لأنّهم يُقدِّرون مسؤوليّتها، أمّا الإنسان فقد تعرَّض لحملها، وقال: عندي عقل أفكّر به، وأختار بين البدائل، وسوف أؤدّي، فضمن وقت التّحمّل، لكنّه لا يضمن وقت الأداء، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢] ظلوماً لنفسه، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار، وما دام الإنسان ابن أغيار، فإنّه لا يثبت على حال؛ لذلك قلنا: إذا صعد

الإنسان الجبل إلى قمّته وهو ابن أغيار فليس أمامه إلّا أنْ ينزل، والعقلاء يخافون أنْ تتمّ لهم النّعمة؛ لأنّه ليس بعد التّمام إلّا النّقصان، كما قال الشّاعر:

إِذَا تَـمَّ شيء بَـدا نَقْصُـه ترقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيـلَ: تَـمّ

فإذا قلت: لماذا خلق الله عز وجل الاختيار في الإنسان، ولم يخلقه في الأجناس الّتي تخدمه من جماد ونبات وحيوان؟ نقول: كُنْ دقيقاً، وافهم أنّها أيضاً خُيّرت بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، فهذه الأجناس أيضاً خُيّرت، لكنّها اختارت اختياراً واحداً يكفيها كلّ الاختيارات، فقالت: نريد يا ربّ أنْ نكون مقهورين لكلّ ما تريد، ولمّا كنّا مختارين أعطانا الله سبحانه وتعالى هذه القضيّة: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: وكلمة (عَلَيْه) تُفيد الدَّيْن والوِزْر، و(له) تُفيد النّفع، فإذا جئنا بالمقابل نقول: (ومَنْ آمن فله إيمانه)، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار]، لكنّ القرآن الكريم لم يأْت بهذا المقابل، إنّما عَدَل إلى مسألة أخرى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ فلماذا؟ قال العلماء: لأنّ فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله جل جلاله فتؤمن به، فإذا ما أمرك تطيع، فعِلَّة الإيمان التّكليف؛ لذلك حين تبحث أيَّ تكليف إيّاك أنْ تنظر إلى عِلّته، فتقول: كلّفني بكذا لكذا، فعِلَّة التّكليف وحكمته عنده سبحانه وتعالى، فإذا قلنا مثلاً: حكمة الصّيام أنْ يشعر الغنيُّ ويذوق ألم الجوع فيعطف على الفقير، فهل يعني هذا أنّ الفقير المعدَم لا يصوم؟ فليست هذه حكمة الصّيام، والأصوب أنْ نقول: أصوم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أراد منّي أن أصوم، وحكمة الصّيام عنده هو جل جلاله، ومثّلنا لذلك -ولله سبحانه وتعالى

المثل الأعلى- حين يشكو الإنسان مرضاً أو ألماً يسأل عن الطّبيب الماهر والمتخصّص حتّى ينتهي إليه، وعندها تنتهي مهمّة عقله، يضع نفسه بين يديه يفحصه ويُشخِّص مرضه، ويكتب له الدّواء، فلا يعارضه في شيء، ولا يسأله لماذا كتب هذا الدّواء، فإذا سأله زائر مثلاً: لماذا تأخذ هذا الدّواء؟ لا يقول: لأنّ من خصائصه كذا، ومن تفاعلاته كذا، إنّما يقول: لأنّ الطّبيب وصفه لي، مع أنّ الطّبيب بشر قد يُخطِىء، وقد يكتب له دواءً، أو يعطيه حقنة تُرديه، ومع ذلك يُسلِّم له بما يراه مناسباً له، فإذا كنت لا تناقش الطّبيب وهو خطأ، فكيف تناقش الله عز وجل فيما فرضه عليك وتطلب علَّة لكلّ شيء؟ ولا يناقش في عِلَل الأشياء إلّا المساوي، فلا يناقش الطّبيبَ إلّا طبيبٌ مثله، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله سبحانه وتعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُسَاوٍ له جل جلاله، ولا مساوٍ لله سبحانه وتعالى. والله سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا عِلَّة الإيمان -لا الإيمان في ذاته- إنّما ما يترتّب عليه من طاعة أوامر هذا الإله، وعلى طاعة هذه الأوامر يترتّب صلاح الكون، بدليل أنّ الله سبحانه وتعالى يطلب من المؤمنين أنْ يُبلِّغوا الدّعوة، وأن يعملوا، وما شُهِر السّيف في الإسلام إلّا حماية لحرّيّة اختيار النّاس. وفي القرآن الكريم آية ينبغي أنْ نتنبّه لها، ونُعَرِّف غير المؤمنين بها، ليعلموا أنّ الإيمان إنّما يحمي مصلحة النّاس جميعاً بعمله الصّالح وبآثاره في المجتمع، إنّها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ [النّساء]، يعني: إنْ خطر ببالك أيّها المؤمن أن تكون لجانب المؤمن إذا ارتكب خطأ، فيجب أن تستغفر الله عز وجل من هذا؛ لأنّك يجب أن تكون إلى جانب الحقّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ [النّساء: من الآية ١٠٧]، ولو كان مؤمناً بالله ﷻ، لكنّه إن أخطأ يجب أن تكون إلى جانب الصّواب، ولهذه الآية قصّة مشهورة هي قصّة اليهوديّ زيد بن السّمين، وقد جاءه طعمة بن أبيريق –وكان مؤمناً– وقال: يا زيد خُذْ هذه الدّرع أمانة عندك، فقبله زيد، وإذا بالدّرع مسروق، قد سرقه ابن أبيريق من قتادة بن النّعمان، ووضعه في كيس من الدّقيق، فكان على الدّرع آثار الدّقيق، فلمّا بحث ابن النّعمان عن دِرْعه دلّه أثر الدّقيق على بيت ابن السّمين اليهوديّ فاتّهمه بسرقته، ثمّ جاؤوا به إلى النّبيّ ﷺ ليحكم في أمره، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيريق، وأنّه وضعه عنده على سبيل الأمانة، وعندها عَزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم، وأن يأخذها اليهود ذِلّة في حَقِّهم، وأخذ النّبيّ ﷺ يدير الأمر في رأسه، فإنْ حكم على المسلم أخذها اليهود حجّة، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة في الدّين، فنزلت الآية على قلب رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥﴾ [النّساء]، فقال: ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النّساء: من الآية ١٠٥]، لا بين المؤمنين فحسب، ومعنى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥﴾ [النّساء: من الآية ١٠٥]، بعض النّاس يقولون: لا تخاصم الخائن حتّى لا يضطهدك، وهذا معنى غير صحيح، إنّما المراد: لا تكُنْ خصيماً لمصلحته، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: من الآية ١٠٦] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين؛ لأنّ الله ﷻ في مبدأ الإصلاح لا يحبّ كلّ خوّان أثيم، ولو أنّ النّاس تنبّهوا إلى هذه القضيّة، لعرفوا أهمّيّة الإيمان، وكيف أنّ النّبيّ ﷺ قرّر الحقّ، وهو الحقّ من ربّه ﷻ، وكلّهم أمامه

سواء المؤمن وغير المؤمن، فدين الإسلام هو الدّين الحقّ، لذلك كان النّبيّ ﷺ دائماً يحكم بالحقّ والعدل بين النّاس جميعاً، وسبق أنْ قُلْنا: "إنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام جاءه رجل فعرف أنّه غير مسلم، فلمّا سأله قال: أنا مجوسيّ، فردَّ الباب في وجهه، فانصرف الرّجل، وإذا بإبراهيم عليه السلام يتلقّى الوحي من الله عز وجل: يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيّفه؛ لأنّه على غير دينك، وأنا قبلته طوال عمره في مُلْكي وهو كافر بي، فأسرع إبراهيم عليه السلام خلف الرّجل حتّى لحق به واسترضاه، فقال الرّجل: وماذا جرى لقد طردتني ونهرتني منذ قليل؟ فقال: إنّ ربّي عاتبني في أمرك، فقال الرّجل: إنَّ ربّاً يُعاتِب أنبياءه بشأن أعدائه لحقيقٌ أن يُعبَد، لا إله إلّا الله"، فنفهم من هذا أنّ العمل الصّالح هو مطلوب الإيمان، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئنّ أنّه إله حقّ، فلا يهمّ بعد ذلك أيّ شيء، فصلاح المجتمع وصلاح الفرد هو الأساس في حركة الحياة؛ لذلك لم يقل: (ومَنْ آمن فله إيمانه)، كأنّ المراد بالإيمان العمل: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ لأنّه لا يعمل صالحاً إلّا إذا كان مؤمناً، ويمهّد لنفسه طريق الدّخول إلى الجنّة.

ونلحظ هنا أنّ الآية تتحدّث عن صيغة المفرد: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ثمّ يتحوّل إلى صيغة الجمع: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، ولم يقُلْ: (فهو يمهد لنفسه)، فلماذا؟ قال العلماء: لأنّ الّذي يعمل الصّالح لا يعمله لذاته، إنّما له ولمجتمعه ولذرّيّته من بعده، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطّور: من الآية ٢١]، فساعةَ تكلّم عن الإيمان جاء بالمفرد، وساعةَ تكلّم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع، كما أنّ العمل الصّالح

يأتي من ذات الإنسان، ويستقبله هو من غيره، وكلمة: (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنّى وللجمع بنوعيه، وتحلّ محلَّ جميع الأسماء الموصولة، تقول: مَنْ جاءك فأكرمه، ومَنْ جاءتك فأكرمها، ومَنْ جاءاك فأكرمهما، ومَنْ جاؤوك فأكرمهم.. إلخ، كذلك في هذه الآية استعمل ﴿مَن﴾ للدّلالة على المفرد، وعلى الجمع، ولنتأمَّل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النّور: من الآية ٦١]، وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه؟ قالوا: نعم؛ لأنّ المؤمنين شيء واحد، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنّك سلَّمت على الجميع، وأيضاً إذا قُلْت لصاحبك: السّلام عليكم، يردُّ عليك: وعليكم السّلام، فكأنّك سلَّمْتَ على نفسك.

﴿يَمْهَدُونَ﴾: مأخوذة من المهْد، وهو فراش الطّفل، والطّفل لا يُمَهّده ولا يُسوّيه ويُهيّئه، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوِّي له مهده، ويفرشه ويُعدّه، فكأنّ الّذي يعمل الصّالح في الدّنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً في الآخرة، كما يحكي أبو منصور بن حازم عن أبي عبد الله بن الحسين، يقول: "العمل الصّالح يسبق صاحبه إلى الجنّة ليمهّد له فراشه، كما يمهّد الخادم لأحدكم فراشه".

(الآية ٤٥) - ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وذكر هنا الإيمان فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثمّ: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، حتّى لا يظنّ أحد أنّ العمل الصّالح ربّما يُغني عن الإيمان، وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة، يقولون: كيف أنّ

الرّجل الكافر الّذي يعمل الصّالحات لا يُجازى عليها؟ نقول له: يؤجر ويُجازى على عمله الصّالح لكن في الدّنيا؛ لأنّه لم يعمل لله ﷻ، بل عمل للشّهرة والصّيت، وقد أخذ منها تكريماً وشهرة وتخليداً لِذكْراه من النّاس، أمّا جزاء الآخرة فلِمَنْ عمل العمل لوجه الله ﷻ خالصاً، والقرآن الكريم يُنبّهنا إلى هذه المسألة، يقول: إيّاكم أنْ تُغشُّوا بمن يعمل الأعمال للدّنيا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان]، وجاء في الحديث الشّريف: «فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ»(1)، نعم بنيت مسجداً، لكن كتبت عليه: بناه فلان، وشرَّف الافتتاح فلان.. إلخ، فماذا تنتظر بعد ذلك، إنّ ربّك ﷻ يريد العمل الخالص لوجهه ﷻ، كما جاء في الحديث الشّريف: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(2)، فقوله ﷻ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدلّ على أنّ العمل الصّالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يُفيد صاحبه في الدّنيا، لكن لا يُفيده في الآخرة إلّا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ﷻ، ثمّ يربط الإيمان بالعمل الصّالح، حيث لا يُغني أحدهما عن الآخر.

﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي: تفضُّلاً من الله ﷻ، حتّى لا ينخدع أحد بعمله، ويظنّ أنّه نجا به، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء، يقولون: مرّة يقول القرآن الكريم: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، ومرّة يقول: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النّحل:

---

(1) صحيح مسلم: كتابُ الإمارةِ، بابُ مَنْ قاتلَ للرّياءِ والسُّمعَةِ استحقَّ النَّارَ، الحديث رقم (١٩٠٥).

(2) صحيح البخاريّ: كتابُ الزَّكاةِ، بابُ الصَّدقةِ باليمينِ، الحديث رقم (١٤٢٣).

من الآية ٣٢]؛ أي: أنّها حقّ لكم بما قدَّمتم من عمل، فهل الجنّة حقّ للمؤمنين أم فضل من الله جَلَّجَلَالُهُ؟ نقول: العمل الّذي يطلبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ؟ يعود على الإنسان، ولا يستفيد الله عَزَّوَجَلَّ منه بشيء؛ لأنّ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق، لذلك قال في الحديث القدسيّ: «وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلَامٌ وَعَذَابِي كَلَامٌ إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ»(١)، ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: من الآية ٩٦]، فالأعمال التّكليفيّة لخير الإنسان نفسه، وإنْ كانت في الظّاهر تقييداً لحرّيّته، فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله، فنأخذ على يديه، ونمنعه، ونقول له: تنبّه أنّنا منعناك من السّرقة وأنت واحد، ومنعنا النّاس جميعاً أنْ يسرقوا منك، فأنت المستفيد من منهج الله عَزَّوَجَلَّ، فلا

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ صفةِ القيامةِ والرّقائقِ والورعِ، باب ٤٨، الحديث رقم (٢٤٩٥).

تنظر إلى ما أخذه منك التّكليف، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التّكليف من غيرك، وما دام التّكليف كلّه في مصلحتك ولخيرك أنت، فإنْ أثابك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه بعد ذلك فهو فضل منه جَلَّ جَلَالُهُ عليك، كما تقول لولدك مثلاً: إنْ تفوّقتَ في الامتحان سأعطيك كذا وكذا، مع أنّه هو المستفيد من التّفوّق، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً منك، لذلك قال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ»[1]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النّور: من الآية ٢٥]، فجعله حقّاً عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الرّوم: من الآية ٤٧].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: نلحظ في الآية أنّها تتحدّث عن جزاء المؤمنين، فما مناسبة ذِكْر الكافرين هنا؟ قال العلماء: لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد أنْ يلفت نظر عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه، كأنّه يقول له: تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء، وكذلك الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يحبّ الكافرين؛ لأنّه يحبّ أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان؛ لأنّ الجميع عباده، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرحم بهم من الوالدة بولدها، وهم خِلْقته وصَنْعته، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حريص على عباده حتّى الكافر منهم، لذلك يفرح الله عَزَّ وَجَلَّ بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض، ويضرب لنا سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلاً لتوضيح هذه المسألة، فيقول: «وَاللهِ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحابَةِ، مسند أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الحديث رقم (٧٤٧٩).

لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ»[1]، فالله ﷻ لا يحبّ الكافرين؛ لأنّهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل؛ وما ذاك إلّا لأنّه ﷻ مُحِبٌّ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه.

(الآية ٤٦) - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله ﷻ على عباده، فإرسال الرّياح وحدها نعمة، وتبشيرها بالمطر نعمة، وإجراء الفُلْك نعمة، والابتغاء من فضل الله نعمة، ثمّ الشُّكْر على هذا كلّه نعمة أخرى.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: الآيات: جمع آية، وهي كما قلنا: الشّيء العجيب الّذي يجب أنْ يلفت الأنظار، وألّا يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن، وهنا يتكلّم الحقّ ﷻ عن الآيات الكونيّة:

﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾: كلمة: ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ جمع ريح، و﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ هنا بالمعنى العامّ: الهواء، وهو أنواع: هواء ساكن: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٣]، والهواء السّاكن يضايق الإنسان، حيث يُصعِّب عليه عمليّة التّنفّس، فيجلب الهواء لنفسه إمّا بيده أو بمروحة، لماذا؟ ليجدّد الأكسجين في الهواء المحيط به فيستطيع التّنفّس، والهواء يأتي مرّة ساخناً يلفح الوجوه، ومرّة نسيماً رطباً مُنعِشاً عليلاً، ويأتي عاصفاً مدمّراً.. إلخ، والله ﷻ -كما سبق أنْ بيّنّا- رتّب مقوّمات حياة الخليقة في الأرض على: الهواء، ثمّ الماء،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب التّوبةِ، بابٌ في الحضّ على التَّوبَةِ والفرحِ بها، الحديث رقم (٢٦٧٥).

ثمّ الطّعام على هذا التّرتيب، وحَسْب أهمّيّة هذه المقوّمات، فالهواء هو أهمّ مُقوِّم في حياة الكائن الحيّ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلّا لحظة بمقدار شهيق وزفير، ولو حُبس عنه لمات، ثمّ الماء يصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيّام، ثمّ الطّعام قد يصبر عليه إلى شهر، لذلك من حكمة الخالق ﷻ ألّا يُملِّك الهواء لأحد، ولو ملكه أحد وغضب على إنسان لمات قبل أنْ يرضى عنه، أمّا الماء فقليل أنْ يُملّكه للنّاس، أمّا الطّعام فكثيراً ما يُمَلَّك؛ لأنّ الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكِّنه أن يكتسبه، وإذا حُبِس الهواء أو سكن لا يتجدّد فيه الأكسجين فيتضايق الإنسان؛ لأنّ أنفاسه تُكتَم، أمّا إذا حدثت في المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضجّ: افتحوا النّوافذ، لماذا؟ ليتجدّد الهواء، فإرسال الرّياح في ذاتها نِعمَة، فإذا كان فيها برودة وشعرت بطراوتها فهي تُبشِّر بالمطر؛ لذلك كان العربيّ يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السّحابة الّتي ستمطره، فالتّبشير بالمطر نعمة أخرى، وهاتان النّعمتان إرسال الرّياح وإنزال المطر، لا دخلَ للإنسان فيهما.

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: أي: بالمطر.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾: هنا نسب الجريان إلى الفُلْك؛ لأنّ للإنسان يداً فيها وعملاً، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله ﷻ، أمّا الآية الّتي لا دخلَ للإنسان فيها فتُنسَب إلى الله ﷻ وحده.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: تسيرون في البحر للصّيد وطلب الرّزق، أو حتّى للنّزهة والسّياحة.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: وهذه هي النّعمة الخامسة، وهي كنز النّعم كلّها

وعقالها، فإنْ شكرتَ لله عَزَّوَجَلَّ نِعَمه عليك زادك منها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧].

وبعد ذلك يُسلِّي الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول:

(الآية ٤٧) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: يعني: يا محمّد، إنْ كنتَ تعبت في الدّعوة، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً، فنحن مع ذلك نصرناك، وخُذْ لك أسوة في إخوانك من الرّسل السّابقين، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرّضتَ له، فهل أسلمنا رسولاً من رسلنا لأعدائه؟ الجواب: لا، فاطمئنّ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً.

﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي: الآيات الواضحات الّتي تُثبِت صدقهم في البلاغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذّبوا.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾: وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السّياق، فلم يقُل القرآن الكريم: (إنّهم كذّبوا)، إنّما جاء بعاقبة التّكذيب: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾، وهذا الإيجاز واضح في قصّة هدهد سليمان، في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النّمل]، ثمّ أتبعها مباشرة: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النّمل]، وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السّياق، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم.

وتكذيب الأمم السّابقة للآيات الّتي جاءتهم على أيدي الرّسل دليل على أنّهم أهل فساد، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد، فشيء طبيعيّ أنْ

يعاندوا الرّسل الّذين جاؤوا للقضاء على هذا الفساد، وأنْ يضطهدوهم، فيغار الله سبحانه وتعالى على رسله، وينتقم من الّذين أجرموا، ثمّ يقرّر هذه القضيّة:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وما كان الله سبحانه وتعالى ليرسل رسولاً، ثمّ يُسلِمه لأعدائه، أو يتخلّى عنه؛ لذلك قال جلّ جلاله في موضع آخر: ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصّافّات]، فنصر المؤمنين حَقٌّ على الله عزّ وجلّ، أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه، فهو تفضُّل منه جلّ جلاله، كما يتفضّل الموصِي بماله على الموصَى له.

(الآية ٤٨) - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)﴾:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾: الحقّ سبحانه وتعالى يعطينا هنا مذكّرة تفصيليّة لعمليّة حركة الرّياح، وسَوْق السّحاب، وإنزال المطر، وكلمة: (الرّياح) إذا جُمعَتْ دلَّتْ على الخير، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]؛ أي: تُلقِح النّباتات فتأخذ من الذّكر، وتضع في الأنثى، فيحدث الإثمار، ومن عجيب هذه العمليّة أن نرى الذّكر والأنثى في العود الواحد، كما في نبات الذّرة مثلاً، ولذلك نلحظ أنّ العيدان الّتي في مهبِّ الرّيح أقلّ محصولاً من الّتي تليها، لماذا؟ لأنّ الرّياح تحمل حبّات لقاحها إلى العيدان الأخرى الّتي تليها، فيزداد محصولها، فإذا كانت بعض النّباتات نعرف فيها الذّكر من الأنثى كالنّخيل، فأين الذّكر والأنثى في القمح، أو في الموز؟ لا نعرفها، ولمّا

درسوا حبوب اللّقاح هذه وجدوا أنّ كلّ حبّة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة تتناثر مع الرّياح، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة؛ لذلك نرى الجبال والصّحراء تخضرّ بعد نزول المطر، فمَنْ بذر فيها هذه البذور؟ إنّها الرّياح اللّواقح بقدرة الخالق ﷻ.

ولنا وَقْفة عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٣]؛ أي: السّفن الّتي تسير بقوّة الرّياح تظلّ راكدة على صفحة الماء لا يحرّكها شيء، فإنْ قُلْت: كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدّم العلم الّذي سيَّر السّفن بقوّة البخار والدّيزل أو الكهرباء، واستغنى عن الرّياح؟ نقول: الرّياح من معانيها الهواء، وهي أيضاً تعني القوّة مطلقاً، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٦]؛ أي: قوّتكم، فالرّيح تعني القوّة على أيّ وضع، سواء أسارتْ بالرّياح أم بالآلة، فهو سبحانه وتعالى قادر على أنْ يُسكنها، لذلك نجد أنّ الرّياح بمعنى القوّة لها قوّة آنيّة، وقوّة آتية، آنيّة يعني الآن، وآتية تأتي فيما بعد، وكذلك كلّ إنسان وكلّ شيء في الكون له نَفَس وريح خاصّة به تميّزه عن غيره، وكما نعرف هذه مهمّة الكلاب المدرّبة الّتي تشمّ رائحة المتّهمين والمجرمين في قضايا المخدّرات مثلاً، فالشّخص له رائحة الآن وهو موجود، وله رائحة تظلّ في المكان حتّى بعد أنْ يفارقه، لذلك يُعلِّمنا القرآن الكريم أنّ الرّيح هو أثبت الآثار في الإنسان، ولنقرأ في ذلك قوله سبحانه وتعالى عن يوسف ويعقوب عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: من الآية ٩٣]، وكان يوسف عليه السلام في مصر، ويعقوب عليه السلام في أرض فلسطين، فلمّا فصلت العير بقميص يوسف عليه السلام،

وخرج من نطاق المباني الّتي ربّما حجزتْ الرّياح، قال يعقوب ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: من الآية ٩٤] على بُعْد ما بينهما من المسافات، وإذا أُفردت الرّياح دلَّتْ على الشّرّ، ومعنى الرّياح أن تأتي ريح من هنا وريح من هنا.. فتأتيك بالأكسجين أينما كان، وتحمل إليك عبير العطور في الكون، فهي تأتيك بالفائدة، وقلنا: إنّ الأشياء الثّابتة اكتسبتْ الثّبات من وجود الهواء في كُلِّ نواحيها وجهاتها، ولو فرّغْنا الهواء من ناحية من نواحي أحد الأبنية لانهار في الحال، كذلك الرّيح إنْ جاءت مفردة فهي مدمّرة، وفيها العطب كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذّاريات]، وقوله جل جلاله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقّة: من الآية ٦]، فقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾، فإرسال الرّياح في ذاته نعمة.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: تثير السّحاب؛ أي: تهيّجه وتحرّكه، وهذه نعمة أخرى، والسّحاب عبارة عن الماء المتبخِّر من الأرض، وتجمُّع بعضه على بعض في طبقات الجوّ، وماء المطر ماء مُقطَّر بقدرة الله عز وجل، كما نُجري نحن عمليّة التّقطير في المعامل مثلاً، فيأتينا المطر بالماء العَذْب النّقيّ الزّلال الّذي قطّرته لنا العناية الإلهيّة دون أنْ ندري، وإذا كان تقطير كوب واحد يحتاج إلى كلّ هذه العمليّات، وكلّ هذه التّكلفة، فما بالنا بماء المطر؟ وسبق أنْ قُلْنا: إنّ من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتّسع رقعة البَخْر ليكفي الرّبع الباقي، وضربنا لتوضيح ذلك مثلاً بكوب الماء حين نتركه على المنضدة مثلاً، وحين نسكبه في أرض الغرفة، ففي الحالة الأولى يظلّ الماء فترة طويلة؛ لأنّ البَخْر قليل، أمّا في الحالة الأخرى فإنّه سرعان ما يتبخّر.

﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾: لننظر إلى طلاقة المشيئة، فالمطر يصرّفه الله ﷻ كيف يشاء إلى الأماكن الّتي تحتاج إلى مطر، ومن العجيب أنّ الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربّما يرزقه من سحاب لا يمرّ على بلده، وانظر مثلاً إلى الفرات أو إلى النّيل، من أين يأتي ماؤه؟ وأين سقط المطر الّذي يروي أرض الفرات أو أرض النّيل من أوّله إلى آخره؟

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾: كسفاً: جمع كِسْفة، وهي القطعة.

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾: الودق؛ أي: المطر.

﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾: أي: من بين هذه السّحب.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾: والإصابة قد تكون مباشرة، فيهطل المطر عليهم مباشرة، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة، فينزل المطر في مكان، ويسقي مكاناً آخر، بل ويحمل إليه الخِصْب.

﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: لأنّ الرّياح حين تمرّ عليهم تُبشّرهم بالمطر، وحين ينزل المطر يُبشّرهم بالزّرع والنّماء والخِصْب والخير، كما قال ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، والاستبشار لنزول المطر يأتي على حسب الأحوال، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر، والاستبشار أبلغ، حيث يأتي المطر مفاجئاً: ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، أمّا إنْ جاء المطر في الأحوال العاديّة فإنّ الاستبشار به يكون أقلَّ.

(الآية ٤٩) - ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ٤٩﴾:

﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾: آيسين من نزول المطر، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مُزدوجة ومُضاعفة.

وللعلماء وقفة حول هذه الآية؛ لأنّها كرّرتْ كلمة (من قبل)، وبالتّأمّل نجد المعنى: من قبل أنْ ينزل عليهم، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين، فهنا قبلان، ولا بُدَّ أن نفهم أنّ هناك إرسالاً للرّياح الّتي تبشّر بالمطر، وهناك إنزال المطر، فلمّا ينزل المطر يكون هناك قبليّة له هي الإرسال، فقبل الإرسال كان عندهم يأس، وبعد الإرسال قالوا: ربّما لا تمطر، فهنا كم قبل؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال، فالمعنى: فهُمْ من قبله؛ أي: من قبل أن ينزل المطر، عندهم يأس.

(الآية ٥٠) - ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾:

كأنّ الحقّ ﷻ أراد أنْ يستدلَّ بالمُحَسِّ المنظور في الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة؛ لذلك يعلّل بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيي، والفعل المضارع يدلّ على التّجدّد والاستمرار وهذه عمليّة مُحَسَّة لنا، أمّا في إحياء الموتى فجاء بالاسم (محيي)، والاسم يُفيد ثبوت الصّفة؛ ليؤكّد إحياء الموتى، ومعلوم أنّ الموت لا يشكّ فيه أحد؛ لأنّه مُشَاهد لنا، أمّا البعث فهو محلُّ شكٍّ لدى بعض النّاس؛ لأنّه غيب، ومع ذلك يقول ﷻ عن الموت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾ [المؤمنون]، فيؤكّد هذه القضيّة مرّة بـ: (إنْ)، ومرّة بـ: (اللّام)، والموت شيء واقع لا ننكره، فلماذا كلّ هذا التّأكيد؟ الجواب: نعم هو واقع لا نشكّ فيه، لكنّه واقع مغفول

عنه، فكأنّ الغفلة عنه كالإنكار، ولو كنتم متأكّدين منه ما غفلتم عنه، فلمّا ذكر البعث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون]، فأكّدها بمؤكّد واحد، مع أنّه محلُّ شكٍّ، فكأنّه لـمّا قامت الأدلّة عليه كان ينبغي ألّا يشكّ فيه؛ لذلك لم يؤكِّده كما أكّد الموت، ولـمّا غفلنا عن الأدلّة كان واجباً أنْ يُؤكّد الموت، فأكّد الموت، ولم يؤكِّد البعث.

﴿فَانظُرْ﴾: نقول: هذا الأمر فيه نظر، يعني: محلّاً للبحث والتّقصّي لنصل إلى وجه الحقّ فيه، بترجيح بعض الأدلّة على بعض، فقوله ﷻ: ﴿فَانظُرْ﴾؛ أي: نظر اعتبار وتأمّل؛ لأنّنا نريد أن نقيس الغائب عنّا والّذي نريد أن نخبر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها، ففي الآية دليل جديد من أدلّة قدرة الحقّ ووحدانيّته، وهو دليل كونيّ نراه جميعاً، والحقّ ﷻ يُلوِّن الأدلّة ليلفت المخلوق إلى عظمة الخالق ليؤمن به إلهاً واحداً قاهراً قيّوماً مقتدراً، وهذه الأدلّة حجّة تُضيء العقل، وآيات في الكون تبرهن على الصِّدق، وأمثال يضربها للنّاس في الكون وفي أنفسهم، ووعد لمن آمن، ووعيد لمن خالف، وهنا أيضاً دليل كونيّ مشهود في الكون، فالّذي أحيا الأرض الميتة كما تشاهدون: ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ في الآخرة كما يخبركم، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدّالّ على ثبوت صفة الإحياء قبل أنْ يُحيي، كما نقول: فلان شاعر، فلم يكتسب هذه الصّفة؛ لأنّه قال شعراً، إنّما هو شاعر قبل أن يقول، كذلك الخالق ﷻ: (محيي) قبل أن يوجد منه الفعل، وقادر قبل أنْ يخلق مقدوراً له، وخالق قبل أنْ يخلق خَلْقاً، فبالصّفة فيه ﷻ خَلَق، ولكي نُقرِّب الشّبه بين إحياء الأرض بالنّبات وإحياء الموتى

يوم القيامة، نقول: لو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا هذا الهيكل الضّخم الّذي يزن إلى مئة كيلو أو يزيد، أصل تكوينه ميكروب لا يُرَى بالعين المجرّدة، فإذا مات الإنسان يبْلَى هذا الجسد ويتحلّل إلّا عظمة عَجْب الذَّنَب، فتبقى لا تتحلّل ولا تأكلها الأرض، لتكون هي البذرة الّتي تنبت الإنسان بقدرة الله ﷻ يوم القيامة؛ لذلك جاء في حديث إحياء الموتى يوم القيامة: «فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ»[1]، ففي هذه العظمة الصّغيرة صفات الإنسان وخصائصه كلّها، ومنها يعود كما كان قبل الموت، كما نرى حبّة السّمسم مثلاً، فهي مع صِغَرها إلّا أنّها تحمل خصائص هذا النّبات كلّها، فصِغَر الحجم دليل على القدرة، فإذا ما وضعت هذه الحبّة الصّغيرة في البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التّربة ومن الهواء وتنمو وتكبر، وهذا النّمو وهذا الكبر لا يعطي شخصيّة جديدة إنّما الشّخصيّة ثابتة، إنّما يعطي تكبيراً لها فحسب، وفي حضارتنا الحاليّة نجد أنّ من علامات التّقدّم العلميّ أنْ نُصغّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة، وانظر مثلاً إلى الرّاديو أوّل ما اخترعوه كان في حجم التّلفاز، أمّا الآن فهو في حجم علبة الكبريت، فالعظمة أن نضع كلّ الأجهزة في هذا الحجم الصّغير، أو نجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة، لذلك نرى الخالق سبحانه وتعالى خلق الشّيء الدّقيق المتناهي في الصِّغَر، بحيث لا يُدرَك بالعين المجرّدة، ومع ذلك يحتوي على خصائص الشّيء الكبير كلّها، وخلق من المخلوقات الضّخم الّذي لا نستطيع أن نحدَّه، فحينما ينمو

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ تفسيرِ القرآنِ، بابُ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [النّبأ]: زُمَراً، الحديث رقم (٤٩٣٥).

الشّيء لا يزداد خصائص جديدة، إنّما تكبُر عنده الخصائص نفسها والمشخَّصات الأصليّة فيه نفسها، وسبق أنْ قُلْنا: لو أنّ إنساناً يزن مثلاً مئة كيلو أصابه مرض -والعياذ بالله- أفقده نصف وزنه، نقول: أين ذهب هذا النّقص؟ الجواب: ذهب إلى فضلات نزلتْ منه؛ لأنّ الإنسان ينمو حينما يكون الدّاخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات، فإنْ تساوى يقف عند حَدّ معيّن لا يزيد ولا ينقص، فإذا سخّر الله ﷻ لهذا المريض طبيباً يداويه، فإنّه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطّبيعيّ مئة كيلو كما كان، فهل عاد إليه ما فقده في نقص الوزن، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتّكوين؟ الجواب: عاد إليه مثل الّذي فقده، فالشّخصيّة باقية لا تتغيّر مع النّقص أو الزّيادة، كذلك فالشّخصيّة أو الخصائص موجودة في هذا الميكروب الدّقيق أو في هذه الحبّة الصّغيرة، إلى أنْ تُوضع في بيئتها المناسبة، فتعطي الشّخصيّة نفسها، أو الخصائص نفسها لنوعها، وذكرنا سابقاً القدماء المصريّون الّذين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب، وحفظوها طوال آلاف السّنين، بحيث إذا وُضِعت الحبّة منها في التّربة المناسبة فإنّها تنبت، فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبّة بعد بضعة آلاف من السّنين، أيكون عزيزاً على الله ﷻ أنْ يستنبت بذرة الإنسان، ويُحيي الذّرّة الباقية منه في الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره ﷻ يوم القيامة؟! ثمّ إنّ الحبّة الواحدة الّتي يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها، أمّا بذرة الإنسان والذّرّة الباقية منه فتعطي شخصاً واحداً لا غير، أيصعب هذا على القدرة الإلهيّة، لذلك يحثّنا الحقّ ﷻ على التّأمّل في قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾

لا نظر عين، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط، وربّنا ﷻ ينعي علينا الغفلة في التّأمّل، فيقول ﷻ: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف]، ونسمّي الجدل لإظهار الحقائق: (مناظرة)، يناظر كلٌّ مِنَّا الآخر، لا نظرَ عين، ولكن نظر عَقْل واستنباط.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: أي: الّذي أحياها، وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء، فإذا أخبرك بأنّه يُحيي الموتى، فصدِّق وخُذْ ممّا شاهدته دليلاً على ما غاب عنك.

ثمّ يختم الحقّ ﷻ هذه الآية بصفة أخرى تؤكّد صفة الخَلْق والإحياء:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: فغير أنّه ﷻ حيٌّ ومُحْيِ، له ﷻ صفات الكمال، والقدرة على كلّ شيء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضرّاً .. إلخ، فبعد أنْ ذكر الحدث في الفعل المضارع الدّالّ على الاستمرار ﴿يُحْىِ﴾، ذكر الاسم الدّالّ على ثبوت الصّفة: ﴿لَمُحْىِ﴾، ثمّ جاء بكلّ صفات الكمال في: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويريد الله ﷻ أن يبيّن أنّ الإنسان كنود، وأنّه خُلِق جزوعاً، إنْ مسَّه الشّرّ يجزع، وإنْ مسّه الخير يمنع، فلمّا كان يائساً من الهواء أن يهبّ عليه أرسل الله ﷻ إليه الرّياح، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله ﷻ عليه المطر مدراراً، فهل أخذ في باله هذا العطاء، بحيث إذا أصابه يأس من شيء طلب فرجه من الله ﷻ، وأزاح اليأس عن نفسه، وقال: إنّ لي ربّاً ألجأ إليه، ولا ينبغي لي أن أقنط وهو موجود؟ فالّذي فرّج عليك من يأس الرّياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرّج عنك كلّ كَرْب؛ لذلك ينبغي أن يكون شعار كلّ مؤمن: (لا كَرْبَ وأنت

ربٌّ)، ما دام لك ربٌّ فلا تهتمّ ولا تيأس، فليستْ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مشكلة، المشكلة ألّا يكون لك ربٌّ تلجأ إليه، وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب، أمّا الكافر فما أشقاه، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه، فيلجأ في كثير من الأحوال إلى الانتحار، لذلك كان سيّدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصّلاة، وكان يقول: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»[1]، ففي الصّلاة تختلي بربّك وخالقك، وتعرض عليه حاجتك، وتستمدّ منه العون والقوّة، كذلك يُعلِّمنا هذا الدّرس نبيّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحينما خرج ببني إسرائيل وأدركه فرعون وقومه، فوجدوا أنفسهم محاصرين، قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشّعراء: من الآية ٦١]، فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشّعراء: من الآية ٦٢].

(الآية ٥١) - ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾: لنا أن نلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية والآية السّابقة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، فيرسل: مضارع دالٌّ على الاستمرار، والرّياح -كما قلنا- لا تُستعمل إلّا في الخير، فكأنّ إرسال الرّياح أمر متوفّر، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتكرُّماً، أمّا هنا، وفي الحديث عن الرّيح، سبق أن قُلْنا: إنّها لا تستعمل إلّا في الشّرّ، فلم يقُلْ: (يرسل)، بل اختار: (إن)

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدبِ، بابٌ في صلاةِ العَتَمَةِ، الحديث رقم (٤٩٨٥).

الدّالّة على الشّكّ، والفعل الماضي الدّالّ على الانتهاء، لماذا؟ لأنّ ريح الشّرّ نادراً ما تحدث، ونادراً ما يُسلِّطها الله سبحانه وتعالى على عباده، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتي مرّة في السّنة، كذلك الرّيح العقيم جاءتْ في الماضي مرّة واحدة، كذلك الرّيح الصّرصر العاتية، فهي قليلة نادرة، ومع ذلك إنْ أصابت النّاس يجزعون وييأسون، وهذا لا ينبغي منهم، أليست لهم سابقة في عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرّياح، فأرسلها الله سبحانه وتعالى عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله جل جلاله لهم؟

﴿فَرَأَوۡهُ﴾: أي: رأوا الزّرع الّذي كان أخضر نضراً.

﴿مُصۡفَرّٗا﴾: أي: متغيّراً ذابلاً.

﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾: يكفرون باليأس الّذي يجعل الحقّ ضبابيّاً، مع أنّ الله سبحانه وتعالى عندما يئسوا سابقاً فرَّج عليهم؛ ذلك لأنّ الإنسان لا صبرَ له على البلاء، فإنْ أصابه سرعان ما يجزع، ولو قال: لي ربّ أفزع إليه فيرفع عنّي البلاء، وأنّ له حكمة، لاستراحَ ولهانَ عليه الأمر، ولنا أنْ نسأل: لماذا قال القرآن الكريم: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، ولم يقُلْ: (وإن)؟ قالوا: هذه اللّام الزّائدة -ولا يوجد حرف زائد في القرآن الكريم- يُسمُّونها اللّام الموطّئة للقَسَم، فتقدير الكلام: والله لئن أرسلنا، فالواو هنا واو القَسَم، واللّام مُوطِّئة له، وللحقّ سبحانه وتعالى أن يُقسِم بما يشاء على ما يشاء، وكلّ قَسَم يحتاج إلى جواب، كذلك الشّرط في: (إن) يحتاج إلى جواب للشّرط، والحقّ سبحانه وتعالى هنا مزج بين القسَم والشّرط في جملة واحدة، فإنْ قلنا: فالجواب هنا للقَسَم أم للشّرط؟ قال العلماء: فطنة العرب تأبى أنْ يوجد جوابان في جملة واحدة، فيأتي السّياق بجواب واحد نستغني به عن الجواب الآخر، والجواب يكون لما

تقدَّم، فإنْ تقدّم القَسَم فالجواب للقَسَم، وإنْ تقدَّم الشّرط فالجواب للشّرط، وهنا: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ قدّم القَسَم؛ لأنّ التّقدير: والله لئن أرسلنا ريحاً.

﴿لَّظَلُّواْ﴾: مأخوذة من الظّلّ، وظلّ فعل مَاضٍ ناقص، مثل: بات، يعني في البيتوتة، وأضحى، يعني: استمرّ في وقت الضّحى، وأمسى في وقت المساء، كذلك ظلَّ؛ أي: استمرّ في الوقت الّذي فيه ظِلٌّ، يعني: طوال النّهار، فنأخذ الزّمن من المشتقّ منه.

(الآية ٥٢) - ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢﴾:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: يريد الحقّ سبحانه وتعالى أن يُسلّي رسوله ﷺ حتّى لا يألم لما يُلَاقيه من قومه، يقول له: يا محمّد لا تُتعِب نفسك؛ لأنّ هؤلاء لن يؤمنوا، وما عليك إلّا البلاغ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد في سبيلها والجهر بها؛ لأنّني أرسلتك لمهمّة، ولن أتخلّى عنك، وما كان الله سبحانه وتعالى ليرسل رسولاً ثمّ يخذله، وقد قال سبحانه وتعالى لنبيّه ﷺ: ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعلهم مؤمنين قَسراً: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشّعراء]، إنّما أراد الله سبحانه وتعالى من البشر أنْ يأتوا طواعية لا عن قهر؛ لأنّه لا يريد قوالبَ تخضع، إنّما قلوباً تخشع، ويستطيع أيُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ النّاس تَخضع له أو تَسجد، لكنّه لا يستطيع مهما أُوتِي من قوّة أنْ يُخْضِع قلوبهم، أو يحملهم على حُبِّه، وهنا يقول سبحانه وتعالى لنبيّه ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ

﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، فجعلهم في حكم الأموات، وهم أحياء يُرْزَقون، لماذا؟ لأنّ الّذي لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثّر به، هو والميّت سواء.

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾: الصُّمّ جمع أصمّ: وهو الأطرش، فكأنّه صمّ أُذُنيه عن سماع كلمة الحقّ، فلن تستطيع يا محمّد أن تُسمع الصُّمّ الدّعاء إذا ولّوا مدبرين، مهما حاولت معهم؛ لأنّهم صمّوا آذانهم عن قبول الحقّ، بل نفروا من السّماع، وتناهوا عنه، كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت]، ونَهْي بعضهم بعضاً عن سماع القرآن الكريم دليل على أنّهم يعلمون أنّ مَنْ يسمع القرآن الكريم بأذن واعية لا بُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع، قال سبحانه وتعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: من الآية ١٨]، وقد علمنا من وظائف الأعضاء أنّ البُكم يأتي نتيجة الصّمم؛ لأنّ اللّسان يحكي ما سمعته الأُذُن، فإذا كانت الأُذُن صمّاء فلا بُدَّ أن يكون اللّسان أبكمَ، ليس لديه شيء يحكيه، لذلك نجد الطّفل العربيّ مثلاً حين ينشأ في بيئة إنجليزيّة يتكلّم الإنجليزيّة؛ لأنّه سمعها وتعلّمها، بل نجد صاحب اللّغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها، لماذا؟ لأنّه لم يسمعها، والأُذُن هي أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرّسالة، وما دام الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم بأنّهم في حكم الأموات، فالإحساس لديهم ممتنع، فالأُذُن لا تسمع آيات القرآن الكريم، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأمّلها، لذلك قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: من الآية ٤٦]، وكلمة: أعمى نقولها للمبصر، صحيح العينين حينما يُخطىء في شيء، فتقول له: أنت أعمى؟! لماذا؛ لأنّه وإنْ كان

صحيح العينين، إلّا أنّه لم يستعملهما في مهمّتهما، فهو والأعمى سواء. وهؤلاءِ القوم وصفهم الله ﷻ بأنّهم أوّلاً في حكم الأموات، ثمّ هم مُصابون بالصّمم، فلا يسمعون البلاغ، وتكتمل الصّورة بأنّهم عُمْي لا يروْنَ آيات الإعجاز في الكون، وليتهم صُمٌّ فحسب، فالأصمّ يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مُقبِلاً عليك، لكن ما الحال إذا كان مُدبِراً، كما قال ﷻ: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾، يعني: أعطوْكَ ظهورهم؟ فلم يَعُدْ لهم منفذ للتّلقّي ولا للإدراك، فهم صُمّ بُكْم، وبالإدبار تعطّلت أيضاً حاسّة البصر، فلا أملَ في مثل هؤلاء، ولا سبيل إلى هدايتهم.

(الآية ٥٣) - ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ﴾: الدّلالة على الطّريق والهداية إليه لا تتأتّى مع العمى، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه، ونقول لمن يُكابر في العمى: (فلان لا يُعطي العمى حَقّه)، يعني: يأنف أنْ يستعين بالمبصر، ولو استعان بالنّاس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار مُبصراً ببصرهم.

﴿إِن تُسْمِعُ﴾: أي: ما تُسمِع.

﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة، الّذين يلتفتون إلى كون الله ﷻ، يتأمّلون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة، فيستدلّون بالخَلْق على الخالق، وبالكون على المكوِّن ﷻ، ولِمَ لا، ونحن نعرف مَنِ اخترع أبسط الأشياء في حياتنا ونُؤرّخ له، ونُخلِّد ذكراه،

ألسنا نعرف أديسون الّذي اخترع المصباح الكهربائيّ، والله عَزَّوَجَلَّ الّذي خلق الشّمس لَهُوَ أَوْلَى بالمعرفة، فإذا جاءك رسولٌ من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخبرك بوجوده، ويحلّ لك لغز هذا الوجود الّذي تحتار فيه، فعليك أنْ تُصدِّقه، وأن تؤمن بما جاءك به؛ لذلك الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعلِّم الرّسل أنْ يقولوا للنّاس في أعقاب البلاغ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٠٩].

﴿يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: يعني: ينظر فيها ويتأمّلها، ويقف على ما في الكون من عجائب الخَلْق الدّالّة على قدرة الخالق عَزَّوَجَلَّ، فإذا ما جاءه رسولٌ من عند الله جَلَّجَلَالُهُ أقبل عليه وآمن به؛ لذلك قال بعدها: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

(الآية ٥٤) - ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾:

الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلّة في الكون من حولنا، يقول لنا: ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْفِ الآيات في الكون من حولنا، فلننظر في آيات أنفسنا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات]، وجمع بين النّوعين في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣]، فهنا يقول: تأمّل في نفسك أنت.

﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾: فإنْ قال الإنسان المكلّف الآن: أنا لم أُشاهِد مرحلة الضّعف الّتي خُلِقْتُ منها، نقول له: نعم لم تشاهدها في نفسك، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة، لكن شاهدتها في غيرك، شاهدتها

في الماء المهين الّذي يتكوَّن منه الجنين، وفي الأمّ الحامل، وفي المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً، ليس له قَدَم تسعى، ولا يَدٌ تبطش، ولا سِنٌّ تقطع، ومع ذلك رُبّي بعناية الله عَزَّ وَجَلَّ حتّى صار إلى مرحلة القوّة الّتي أنت فيها الآن، فدليل الضّعف مشهود لكلّ إنسان، لا في ذاته، لكن في غيره، وفي مشاهداته كلّ يوم، وكلٌّ منّا شاهد مئات الأطفال في مراحل النّمو المختلفة، فالطّفل يُولَد لا حولَ له ولا قوّة، ثمّ يأخذ في النّمو والكِبَر فيستطيع الجلوس، ثمّ الحَبْو، ثمّ المشي، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرّشْد والفتوّة، وعندها يُكلّفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾: أي: قوّة الشّباب وفتوّته.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾: أي: ضعف الشّيخوخة، وهذا الضّعف يسري في كلّ الأعضاء، حتّى في الذّاكرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، ويظلّ هذا الضّعف بالإنسان حتّى يصير إلى مثل الطّفل في كلّ شيء، يحتاج إلى مَنْ يحمله ويخدمه، فبعد أنْ كان الإنسان ضعيفاً يُقوّيه الله جَلَّ جَلَالُهُ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القادر على أنْ يُعيده إلى الضّعف، بحيث لا تستطيع عقاقير الدّنيا أنْ تُعيده إلى القوّة؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممّن يتناولون (الفيتامينات) في سِنِّ الشّيخوخة، ويقول: يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره، لذلك تلحظ الدّقّة في الأداء في قول سيّدنا زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [مريم: من الآية ٤]؛ لأنّ العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن

حاجة الجسم من الطّاقة، ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: من الآية ٤]، فبياض الشّعر ليس لوناً، إنّما البياض انعدام اللّون؛ لذلك فاللّون الأبيض ليس من ألوان الطّيف، ومع الشّيخوخة تضعف أجهزة الإنسان، وتضعف الغدد المسؤولة عن لون الشّعر، فيظهر الشّعر بلا لون، ونلحظ أنّ أغلب ما يشيب النّاس يشيبون ممّا يُعرف بـ: (السّالف)، لماذا؟ قالوا: لأنّ الشّعرة عبارة عن أنبوب دقيق، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب، وتدخله بعض المواد الكيمياويّة، مثل: الصّابون والكولونيا، فتؤثّر على الحويصلات الملوّنة وتقضي عليها، وقد رتّب سيّدنا زكريّا مظاهر الضّعف بحسب الأهمّيّة، فقال أوّلاً: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [مريم: من الآية ٤]، ثمّ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: من الآية ٤]، ومع كِبَر سيّدنا زكريّا عليه السلام وضعفه، ومع أنّ امرأته كانت عاقراً، إلّا أنّ الله سبحانه وتعالى استجاب له في طلبه للولد الّذي يرث عنه النّبوّة، فبشّره بولد وسمّاه يحيى.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾: أي: أنّ هذا الخَلْق ناشىء عن علم، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك].

(الآية ٥٥) - ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾:

بعد أنْ عرض الله سبحانه وتعالى الدّليل ليهتدي به مَنْ يشاء، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التّهديد:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾: معنى: ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ تدلّ على أنّها موجودة، لكنّها نائمة تنتظر الإذن لها، تنتظر أنْ

يقول الله ﷻ لها: ﴿كُن﴾ فتكون، فالقيام هنا له دلالته؛ لأنّ السّاعة أمر لا يتأتّى به القيام، إنّما يُقيمها الحقّ ﷻ، فقوله ﷻ: ﴿تَقُومُ﴾، كأنّها منضبطة كما نضبط المنبّه مثلاً، ولها وقت ننتظره، وهي من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ، وحين نتأمّل كلمة: ﴿تَقُومُ﴾، نجد أنّ القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدّي مهمّته، فيقابلها ما قبلها، فقبل القيام القعود، ثمّ الاضطجاع، ثمّ النّوم، فمعنى: (قيام السّاعة)؛ أي: أنّها جاءت لتؤدّي مهمّتها أداءً كاملاً، وسُمِّيَتْ السّاعة؛ لأنّها دالّة على الوقت الّذي يأذن الله ﷻ فيه بإنهاء العالم، وإنْ كانت السّاعة عندنا كوحدة لحساب الزّمن، نقول: صباحاً أو مساءً وَفْق التّوقيت كذا أو كذا، هذه الآلة الّتي في أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيّن، ليس مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدّة ثوانٍ أو عدّة دقائق، تعمل (بشكلٍ آليّ) أو بالحجارة، صُنِعتْ في سويسرا، أو في الصّين، هذه السّاعة لا تهمّ، المهمّ السّاعة الأخرى، السّاعة الّتي لا ساعة بعدها، ولنعلم أنّها منضبطة عند الله ﷻ، وما علينا إلّا أنْ نضبط أنفسنا عليها، ونعمل لها ألف حساب.

وعجيب أنْ يُقسِم الكفّار يوم القيامة: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، فإنْ كذّبوا في الدّنيا، فهل يَكذْبون أيضاً في الآخرة؟ قيل: بل يقولون ذلك على ظنّهم، وإلّا فالكلام منهم في هذا الوقت ليس اختياريّاً، فقد مضى وقت الاختيار، ولم يَعُدْ المجرم الآن قادراً على الكذب، لذلك سيقول الحقّ ﷻ في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾، فقد كانوا يقلبون الحقائق في الدّنيا، أمّا في الآخرة فلن يقلبوا الحقائق، إنّما يقولون على حَسْب نظرهم.

﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: المجرم هو الّذي خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه، فنقول: فلان أجرم، والقانون يُسمِّي الفعل جريمة.

﴿مَا لَبِثُواْ﴾: اللّبث: المكْث طويلاً؛ أي: في الدّنيا، أو: ما لبثوا في قبورهم بعد الموت إلى قيام السّاعة، أو: ما لبثوا بعد النّفخة الّتي تُميت إلى النّفخة الّتي تُحيي، فهذه فترات ثلاث للبثهم في القبور، أطولها للّذين ماتوا منذ آدم عليه السلام، ثمّ أوسطهم الّذين جاؤوا بعد ذلك أمثالنا، ثمّ أقلّهم لُبْثاً وهم الّذين يموتون بين النّفختين، وفي كلّ هذه الفترات يوجد كفّار، ففي عهد آدم عليه السلام كان هناك كفّار، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفّار، فكلمة لبثوا هنا على عمومها: أطول، وطويل، وقصيرة، وأقصر، وهؤلاء يقولون يوم القيامة: ما لبثنا غير ساعة، مع أنّ الآخرة لا كذبَ فيها، لكنّهم يقولون ذلك على حسب ظنّهم؛ لأنّ الغائب عن الزّمن لا يدري به، فالّذي مات لا يدري الزّمن، والزّمن ظرف لوقت الأحداث، كما أنّ المكان ظرف لمكانها، فالنّائم مثلاً لا يشعر بالزّمن؛ لأنّ الزّمن يُحسَب بتوالي الأحداث فيه، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتّالي لا تشعر بالوقت، سواء أكان بنوم، كأهل الكهف، أم بموت، كالّذي أماته الله عز وجل مئة عام ثمّ بعثه، فمثلاً لـمّا قام أصحاب الكهف من النّوم لم يُوقِّتوا إلّا على عادة النّاس في النّوم، فقالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف: من الآية ١٩]؛ لأنّه في هذه الحالة لا يدري النّائم بالزّمن، إنّما يدري بالزّمن الّذي يتتبّع الأحداث، وما دام الإنسان في هذه الحالة لا يدرك الزّمن، فهو صادق فيما يخبر به على ظنّه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: كهذا الكذب.

﴿كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾: الإفك: من أَفِك إفكاً؛ أي: صرف الشّيء عن وجهه؛ لذلك سُمِّي الكذب إفكاً؛ لأنّ الكاذب يخبر بقضيّة تخالف الواقع، فيأتي بها على غير وجهها، أو يُوجِدها وهي غير موجودة، أو يُنكِر وجودها.

(الآية ٥٦) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾: قال هنا: ﴿ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، فهل العِلم ينافي الإيمان؟ لا، لكن هناك فَرْق بينهما، فالعلم كسب، والإيمان أنت تؤمن بالله ﷻ وإنْ لم تَرَه، فشيء أنت تراه وتعلمه، وشيء يخبرك به غيرك بأنّه رآه، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان؛ لذلك دائماً يُقَال: الإيمان للأمور الغيبيّة عنك، أمّا حين يَقْوى إيمانك، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنّسبة إليك، وقد أوضحنا هذه المسألة في الكلام عن قوله ﷻ في خطابه لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل]، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ [الفيل: من الآية ١]، مع أنّ النّبيّ ﷺ وُلِد عام الفيل، ولم يتسَنّ له رؤية هذه الحادثة، قالوا: لأنّ إخبار الله ﷻ له أصدق من رؤيته بعينه، فقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ لأنّ العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلّة... إلخ، أو تأخذه ممّن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر، وقد سأل النّبيّ ﷺ أحد صحابته: «**كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟**»، قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، قَالَ: «**انْظُرْ مَا تَقُولُ، إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ**»، -يعني: ما مدلول هذه الكلمة الّتي قلتها؟-، قَالَ:

عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، -يريد أن يقول لرسول الله ﷺ: لقد أصبحتُ وكأنّي أرى ما أخبرتنا به-، فقال له النّبيّ ﷺ: «**يَا حَارِثَةُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ**»[1]، لكن، مَن هم الّذين أوتوا العلم؟ هم الملائكة الّذين عاصروا كلّ شيء؛ لأنّهم لا يموتون، أو: الأنبياء؛ لأنّ الّذي أرسلهم سبحانه وتعالى علّمهم، أو: المؤمنون؛ لأنّهم صدّقوا الرّسول فيما أخبر به.

وقال: ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، ولم يقل: (علموا)، كأنّ العلم ليس كَسْباً، إنّما إيتاء من عَالِم أعلم منك يُعطيك، فإنْ قُلتَ: أليس للعلماء دور في الاستدلال والنّظر في الأدلّة؟ نقول: نعم، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلّة؟ فالعلم عطاء من الله عز وجل.

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾: يعني: مسألة مرسومة ومنضبطة في اللّوح المحفوظ إلى يوم البعث.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾: الّذي كنتم تكذّبون به، أمّا الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدِّقوا فقد جاءكم شيء لا تقدرون على تكذيبه؛ لأنّه أصبح واقعاً، ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم، لكن لن يُقبَل منكم.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: في أوّل الآية قال: ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، فنسب العلم إلى الله عز وجل، أمّا هنا فنسبه إليهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى نصب لهم الأدلّة فلم يأخذوا منها شيئاً، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها، فلم يأخذوا من الدّلائل والحجج ما يُوصلهم إلى العلم.

---

(١) شعب الإيمان: باب العين، الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٧).

(الآية ٥٧) - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾:

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: أي: يوم قيام السّاعة.

﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾: أي: لا يُقبَل منهم عذر.

﴿ظَلَمُواْ﴾: أي: ظلموا أنفسهم، والظّالم يلجأ إلى الظّلم؛ لأنّه يريد أن يأخذ من غيره ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه، فالظّلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوّله إلى دم فيك، لكنّ دم الإنسان إنْ لم يكُنْ من عرَقه فهو دم فاسد عليه، ولا تأتي منه أبداً حركة إيجابيّة في الوجود، ولا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شرّ؛ لأنّه دم حرام، فكيف يتحرّك في سبيل الحلال؟ لذلك ورد في الحديث الشّريف أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»(١)، ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر، إنّما:

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: العتاب: حوار بلُطْف ودلال بين اثنين في أمر أغضب أحدهما، وكان من المظنون ألّا يكون، ويجب أن يعرض عليه ليصفّي

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزَّكَاةِ، بابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الكَسْبِ الطَّيِّبِ وتَرْبِيتِها، الحديث رقم (١٠١٥).

نفسه منه، ونقول: عتب فلان على فلان فأعتبه؛ أي: أزال عتابه؛ لذلك يقولون: ويبقى الودّ ما بقي العتاب، ومنه ما جاء في مناجاة النّبيّ ﷺ لربّه يوم الطّائف بعد أن لَقي منهم ما لَقِي، وأخذ يناجي ربّه ﷻ: «يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! إِلَى مَنْ تَكِلْنِي؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أمْرِي؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ ساخِطاً عَلَيَّ فَلَا أُبالِي غَيْرَ أنَّ عافِيَتَكَ أوْسَعُ لِي، أعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الكَرِيمِ الَّذِي أضاءَتْ له السّموات والأرْضُ وأشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ وصَلَحَ عليهِ أمْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ أنْ تُحِلَّ عَلَيَّ غَضَبَكَ أوْ تُنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطَكَ وَلَكَ العُتْبى حَتَّى تَرضى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ»(١)، يعني: يا رب إنْ كنتَ غضبتَ لشيء بدر منّي، فأنا أريد أن أزيل عتابك عليَّ، ومن همزة الإزالة قولنا: أعجمت الكلمة؛ أي: أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها، وأوضحت معناها، ومن ذلك نُسمِّي المعجم؛ لأنّه يُزيل خفاء الكلمات ويُبيّنها، ونقرأ في ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: من الآية ١٥]؛ أي: أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات.

وهذه الكلمة: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ وردتْ في القرآن الكريم ثلاث مرّات، ووردت مرّة واحدة مبنيّة للفاعل: (يَسْتعتبون)؛ لأنّهم طلبوا إزالة عتابهم، فلم يُزِلْه الله ﷻ، ولم يسمح لهم في إزالته، أمّا: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ فلأنّهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم، إنّما جعلوا لهم شفعاء يطلبون لهم، لكن خَاب ظنّهم في هذه وفي هذه، فالمعنى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ أي: لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم: استعتبوا ربّكم، واسألوه أنْ يزيل العتاب عنكم.

(١) الجامع الصّغير وزيادته: ج١، الحديث رقم (٣١٠٧).

(الآية ٥٨) - ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: هذه الآية تعني أنّنا لم نترك معذرة لأحد ممّن كفروا برسلهم؛ لأنّنا جئنا لهم بأمثال متعدّدة وألوان شتّى من الأدلّة المشاهدة ليستدلّوا بها على غير المشاهَد، ليأخذوا من مرائيهم وحواسّهم دليلاً على ما غاب عنهم، فحين يريد ﷻ أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المَثَلَ من واقع حياتهم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزّمر: من الآية ٢٩]، هل يستوي عبد لسيّد واحد مع عبد لعدّة أسياد يتجاذبونه، إنْ أرضى واحداً أسخط الآخرين؟ ثمّ يُقرِّب المسألة بمَثَلٍ من الأنفس، وليس شيء أقرب إلى الإنسان من نفسه، فيقول الحقّ ﷻ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّوم]، والمعنى: إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ﷻ، فتكونون في هذا الرّزق سواء، فكيف تقبلون الشّركة في حقّ الله ﷻ؟ والمَثَل يعني أنْ تُشبِّه شيئاً بشيء، وتلحق خفيّاً بجليّ، لتوضحه وليستقرّ في ذِهْن السّامع، كأن تشبّه شخصاً غير معروف بشخص معروف، ويُسَمَّى هذا: مِثْل أو مَثَل، نقول: فلان مِثْل فلان، أمّا المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة، وتناقله النّاس كلّما جاءت مناسبته، ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم، والشّجاع بعنترة .. إلخ،

والقرآن الكريم يسير على أسلوب العرب وطريقتهم في التّعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتّى يضرب المثل بالبعوضة، وبعضهم يأنف أنْ يضرب القرآن الكريم بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة، وهو لا يعلم أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، وليس معنى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]؛ أي: في الكِبَر كما يظنّ بعض النّاس، فيقولون: لماذا يقول: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، وهو من باب أَوْلى، لكنّ المراد ما فوقها في الصِّغَر.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾: أي: ليست القضيّة قضيّة آيات، ولا قضيّة أمثال، وإنّما مهما جئت بآيات تدلّل على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلن ينتفعوا بها.

﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾: فيتّهمون الرّسل في بلاغهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ بأنّهم أهل باطل، لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]، فالأمر لا يتعدّى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت في جدل لا يُجدي.

(الآية ٥٩) - ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾:

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: كتكذيبهم لكلّ آية تأتيهم بها.

﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: يختمها ويغلقها، فإنْ قلتم: فمن المصلحة أنْ تظلّ قلوبهم مفتوحة لعلّها تستقبل شيئاً من الهداية والنّور، نقول: الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلّا بعد استنفاد كلّ وسائل الدّعوة، فلم يستجيبوا فلا أملَ في هدايتهم ولا جدوى من سماعهم، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ [هود]، فإذا قلتَ: إذا كان الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وصفهم بأنّهم: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلماذا يختم على قلوبهم، ولماذا يحاسبهم؟ نقول: لأنّ عدم العلم نتيجة تقصيرهم، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقام لهم الأدلّة والآيات الكونيّة الدّالّة على وجوده جَلَّ جَلَالُهُ، فلم ينظروا في هذه الآيات، ولم يستدلّوا بالأدلّة على وجود الخالق القادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وضرورة البلاغ من الله عَزَّوَجَلَّ، فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم، لكن، ماذا بعد أنْ كذّبوا الرّسل، وأنكروا الآيات، أتتوقّف مسيرة الدّعوة؛ لأنّهم صَمُّوا آذانهم عنها؟ لقد خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكون ونثر فيه الآيات الّتي تدلّ على وجود الإله الواحد الأحد، وجعل فيه المعجزات الّتي تُثبت صِدْق الرُّسُل في البلاغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ينتفع بهذه الآيات؛ لأنّ مُلْكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يزيد بطاعتنا، ولا ينقص بمعاصينا، فالمسألة تعود إلينا نحن أوّلاً وآخراً.

(الآية ٦٠) - ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾:

﴿فَٱصْبِرْ﴾: اصبر على كرههم، واصبر على لَدَدهم وعنادهم، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك، اصبر على هذا كلّه؛ لأنّ العاقبة في مصلحتك.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: وقد وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسله بالنّصرة والغَلَبة، ووَعْد الله حقّ، فتأكّد يا محمّد أنّ النّصر آتٍ، لكن ما دام النّصر آتياً، فلماذا هذا الصّراع بين المؤمنين والكافرين؟ ولماذا كلّ هذه المشقّة والعناء في سبيل الدّعوة؟ قال العلماء: لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد أن يُمحِّص أتباع الأنبياء، وأتباع سيّدنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يُدرّبهم على مسؤوليّة حمل أمانة الدّعوة وشعلة

النّور من بعد رسول الله ﷺ، لا إلى أهل الجزيرة العربيّة وحدها، إنّما إلى الكون كلّه، فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثّبات على المبدأ الّذين لا تزعزعهم الشّدائد، والدّليل على ذلك أنّهم يُؤذَوْن ويُضطهدون فيصبرون، وهذه أهمّ صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة، وفي رحلة الدّعوة، رأينا الكثيرين يتساقطون بالرّدّة عندما تَحْدثُ لرسول الله ﷺ هزّة تهزُّ النّاس، وكأنّ الشّدّة غربال يميّز هؤلاء وهؤلاء، حتّى لا يبقى تحت راية لا إله إلّا الله إلّا الصّناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللّواء إلى العالم كلّه، فالله ﷻ يقول لنبيّه ﷺ: اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك، فنحن مُؤيّدوك، ولن نتخلّى عنك، وقد وضَح لك هذا التّأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم، وبيَّتوا لك في الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم، واستعانوا حتّى بالجنّ ليُفسِدوا عليك أمرك، ففضح الله ﷻ تدبيرهم ونجّاك منهم، فاطمئنّ، فنحن لهم بالمرصاد، ولن نُسْلِمك أبداً، بل وسوف نُريك فيهم ما يستحقّون من العقاب في الدّنيا، وتراه بعينك، أو في الآخرة بعد موتك: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧]، ومن هذا العقاب الّذي نزل بهم في الدّنيا ورآه سيّدنا رسول الله ﷺ ما حاق بهم يوم بدر.

والوعد: هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان، والوعد من الله ﷻ، فوَعْد الإنسان قد يتخلّف؛ لأنّه ابن أغيار، ولا يملك كلّ عناصر الوفاء بالوعد، وربّما جاء وقت الوفاء فلم يقدر عليه أو تتغيّر نفسه من ناحيته، أمّا الوعد الحقّ فمِنَ الّذي يملك كُلَّ أسباب الوفاء، ولا يمنعه عنه مانع.

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾: خفّ الشّيء: لم يَعُدْ له ثِقَل، واستخفّ غيره: طلب منه أنْ يكون خفيفاً، فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك: خفّ عنه، فالمعنى استخفّه: حمله على الخفّة، وأن يتحوّل عن الثّبات الّذي هو عليه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات]، ويروى أنّ الإمام عليّ رضي الله عنه كان يصلّي يوماً الفجر بالنّاس، فلمّا قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: من الآية ٧]، اقترب منه أحد الخوارج وقرأ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزّمر]، يريد أن يقول له: أنت كافر ولن يُقبل منك عملك، وسرعان ما فطن عليّ -كرّم الله وجهه- لما أراده الرّجل، فقرأ بعدها مباشرة: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾، يعني: لن تُخرِجني عن ثباتي وحِلْمي، والعظمة في هذا الموقف للإمام عليّ -كرّم الله وجهه- أن يردّ عليه لِتوّه بالقول الشّافي من كتاب الله عز وجل دون سابق إعداد أو ترتيب، ولم لا وهو الإمام عليّ رضي الله عنه الّذي أوتي باعاً طويلاً من البلاغة والفصاحة والحجّة والبيان.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾: من اليقين، وهو الإيمان الثّابت الّذي لا يتزعزع، فيصير عقيدة في القلب، لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (لقمان)

الآيات: (١-٣٤)

سورة لقمان

هي السّورة الواحدة والثّلاثون في ترتيب سور المصحف الشّريف، عدد آياتها أربع وثلاثون آية، نزلت بعد سورة الصّافّات، وقبل سورة سبأ، وهي سورة مكّيّة، غير آيتين كما قال قتادة، أو ثلاث آيات كما قال ابن عبّاس ﵄، سمّيت بسورة لقمان، لذكر وصايا لقمان فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾، إلى نهاية الوصايا لسيّدنا لقمان.

(الآية ١) - ﴿الٓمٓ ۝١﴾:

سبق أنْ فصَّلنا القول في الحروف المقطّعة في بدايات السّور، وذكرنا كلّ ما يمكن أن يقال عنها، وبعد هذا كلّه نقول: الله ﷻ أعلم بمراده؛ لأنّنا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف، وسيظلّ فيها من المعاني ما نعجز عن الوصول إليه، فإنْ قال قائل: فما فائدة هذه الحروف المقطّعة إنْ كانت غير معلومة المعنى؟ نقول: نحن نناقشكم بالعقل والمنطق، فالقرآن الكريم نزل بأسلوب عربيّ، وتحدّى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان وأصحاب التّعبير الجميل والأداء الرّائع، ونزل في قريش الّتي جمعتْ في لغتها لغات القبائل العربيّة كلّها، وقد خرج منها صناديد كذّبوا النّبيّ ﷺ، وكفروا بدعوته، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً: ما معنى ﴿الٓمٓ﴾ أو: ﴿حمٓ﴾، والله لو كان فيها مطعن ما تركوه، فهذا دليل على أنّهم فهموا هذه الحروف، وعرفوا أنّ لها معنى، أبسطها أن نقول: هي من حروف التّنبيه الّتي كان يستخدمها العرب في كلامهم، والوصْل سِمَة عامّة في القرآن الكريم

كلّه، لا يستثنى من ذلك إلّا الحروف المقطّعة في بدايات السّور، فهي قائمة على القطع، فلا نقول هنا: ألفٌ لامٌ ميمٌ، لكن نقول: ألفْ لامْ ميمْ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السّمة العامّة للقرآن الكريم كلّه؟ قالوا: ليدلّك على أنّ الألف أو اللّام أو الميم، لكلّ منها معناه المستقلّ، وليست مجرّد حروف كغيرها من حروف القرآن الكريم؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن الكريم في الوصل؛ لأنّ لها معنىً مستقلّاً تؤدّيه، ويفسّر هذا قول النّبيّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[(١)]، وقلنا: إنّ الأحرف المقطّعة هي نصف أحرف الأبجديّة، نجمعها في جملة واحدة هي: (نصّ حكيم له سرّ قاطع)، وأقلّ ما يُقال في الأحرف المقطّعة: إنّها تميّز فوق التّميّز في كتاب الله عزّ وجلّ، فاقرأ كلام الله عزّ وجلّ بسرّ الله جلّ جلاله فيه، وليس بفهمك لمعنى الحروف المقطّعة.

(الآية ٢) - ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾:

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للمؤنّث، وهي عبارة عن التّاء للإشارة، واللّام للبُعْد، سواء أكان في المكان أم في المكانة والمنزلة، ثمّ الكاف للخطاب، وتأتي بحسب المخاطب مذكّراً أو مؤنّثاً، مفرداً أو مثنّىً أو جمعاً، ومن ذلك قول امرأة العزيز في شأن يوسف عليه السلام: ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: من الآية ٣٢]، فـ (ذا) اسم إشارة ليوسف عليه السلام، و(اللّام) للبُعْد، و(كُنَّ) ضمير

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ فضائلِ القرآنِ، بابُ ما جاءَ فِيمَنْ قرأَ حرفاً مِنَ القرآنِ ما لهُ مِنَ الأجرِ، الحديث رقم (٢٩١٠).

لمخاطبة جمع المؤنّث، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خطاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: من الآية ٣٢]؛ أي: اليد والعصا، فـ (ذانِ) اسم إشارة للمثنّى، و(الكاف) للخطاب، والإشارة هنا: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ﴾ لمؤنّث وهي الآيات، والمخاطب سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمّته تبع له، والقرآن الكريم يشير مرّة إلى الآيات، ومرّة إلى الكتاب نفسه، فيقول: الكتاب أو الفرقان، أو القرآن، ولكلّ منها معنى، فالكتاب دلَّ على أنّه يُكتب وتحويه السّطور، والقرآن دلَّ على أنّه يُقرأ وتحويه الصّدور، أمّا الفرقان فهذه هي المهمّة الّتي يقوم بها: أنْ يفرّق بين الحقّ والباطل، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فوصفه بالحكمة، أمّا في أوّل سورة البقرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، فلم يُوصَف بالحكمة، إنّما نفى عنه أن يكون فيه ريب؛ أي: شكّ، وكلمة: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: من الآية ٢]، تؤكّد لنا صِدْق الرّسول في البلاغ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وصِدْق الملَك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الّذي حمله من اللّوح المحفوظ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد مدحه الله جَلَّ جَلَالُهُ بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التّكوير]، وقال عن سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن تبليغ القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقّة]، فالقرآن الكريم كما نزل من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد، وسيظلّ كذلك محفوظاً بحفظ الله عَزَّ وَجَلَّ له إلى أنْ تقوم السّاعة، وسنظلّ نقرأ: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: من الآية ٢]، وستقرأ منْ بعدنا إلى قيام السّاعة، فقد حكم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنّه لا ريْب في هذا القرآن الكريم منذ نزل إلى قيام السّاعة، فإنْ شكّكُونا في شيء من كتاب ربّنا عَزَّ وَجَلَّ فعلينا أن نقرأ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، فهذه قضيّة

حكم الله جلَّ جلاله بها، وهي ممتدّة وباقية ما بقيتْ الدّنيا، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣]، فالآية تستوعب المستقبل كلّه، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن الكريم، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام السّاعة، بل مستقبل مَنْ تقوم السّاعة عليه، فالقرآن الكريم لم ينزله الله سبحانه وتعالى ليُفرغ أسراره ومعجزاته كلّها في قَرْن واحد، ولا في أمّة واحدة، ثمّ يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء، الله عزَّ وجلَّ يريد للقرآن الكريم أنْ يظلّ جديداً تأخذ منه الأمم والعصور كلّها، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون.

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: الكتاب لا يُوصَف بالحكمة، إنّما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم، فالمعنى: الكتاب الحكيم؛ أي: الموصوف بالحكمة، أو الحكيم قائله، أو الحكيم مُنزِله، ومعنى حكيم: هو الّذي يضع الشّيء في موضعه، ولا يضعَ الشّيء في موضعه إلّا الله جلَّ جلاله؛ لأنّه هو الّذي يعلم صِدْق الشّيء في موضعه، أمّا نحن فنهتدي إلى موضع الشّيء، ثمّ يتبيّن لنا خطؤه في موضعه، ونضطرّ إلى تغييره أو تعديله، أمّا الله سبحانه وتعالى فلا تعديل عنده، فكلّ آية ذكرت ناحية من نواحي كمال القرآن الكريم وجهة من جهات عظمته، فهي لقطات مختلفة لشيء واحد متعدّد الملكات في الكمال، وكذلك نجد تعدّد الكمالات في الآية بعدها:

(الآية ٣) - ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣﴾:

هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، أمّا في صدر سورة البقرة فيقول: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: من الآية ٢]، وفَرْق بين المعنيين، فالتّقوى تقتضي

الإيمان، ومطلوب الإيمان الافتراض، يعني: أنْ تؤدّي ما فرضه الله ﷻ عليك، والتّقوى من عجائب التّأويل القرآنيّ أمّا مطلوب الإحسان ففوق ذلك، فالإحسان في الأداء أن تُحسن في كَمِّه، وأن تحسن في كيفه: تحسن في كيفه بأن تستصحب مع العمل الإخلاصَ للمعمول له، وهو الحقّ ﷾، وتحسن في كَمِّه بأنْ تعشق التّكليف حتّى تؤدّي فوق ما فُرِض عليك، فبدل أنْ تصلّي ركعتين فقط تصلّي ركعتين إضافيّتين نافلة، والزّيادة ليست في الفرائض؛ لأنّ الفرض معروف، ولمّا سُئِل سيّدنا رسول الله ﷺ عن الإحسان -في حديث جبريل ؑ- قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، فحين نوازن بين صدر سورة البقرة، وبين هذه الآية: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، نرى أنّ القرآن الكريم لا يقوم على التّكرار، إنّما هي لقطات إعجازيّة كلّ منها يؤدّي معنى، وإنْ ظنّ بعضهم في النّظرة السّطحيّة أنّه تكرار، لكنّه في حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأمّلناه، فهنا وصف الكتاب أنّه حكيم، وأنّه هدى ورحمة، والهدى هو الدّلالة على الخير بأقصر طريق، وقد نزل القرآن الكريم لهداية قوم قد ضلّوا، فلمّا هداهم إلى الصّواب وأراهم النّور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية، وألّا يخرجوا عنها، فقال: ﴿وَرَحْمَةً﴾، يعني: من رحمة الله ﷻ بهم ألّا يعودوا إلى الضّلال مرّة أخرى، كما في قوله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]، فالمعنى: شفاء لمن كان مريضاً، ورحمة بألّا يمرض بعد ذلك.

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ سؤالِ جبريلَ النّبيَّ ﷺ عنِ الإيمانِ، والإسلامِ، والإحسانِ، وعلمِ السَّاعةِ، الحديث رقم (٥٠).

(الآية ٤) - ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾:

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين، فهل هذه صفاتهم كلّها، أنّهم يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكاة، وبالآخرة هم يوقنون؟ الجواب: لا، لكنّ هذه الصّفات هي العُمد الأساسيّة، والحقّ ﷻ يريد من خَلْقه أن يكونوا سواسية في العبوديّة، وهذه السّواسية لا تتأتّى إلّا إذا تساوى الجميع.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: في الصّلاة بالذّات تتجلّى هذه المساواة، وفيها يظهر عِزّ الرّبوبيّة وذلّ العبوديّة، وفيها منتهى الخضوع لله ﷻ، فهي تتكرّر خمس مرّات في اليوم واللّيلة، أمّا الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصّورة، فالزكاة مثلاً تجب مرّة واحدة في العام: ﴿ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: من الآية ١٤١]، وتجب على القادر فقط دون غيره، كذلك الصّوم والحجّ، فكأنّ الصّلاة هي عمدة العبادات كلّها، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله ﷻ لازمة للعبد، ولا تسقط عنه بحال أبداً؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف... إلخ، وفي الصّلاة استطراق للعبوديّة في الخَلْق جميعاً، حيث نخلع أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد، ففي الصّفّ الواحد، الرّئيس والمرؤوس، والكبير والصّغير، والرّفيع والوضيع -نقصد الوضيع في نظر النّاس، وربّما لا يكون وضيعاً عند ربّه ﷻ- فالجميع هنا سواء، ثمّ حين نرى الكبار والأمراء والرّؤساء والسّادة معنا في الصّفوف خاضعين لله ﷻ تزول بيننا الفوارق، فلا يتعالى أحد في المجتمع على أحد، ولمنزلة الصّلاة وأهمّيّتها رأينا

كيف أنّها الفريضة الوحيدة الّتي فرضها الله سبحانه وتعالى علينا بالمباشرة، في رحلة الإسراء والمعراج، أمّا باقي التّكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحي.

﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: وكما تُحدِث الصّلاة استطراق عبوديّة تُحدِث الزكاةُ في المجتمع استطراقاً اقتصاديّاً، فيعيش الجميع الغنيّ والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة، فلا يشبع واحد حتّى التّخمة، والآخر يموت جوعاً، وما بالنا بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصّغير، ولا يبخل فيه الغنيّ على الفقير؟ ففي الصّلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كلّه، وقد فرض الله عزَّ وجلَّ الزكاة للفقراء؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى حين يستدعي عبد إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقوّمات الحياة.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾: لأنّ الإيمان باليوم الآخر يقتضي أنْ نعمل بمنهج الله جلَّ جلاله في: (افعل كذا) و(لا تفعل كذا)، ونحن على يقين من أنّنا لن نفلت من الله سبحانه وتعالى ولن نهرب من عقابه في الآخرة، وأنّنا مُحَاسبون على أعمالنا، فلم نُخلق عبثاً، ولن نُترك سدى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون].

ونلحظ هنا في الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم)، فقال: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، وهذا يدلُّنا على أنّ الإيمان بالآخرة أمر مؤكّد لا شكَّ فيه، ومع أنّ النّاس يؤمنون بهذا اليوم، ويؤمنون أنّهم محاسبون، وأنّ الله سبحانه وتعالى لم يكلّفهم عبثاً -مع هذا- يؤكّد الحقّ سبحانه وتعالى على أمر الآخرة؛ لأنّها مسألة بعيدة في نظر النّاس، وربّما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم، ولم لا وهم يغفلون حتّى عن الموت الّذي يرونه أمامهم كلّ يوم، ولكنّ عادة الإنسان أن يستبعده في حقّ نفسه، لذلك يقول الحسن البصريّ: "ما رأيت يقيناً أشبه بالشّكّ من يقين

النّاس بالموت"، أمّا الكفّار فينكرون هذا اليوم، ولا يؤمنون به؛ لذلك أكّد الله ﷻ عليه، ولمّا سأل النّبيّ ﷺ أحد صحابته: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟»، قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، قَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ، إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ»، قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فقال له النّبيّ ﷺ: «يَا حَارِثَةُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ»[1].

﴿يُوقِنُونَ﴾: من اليقين، وهو الإيمان الرّاسخ الّذي لا يتزعزع، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد، لكن، هل القرآن الكريم نزل هُدى للمتّقين، وهدى للمحسنين فحسب؟ الجواب: لا، فهو هداية للنّاس جميعهم، وقلنا: إنّ الهداية تأتي بمعنيين: هداية دلالة وإرشاد، وهداية توفيق ومعونة، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله ﷻ المؤمن والكافر، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصّلت: من الآية ١٧]، فالحقّ سبحانه وتعالى دلَّ الجميع؛ لأنهم عباده، فمنهم من قَبِل الدّلالة واقتنع بها فآمن، ومنهم مَنْ رفضها فكفر، أمّا الّذي قَبِل دلالة الله ﷻ وآمن به فيزيده الله سبحانه وتعالى هداية أخرى، هي المعونة علىَ الإيمان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمّد].

(الآية ٥) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾: وصف الله سبحانه وتعالى قرآنه بأنّه هدى، أمّا هنا فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾، والمتكلّم هو الله ﷻ فلا بُدَّ أنْ نتأمّل المعنى، ربّنا ﷻ

(١) شعب الإيمان: باب العين، الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٧).

يريد أنْ يقول لنا: نعم القرآن هُدى، لكن إيّاك أنْ تظنّ أنّك حين تتّبع هذا الهدى تنفعه بشيء، إنّما المنتفع بالهداية أنت، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير والصّلاح، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه، ثمّ هو هدى ممَّنْ؟

﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾: ممّن لا يُستَدرك عليه، فإنْ دلَّنا دلَّنا بحقّ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: فالفلاح نتيجة الهدى الّذي ساروا عليه واتّبعوه، كما قال ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون]، الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْي.. إلخ، فاستعارها أسلوب القرآن الكريم للعمل الصّالح.

(الآية ٦) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾:

بعد أن ذكر الحقّ ﷻ الكتاب وآياته، وأنّ فيه هدى ورحمة لمن اتّبعه، وفلاحاً لمن سار على هديه، يبيّن لنا أنّ هناك نوعاً آخر من النّاس ينتفعون بالضّلال ويستفيدون منه، وإلّا ما راجتْ سوقه، ولما انتشر بين النّاس أشكالاً وألواناً، لذلك نرى للضّلال فئة مخصوصة حظّهم أن يستمرّ وأن ينتشر لتظلّ مكاسبهم، ولتظلّ لهم سيادة على الخَلْق واستنزاف خيراتهم، ومن الطّبيعيّ إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصّلاح للمجتمع لا يقف في وجهه إلّا هؤلاء يحاربونه، ويحاربون أهله، ويتّهمونهم، ويُشكّكون في نيّاتهم، بل ويواجهونهم بالسّخرية والاستهزاء مرّة وبالتّعدّي مرّة أخرى، والله ﷻ يبيّن لنا أنّ هؤلاء الّذين يحاربون الحقّ، ويقفون في وجه الدّعوة إلى الإيمان،

يعرفون تماماً أنّهم لو تركوا النّاس يسمعون منهج الله ﷻ وداعي الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه؛ لذلك يَحُولُون بين آذان النّاس ومنطق الحقّ، فهم الّذين قالوا للنّاس: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]، وما ذلك إلّا لأنّهم واثقون من لغة القرآن الكريم وجمال أسلوبه، واستمالته للقلوب بحلو بيانه، فلو سَمعَتْه الأُذُن العربيّة لا بُدَّ وأنْ تتأثّر به، وتقف على وجوه إعجازه، وتنتهي إلى الإيمان، فإذا ما أفلتَ منهم أحد، وانصرف إلى سماع الحقّ أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحقّ إلى الباطل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: (من) هنا للتّبعيض؛ أي: المستفيدون من الضّلال، الّذين لا يعجبهم أنْ يأتمّ النّاس جميعاً بمنطق واحد، وهدف واحد؛ لأنّ هذه الوحدة تقضي على تميّزهم وجبروتهم وظلمهم في الأرض؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم في الضّلال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿يَشۡتَرِي﴾: من الشّراء الّذي يقابله البيع، والشّراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ في مقابله مُثمّناً، وهذا بعدما وُجِد النّقد، لكن قبل وجود النّقد كان النّاس يتعاملون بالمقايضة والتّبادل سلعة بسلعة، وفي هذه الحالة فكلّ سلعة مباعة وكلّ سلعة مشتراة، وكلّ منهما بائع ومُشْترٍ، ومن ذلك قوله ﷻ في قصّة يوسف ؈: ﴿ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف]، والمعنى: شروه؛ أي: باعوه، ومن ذلك أيضاً قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٠٧]؛ أي: يبيعها، فالفعل (شَرَى) يأتي بمعنى البيع، وبمعنى الشّراء، أمّا إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنّه يدلّ على الشّراء الّذي يُدفَع له ثمن، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ

﴿ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٩٩]، وقوله ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التّوبة: من الآية ١١١]، وعادة تدخل الباء على المتروك، تقول: اشتريتُ كذا بكذا، وحين نتأمّل قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ نجد أنّ هذه عمليّة تحتاج إلى طلب للشّيء المشترى، ثمّ إلى ثمن يُدفَع فيه، وليت الشّراء لشيء مفيد، إنّما: ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، وهذه سلعة خسيسة، فهؤلاء الّذين يريدون أنْ يصدّوا عن سبيل الله ﷻ تحمّلوا مشقّة الطّلب، وتحمّلوا غُرْم الثّمن، ثمّ وُصِفوا بالخيبة؛ لأنّهم رَضُوا بسلعة خسيسة، والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا في مقابل الحقّ الّذي جاءهم من عند الله ﷻ على يد رسوله بلا تعب ولا مشقّة ولا ثمن، جاءهم فضلاً من عند الله ﷻ وتكرّماً: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: من الآية ٢٣]، فأيُّ حمق هذا الّذي يوصفون به؟!

﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: ذكر القرآن الكريم اللّهو واللّعب في عدّة آيات، فقدَّم اللّعب على اللّهو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ٣٢﴾ [الأنعام]، وفي قوله ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: من الآية ٢٠]، وقدّم اللّهو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٤]، فقدّمت الآيات اللّعب في آيتين؛ لأنّ اللّعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة، كما يلعب الأطفال، يعني: حركة لا هدفَ لها، وسُمِّيت لعباً؛ لأنّ الطّفل يلعب قبل أنْ يُكلَّف بشيء، فلم يشغل باللّعب عن غيره من المهمّات، لكن إذا انتقل إلى مرحلة التّكليف،

فإنّ اللّعب يشغله عن شيء طُلب منه، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً، ومنه قوله جل جلاله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: من الآية ١١]، فاللّهو هو الشّيء الّذي لا مصلحة فيه، ويشغلنا عن المطلوب منّا، فآية سورة العنكبوت الّتي قدّمت اللّهو على اللّعب تعني أنّ أمور الاشتغال بغير الدّين قد بلغت مبلغاً، وأنّ الفساد قد طمَّ، واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللّعب؛ لأنّ اللّعب لم يُلهه عن شيء، لكن، ما هو اللّهو الّذي اشتروه ليصرفوا النّاس به عن الحقّ وعن دعوة الإسلام؟ إنّهم لمّا سمعوا القرآن الكريم فيه قصصاً عن عاد وثمود، وعن مدين وفرعون.. إلخ، أرادوا أنْ يشغلوا النّاس بمثل هذه القصص، وقد ذهب واحد منهم وهو النّضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلّية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حِمْيَر، اشتراها وجاء بها، وجعل له مجلساً يجتمع النّاس فيه ليقصّها عليهم، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحقّ في القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ، وآخر يقول: بل جاء أحدهم بمغنّية تغنّيهم أغاني ماجنة متكسّرة.

وقوله: ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ لا يقتصر على الغناء والكلام، إنّما يشمل الفعل أيضاً، وربّما كان الفعل أغلب، ومعنى: ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال العلماء: هو كلّ ما يُلهي عن مطلوب لله عز وجل، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً، لكن، لماذا يكلّفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث؟ العلّة كما قال الحقّ سبحانه وتعالى:

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وفرْق بين مَنْ يشتري اللّهو لنفسه يتسلّى به، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضِلَّ ويُضلّ غيره؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن: ضلالة في نفسه، وإضلاله لغيره.

والسّبيل: هو الطّريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق، وهو الصّراط المستقيم الّذي قال الله ﷻ عنه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة]، لذلك نقول في علم الهندسة: المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: يدلّ على عدم معرفتهم حتّى بأصول التّجارة في البيع والشّراء، فالتّاجر الحقّ هو الّذي يشتري السّلعة، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها، أمّا هؤلاء فيشترون الضّلال؛ لذلك يقول الحقّ عنهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ١٦].

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾: أي: السّبيل؛ لأنّ السّبيلِ تُذكّر وتؤنّث، تُذكَّر باعتبار الطّريق، كقوله ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٦]، وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة، كقوله ﷻ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: من الآية ١٠٨]، هؤلاء الّذين يشترون الضّلال لإضلال النّاس لا يكتفون بذلك، إنّما يسخرون من أهل الصّلاح، ويهزؤون من أصحاب الطّريق المستقيم والنّهج القويم، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم.

ثمّ يذكر الحقّ ﷻ عاقبة هذا كلّه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الّذين سبق الحديث عنهم، وهم أهل الضّلال.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾: ووَصْفُ العذاب هنا بالمهانة دليل على أنّ من العذاب ما هو مهين وما هو أليم.

(الآية ٧) - ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٧﴾:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾: بعد قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ

﴿ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدلّنا على حرص النّبيّ ﷺ على تبليغ أمر دعوته، حتّى لمن يعلم عنه أنّه ضَلَّ في نفسه، بل ويريد أنْ يُضلّ غيره.

﴿وَلَّىٰ﴾: يعني: أعرض، وتولّى وهو مستكبر.

﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾: أي: تكبَّر على ما يُدْعى إليه من الحقّ، فاستكبر عن سماع آيات القرآن الكريم.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾: أي: ثِقَل وصَمَم.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾: ونحن نعلم أنّ البشارة لا تكون إلّا في الخير، فهي الإخبار بأمر سارٍّ لم يأْت زمنه، أمّا البشارة بالعذاب فعلى سبيل التّهكّم بهم والسّخرية منهم، ثمّ يذكر الحقّ سبحانه وتعالى عقوبة الإضلال عن سبيل الله عز وجل والتّولّي والاستكبار: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فعذابهم مرّة مهين ومرّة أليم.

(الآية ٨) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وهؤلاء الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات في مقابل الّذين يشترون لهو الحديث ليضلّوا عن سبيل الله، وهذه سِمَة من سمات الأسلوب القرآنيّ؛ لأنّ ذكر الشّيء مع مقابله يُوضِح المعنى ويعطيه حُسْناً، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ [الانفطار]، فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنّعيم، ثمّ يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفّار الّذين غاظوه واضطهدوه وعذّبوه في النّار، وقلنا: إنّ الحقّ سبحانه وتعالى حينما يتكلّم عن الإيمان يردفه بالعمل الصّالح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنّ الإيمان أن تعلم قضايا غيبيّة فتُصدِّق بها، لكن ما قيمة هذا

الإيمان إذا لم تنفّذ مطلوبه؟ وكذلك في سورة العصر: ﴿ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر]، ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه.

ومعنى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الصّالح، الّذي يصلح الدّنيا والآخرة.

ثمّ يذكر سبحانه وتعالى جزاء الإيمان والعمل الصّالح:

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: فهي جنّات لا جنّة واحدة، ثمّ هي جنّات النّعيم؛ أي: المقيم الّذي لا تفوته ولا يفوتك.

(الآية ٩) – ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾: حين نتأمّل هذه الآيات نلمس رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حتّى الكافر منهم الّذي ضلّ وأضلّ، ومع ذلك فالله جل جلاله رحيم بهم حتّى في تناول عذابهم، ألا ترى أنّ الله سبحانه وتعالى قال في عذابهم: إنّه مهين، وإنّه أليم، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنّات، فقد يخرج من النّار بعد أن تُصفّى سيّئاته ما لم يكن مشركاً، كما أنّ العذاب جاء بصيغة المفرد، أمّا الجنّة فجاءت بصيغة الجمع، ثمّ أخبر سبحانه وتعالى عنها أنّها:

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾: والوعد يستخدم دائماً لأمر خير يأتيك.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: العزيز الّذي لا يُغلَب، ولا يستشير أحداً فيما يفعل جلّ وعلا.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي: حين يعِد، وحين يفي بالوعد.

ثمّ تنتقل الآيات إلى دليل من أدلّة الإيمان الفطريّ بوجود الإله:

(الآية ١٠) - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ذكر الحقّ ﷻ آية كونيّة لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفّار أو الملحدين، وهي آية موجودة ومُشَاهدة، وبعد أن قال ﷻ: أنا خالق السّماء والأرض، لم يعارضه أحد، ولم يأْتِ مَنْ يعارضه، فيقول: بل أنا خالق السّماء والأرض.

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: حين ندور في أنحاء الكرة الأرضيّة من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، نجد السّماء تظلّنا، ومع سعة السّماء لا نجد لها عمداً ترفعها.

﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾: تحمل معنيين: إمّا هي فعلاً بغير عمد، أو لها عمد لكن لا نراها، ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ يعني: لا نرى لها عمداً، لكنّ الحقيقة أنّ لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم، فإنْ قلت: فما هذه العمد الّتي لا نراها؟ بعضهم يقول: هي الجاذبيّة، وهذا القول مجانب للصّواب، والحقّ ﷻ يكفينا مؤنة البحث في هذه المسألة، فيقول ﷻ: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحجّ: من الآية ٦٥]، فلا نملك إلّا أنْ نقول: إنّها ممسوكة بقدرة الله ﷻ، ولكي لا نحار في كيفيّة ذلك يُقرِّب الله ﷻ لنا هذه المسألة بمثال مُشاهَد لنا، فالطّير يمسكه الله ﷻ في جوّ السّماء: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ٧٩]، وفي موضوع آخر يقول الحقّ ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: من الآية ٤١]، فهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يمسكها بقانون، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه.

والسّماء في اللّغة: كلّ مَا علاك فأظلّك، فالغيم الّذي يعلونا ونراه قريباً منّا يُعدّ من السّماء، بدليل قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، والماء ينزل من الغيم، لا من السّموات العلا، والفرق بينهما أنّ الغيم نراه في مكان دون آخر، ونراه مُتقطّعاً منفطراً، أمَّا السّماء العليا فهي بشكل واحد، لا نرى فيها من فطور، وحين تكلّم الحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن الأرض والسّماء قال: إنّها سبع سموات، ولم يقُلْ: سبع أراضين، بل: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: من الآية ١٢]، فدلَّ على أنّ الأرض سبع كالسّماء، وإنْ كانت السّماء كلّ ما أظلّك، فالأرض كلّ ما أقلَّك، لكن أين هذه الأرَضين السّبع؟ لقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ السّموات سبع، وأخبرنا النّبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنّه مرَّ بها في رحلة المعراج، فقال: في الأولى كذا وكذا، وفي الثّانية كذا وكذا، وما دامتْ السّماء كلّ ما أظلّك، والأرض كلّ ما أقلّك، فالخَلْق في السّماء الأولى مثلاً سماؤهم السّماء الثّانية، وأرضهم سماؤنا الأولى، وهكذا.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾: أي: الجبال الرّاسية الثّابتة المتّصلة بالأرض اتّصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منها، والعلّة في خَلْق الجبال الرّواسي على الأرض هو قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾: أي: تميل وتضطرب بكم، ولو أنّ الأرض مخلوقة على هيئة الثّبات لما احتاجت إلى ما يثبّتها، فالأرض متحرّكة، وما خُلِقت الجبال إلّا لتثبيتها وضبط حركتها، فدلّت هذه الآية بشكل قاطع على صِدْق

النّظريّة القائلة بدوران الأرض، كذلك في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النّمل: من الآية ٨٨]، فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض، فإنْ قُلْتَ: ولماذا لا نراها؟ نقول: لأنّ وحدة المكان تجعلك لا تدرك هذه الحركة، فالمتّحد في مكان لا تختلف مرائي الأشياء بالنّسبة إليه، وحركة الجبال ليست ذاتيّة، إنّما هي تابعة لحركة الأرض، والحقّ ﷻ شبّه حركة الجبال بحركة السّحاب، والسّحاب حركته غير ذاتيّة، إنّما هي تابعة لحركة الرّياح.

ثمّ يذكر الله ﷻ علّة أخرى لخَلْق الجبال:

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: وسبق أنْ أوضحنا أنّ الجبال تمثّل مخازن للقوت الّذي به قوام الحياة للإنسان والحيوان والّذي ينشأ من الزّرع، وبيّنّا أنّ الطّبقة الخارجيّة للجبال تتفتّتْ بعوامل التّعرية، ثمّ يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كلّ عام، ومن الجبال أيضاً يتكوّن الماء في الأنهار أو في مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه، ومن حكمته ﷻ أنْ جعل الجبال راسية ثابتة، وجعلها صلدة، وإلّا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتّتتها في عدّة سنوات، ثمّ حرمت الأرض من الخصوبة الّتي تستمدّها من الجبال؛ لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: من الآية ٢١]، فمع زيادة السّكّان تزداد المساحة الخِصْبة الّتي يُكوّنها الغِرْين الّذي يتفتّت من الجبال عاماً بعد عام، قال ﷻ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصّلت]، فالجبال جعلها الله ﷻ راسية حتّى لا تضطرب بنا الأرض، وجعلها

صلبة؛ لأنّها مخزن الخِصْب الّذي يُمِدُّنا بالزّرع الّذي به قِوَام حياتنا، ومن رحمة الله ﷻ بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتيّة استبقاء الحياة، فإن مُنِع عنه الطّعام أو الشّراب تغذّى من المخزون في جسمه؛ فيأخذ أوّلاً من الدّهن، ثمّ من اللّحم، ثمّ من العظم؛ لذلك قلنا: إنّ العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيّدنا زكريّا عليه السلام: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: من الآية ٤]، يعني: قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة، فكان من رحمة الله ﷻ بالخَلْق أنْ جعل حتّى شَرَه الإنسان للطّعام والشّراب رحمة به، حيث يتحوّل الزّائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذّر عليه الطّعام والشّراب استمدّ ممّا في جسمه، كذلك من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطّعام إلى شهر، ويصبر على الماء من ثلاثة أيّام إلى عشرة، بحسب ما في جسمه من مخزون الطّعام والشّراب، أمّا الهواء فلا يصبر عليه إلّا بمقدار شهيق وزفير؛ لذلك تتجلّى رحمته سبحانه وتعالى وحكمته في خَلْقه بألّا يُملِّك الهواء لأحد، فلو مَلكه عدوّك لمتّ قبل أن يرضى عنك.

﴿وَبَثَّ﴾: أي: نشر.

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدّابّة: كلّ ما له دبيب على الأرض، والدّبيب بحسب ما يدبّ على الأرض، وكلّ ما يمشي على الأرض له دبيب، نسمعه مثلاً في الحيوان الضّخم، لكن لا نسمعه في النّملة.

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: كلّ ما له حركة ودبيب على الأرض، يعني: كلّ ما يقال له: دابّة، بداية من النّملة أو الفيروسات إلى أكبر حيوان على الأرض.

وقوله: ﴿مِن﴾ تتدرّج من الصّغير إلى الكبير فتدلُّ على الشّمول، ومن هذه الدّوابّ ما أحلّه الله ﷻ ومنها ما حرّمه؛ لذلك يقول بعضهم: ما دام الله ﷻ حرَّم هذه الحيوانات، فما الضّرورة في خَلْقها؟ نقول له: وهل كلّ شيء مخلوق يُؤكل؟ الجواب: لا، ليس كلّ مخلوق من الحيوانات يؤكل؛ لأنّ له مهمّة أخرى يؤدّيها، ولو تأمّلت ما حُرّم عليك لوجدته يخدمك في ناحية أخرى، فمنه ما يمدّ الحيوانات الّتي تأكلها، ومنه ما فيه خاصّيّة تحتاج إليها في غير الأكل، فالثّعبان مثلاً لا نرى فيه إلّا أنّه مخلوق ضارّ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمّه الآن، ونجعله مَصْلاً نافعاً؟ ألسنا ننتفع بجلده؟ فإذا كنّا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده في نواحٍ أخرى، وكلّ شيء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقّ نظام، فلا نجد فيه فساداً أبداً إلّا إذا طالتْه يد البشر.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: أي: من جهة العلوّ ومن ناحية السّماء، وإلّا فالمطر لا ينزل من السّماء، إنّما من الغمام.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾: أي: في الأرض.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: أي: نوع من النّبات، فهي كلمة تدلّ على مفرد، لكن معه مثله، وبعض النّاس يظنّ أنّها تعني اثنين، وهذا خطأ؛ لذلك نقول عن الرّجل زوج، وعن المرأة زوج مع أنّه مفرد، لكن قُرِن بغيره، وقال ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذّاريات: من الآية ٤٩]، فَسمّى الذّكر (زوجاً) وسمّى الأنثى (زوجاً)، ومثلها كلمة: (توأم)، فهي تدلّ على مفرد، لكن مفرد لم يُولَد وحده إنّما معه غيره، وبعضهم يقول: (توأم) ويقصد الاثنين، إنّما الصّواب أن نقول: هما توأمان.

﴿كَرِيمٍ﴾: وصف الله ﷻ الزّوج؛ أي: النّوع من النّبات بأنّه كريم؛ لأنّه يعطينا بكرم وسخاء، فالحبّة تعطينا سبعمئة حبّة، وهذا عطاء المخلوق لله ﷻ، فما بالنا بعطاء الخالق ﷻ؟.

(الآية ١١) - ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١١﴾:

الكلام هنا مُوجَّه للمكابرين والمعاندين الجاحدين لآيات الله ﷻ.

﴿هَٰذَا﴾: أي: ما سبق ذِكْره لكم من خَلْق السّموات بغير عمد، ومن خَلق الجبال الرّواسي والدّوابّ وإنزال المطر وإحياء النّبات.. إلخ.

﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: هذا كلّه خلق الله ﷻ، فلم يدَّعِهِ أحد لنفسه، وليس لله ﷻ فيه شريك.

﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: أي: الّذين اتّخذتموهم شركاء مع الله ﷻ، ماذا خلقوا؟ والحقّ ﷻ في الرّدّ عليهم يبيّن لهم أنّ المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق، إنّما لا يعرفون كيف خُلقوا هم أنفسهم: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ٥١﴾ [الكهف]، وفي قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ٥١﴾ [الكهف: من الآية ٥١]، دليل على صِدْق القرآن الكريم ومظهر من مظاهر إعجازه، فقد أخبرنا الحقّ ﷻ أنّه سيُوجد مُضِلّون يُضِلّون النّاس في مسألة الخَلْق، ويصرفونهم عن الحقّ بكلام باطل، فكأنّ كلّ كلام يناقض: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ هو كلام مُضِلّ، وكأنّ هؤلاء المضلّين -في غفلة منهم ودون قصد- يؤيّدون كلام الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ٥١﴾ [الكهف: من الآية ٥١]، ونجد هذه المسألة أيضاً في سنّة

رسول الله ﷺ، حيث يظهر لنا من حين لآخر مَنْ يُنكِر سنّة رسول الله ﷺ، ويقول: بيننا وبينكم كتاب الله ﷻ، فما كان فيه من حلال حلّلناه، وما كان فيه من حرام حرّمناه، وعندها نقول: سبحان الله، كأنّ الله ﷻ أقامكم دليلاً على صِدْق رسوله ﷺ، فقد أخبر الرّسول عنكم، وعمّا تقولونه في حَقّ سنّته، حيث قال ﷺ: «أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَاماً حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ»(١).

ومعنى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: أي: مخلوقاته.

﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: ولن نطلب منك خَلْقاً كخَلْق السّماء والأرض والجبال، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنّبات، بل اخلقوا أقلّ شيء في الموجودات الّتي تروْنها، وليس هناك أقلّ من الذّباب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحجّ: من الآية ٧٣]، بل وأبلغ من ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحجّ: من الآية ٧٣].

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: ضلال محيط بهم من كلّ اتّجاه، والضّلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية، فلن يهتدي هؤلاء، وما عليك إلّا أنْ تصبر على دعوتك يا محمّد حتّى يُبدلك الله ﷻ خيراً من هؤلاء، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك، وينصرون دعوتك، وقد كان ما وعد الله ﷻ

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب العلم، باب ما نهي عنه أن يُقَال عند حديث النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٢٦٦٤).

رسوله ﷺ، فأخرج من أصلابهم من يعبد الله سبحانه وتعالى، ولا يشرك به شيئاً، فهذا خالد بن الوليد، وهذا عكرمة بن أبي جهل، وغيرهم رضي الله عنهم.

(الآية ١٢) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾: والإيتاء يُطلَق على الوحي مع الفارق بينهما، فإنْ أُطلِق على الوحي فإنّه ينصرف إلى الوحي للرّسول بمنهج من الله عزّ وجلّ، ويُعرَف الوحي عامّة بأنّه إعلام بخفاء، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى في الوحي للملائكة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ [الأنفال: من الآية ١٢]، ويُوحِي للبشر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ [القصص: من الآية ٧]، ويوحي للحيوان: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النّحل: من الآية ٦٨]، ومن ذلك أيضاً يوحي الشّياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجنّ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢١]، كذلك يوحي الله سبحانه وتعالى إلى أهل الخير من أتباع الرّسل: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: من الآية ١١١]، هذا في المعنى اللّغويّ للوحي، وهو: إعلام بخفاء، فإنْ قصدت الوحي الشّرعيّ الاصطلاحيّ: فهو إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بمنهجه، وهذا التّعريف يُخرِج الأنواع السّابقة كلّها.

والحقّ سبحانه وتعالى عبّر عن الإيتاء العامّ بقوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٥١]، والإيتاء يُقصد به الإلهام، ويكون حين تتوفّر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحقّ سبحانه وتعالى، وله جلّ جلاله إرسال دائم إلى عباده، لا يلتقطه إلّا مَنْ صفَتْ آلة استقباله، وصلحت للتّلقّي عن الله عزّ وجلّ،

وهذه الآلة لا تصلح إلّا إذا كانت على المنهج في: افعل ولا تفعل، لا تصلح إذا تكوّنت من الحرام وتغذَّتْ به؛ لأنّ الحرام يفسد كيماويّة الفطرة الّتي خلقها الله ﷻ في عباده، ولنتأمّل في وحي الله ﷻ إلى أمّ موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ﴾ [القصص: من الآية ٧]، فأيُّ آلة استقبال هذه الّتي استقبلتْ أمّ موسى بها هذا الأمر، ونفّذته دون أنْ تناقشه، واطمأنّتْ إليه قبل أنْ تفكّر فيه؟ وكيف تقتنع الأمّ أنّ الموت المحقّق يُنجي وليدها من موت مظنون؟ لذلك نقول: إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنّه لا يوجد في النّفس ما يصادره، ولا ما يبحث عن دليل، فقامت أمّ موسى ونفّذت الأمر كما أُلقي إليها، هذا هو الإيتاء.

﴿لُقۡمَٰنَ﴾: اختلف العلماء فيه: أهو نبيّ أم غير نبيّ، والغالب أنّه ليس نبيّاً؛ لأنّ القائلين بنبوّته ليس لهم سند صحيح، والجمهور اجتمعوا على أنّه رجل صالح مرهف الحسّ، دقيق الإدراك، والحسّ كما قلنا: هو الأصل الأوّل في المعلومات، وكان لقمان لا يمرّ على الأشياء إلّا بهذا الحسّ المرهف والإدراك الدّقيق العميق، فتتكوّن لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر في نفسه، فتتجمّع لديه مجموعة من الفضائل والقِيَم الّتي تسوس حركة حياته، فيسعد بها في نفسه، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتّعبير الحسن؛ لذلك يقول سيّدنا عمر بن عبد العزيز: "إنّما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا"، يعني: لو كنّا أهلاً للزّيادة لزادنا، لو كنّا مأمونين على ما علمنا فوظّفناه في حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقيّة وعطاءات من ربّنا ممتدّة لا تنتهي، أمّا إنْ أخذنا العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به، فما الدّاعي للزّيادة، وأنت لم تستفِدْ بما عندك؟

﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾: وكما تكلّم العلماء في شخصيّة لقمان، تكلّموا في حكمته، فسأله أحدهم، وقد تبسَّط معه في الحديث: ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً؟ قال لقمان: بلى، قال: فَبِمَ أوتيتَ الحكمة؟ قال: باحترامي قدر ربّي، وأدائي الأمانة فيما ولّيت من عَمل، وصدق الحديث، وعدم تعرُّضي لما لا يعنيني، وهذه الصّفات كافية أنْ تكون منهجاً لكلّ مؤمن، وأنْ ينطق صاحبها بالحكمة؛ لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة، فآتاه الله عزّ وجلّ الحكمة مباشرة، وهو ليس نبيّاً ولا رسولاً، وسُمّيت إحدى سور القرآن الكريم باسمه، وهذا يدلّ على أنّ الإنسان إذا اعتدل مع الله عزّ وجلّ، وأخلص في طاعته، فإنّه سبحانه وتعالى يُعطيه من فيضه الواسع، فيكون له ذِكْر في مصافّ الرّسل والأنبياء، ويُرْوَى من حكمة لقمان أنّ سيّده أمره أن يذبح له شاة، ثمّ يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها، فذبح لقمان الشّاة وجاءه بالقلب واللّسان، وفي اليوم التّالي قال له: اذبح لي شاة وأتني بأخبث مُضغتين فيها، فجاءه أيضاً بالقلب واللّسان فسأله: ألم تَأْتِ بهما بالأمس على أنّهما أطيب مضغتين في الشّاة؟ قال: بلى فليس شيء أطيب منهما إذا طَابَا، ولا شيء أخبث منهما إذا خَبُثَا، وبعد لقمان بدهور جاء سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلّمنا هذا الدّرس، فيقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(١)، ويقول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: «**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ وَبَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢).

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ فَضْلِ مَنِ استبرأَ لدينهِ، الحديث رقم (٥٢).

(٢) شُعَب الإيمان: بابٌ في تحريمِ الفُرُوجِ، وما يجبُ مِنَ التَّعَفُّفِ عنها، الحديث رقم (٥٠٢٣).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: فالّذي آتى هو الله عَزَّ وَجَلَّ، الحكمة: مادّة حكَم تدلّ على وَضْع الشّيء في موضعه، ومنها الحاكم؛ لأنّه يضع الحقّ في نصابه، حتّى في الدّوابّ نسمّي الحديدة الّتي توضع في فم الفرس لتتحكّم في حركته (حَكَمه)؛ لأنّ الهدف من ركوب الخيل مختلف، فالحكمة تعني في معناها العامّ وَضع الشّيء في موضعه، وهي مجموعة من مَلَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء الّتي تضع كلّ أمر في محلّه، لكن بيُسْر وبلا مشقّة ولا تعب، وساعة نسمع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ﴾ فلنعلم أنّ هنا قَسَماً، فالواو واو القسم، والمقسَم عليه مُؤكَّد بـ (اللّام)، ومُؤكّد بـ: (قد) الّتي تُفيد التّحقيق.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: رأس الحكمة أن يتوجّه الإنسان بالشّكر إلى خالقه، ولا يتوجّه إلى غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يختلف عن شكر البشر، فالبشر قد يشكرون من أسدى لهم معروفاً، أمّا شكرهم لله عَزَّ وَجَلَّ فيعود عليهم، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**»(١).

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾: علمنا أنّ الشّكر لله جَلَّ جَلَالُهُ هو أوّل الحكمة، لماذا؟ لأنّ مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره، وإيّانا أن نظنّ أنّ من مقوّمات قيّوميّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ نشكره، فشكْرنا وعدمه سواء بالنّسبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسِع الكافر والمؤمن، ولم يقطع عنهم نِعَمه؛ ذلك لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيّ عن خَلْقه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعرف أنّه ربّ، حتّى للكافر الجاحد.

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدبِ، بابٌ في شُكرِ المعروفِ، الحديث رقم (٤٨١١).

ونلحظ في الأسلوب هنا عظمة وروعة، ففي الشّكر قال ﷻ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ﴾، أمّا في الكفر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، ولم يقل: (ومَنْ يكفر)، وفَرْق بين الأسلوبين، والكلام هنا كلام ربٍّ، ففي الشّكر جاء بالفعل المضارع: ﴿يَشۡكُرۡ﴾، الدّالّ على الحال والاستقبال، فالشّكر متجدّد ودائم على خلاف الكفر، وكأنّه سبحانه وتعالى لا يريد من عبده الدّوام على كفره، فلعلّه يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان، فجاء بالفعل الماضي: ﴿كَفَرَ﴾؛ أي: في الماضي فحسب، وقد لا يعود في المستقبل، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البيانيّ في القرآن الكريم.

﴿حَمِيدٞ﴾: من صيغ المبالغة على وزن: فعيل، وتأتي مرّة بمعنى: فاعل، مثل: رحيم، ومرّة بمعنى: مفعول، مثل: قتيل؛ أي: مقتول، والمعنى هنا: ﴿حَمِيدٞ﴾؛ أي: محمود، وجاءت هذه الصّفة بعد: ﴿غَنِيٌّ﴾؛ لأنّ الكافر لو كان يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى لم يقطع عنه نعمه مع كفره به لحمد هذا الإله الّذي حلم عليه، ولم يعامله بالمثل.

(الآية ١٣) - ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾:

يعطينا الحقّ سبحانه وتعالى طرفاً من حِكَم لقمان الّتي رواها القرآن الكريم:

﴿وَإِذۡ﴾: أي: اذكر يا محمّد حين قال لقمان لابنه، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلّنا على صدق ما رُويَ عنه أنّه كان يفتي النّاس ويعظهم قبل سيّدنا داود عليه السلام، فلمّا جاء داود عليه السلام أمسك لقمان، وقال: ألا أكتفي وقد كُفِيت، ثمّ وجّه نصائحه لمن يحبّ وهو ولده، وفَرْق بين أنْ

يتكلّم الإنسان مع عامّة الخَلْق، وبين أنْ يتكلّم مع ولده، فالابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الّذي يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضلَ وأحسن حالاً منه، ويتمنّى أن يُعوّض ما فاته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾: الوعظ: هو التّذكير بمعلومة عُلِمت من قبل مخافة أنْ تُنْسى، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة، إنّما يُنبّه غفلتك إلى شيء موجود عندك، لكن غفلت عنه، فهناك فَرْق بين عالم يُعلّم، وواعظ يعظ، والوعظ للابن يعني أنّه كان على علم أيضاً بالمسائل، وكان دور الوالد أنْ يُذكّره، ونلحظ في أسلوب الآية أنّ الله ﷻ لمّا أخبر عنه، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾، ولمّا تكلّم لقمان عن ابنه، قال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، ولم يقل: يا ابني، فصغّره تصغير التّلطّف والتّرقيق، وليوحي إليه: إنّك لا تزال في حاجة إلى نصائحي، وإيّاك أنْ تظنّ أنّك كَبِرت وتزوّجت فاستغنيتَ عنّي.

وأوّل عِظَة من الوالد للولد: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، وهذه قمّة العقائد؛ لذلك بدأ بها؛ لأنّه يريد أنْ يُصحّح له مفهومه في الوجود، ويلفت نظره إلى أنّ الأشياء الّتي نَعِم بها آباؤك وأجدادك لا تزال تعطي في الكون، ومن العجيب أنّها باقية، وهي تعطي في حين يموت المعطَى المستفيد بها، ولنتأمّل منذ خلق الله ﷻ الكون، كم من البشر انتفع بالشّمس! ومع ذلك اندثروا جميعاً، وما زالت الشّمس باقية، كذلك القمر والهواء والجبال.. إلخ، فكيف وأنت سيّد هذا الكون يكون خادمك أطول عمراً منك؟ فعلى العاقل أن يتأمّل، وعلى الإنسان الّذي كرّمه الله ﷻ على سائر المخلوقات أن يقول: لا بُدَّ أنّ لي

عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات الّتي تخدمني، وهذا لا يتأتّى إلّا حين تصل عمرك في الدّنيا بعمرك في الآخرة، وهذا يستدعي أن تؤمن بالله ﷻ وألّا تشرك به شيئاً، فهو وحده ﷻ الّذي خلق لك هذا كلّه، وأعدّه لخدمتك قبل أن توجد.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: نعم الشّرك ظلم؛ لأنّ الظّلم يعني: نَقْل حقّ الغير إلى الغير، وقمّة الظّلم ومنتهاه أن تأخذ حقّ الله ﷻ، وتعطيه لغيره، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعود رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: من الآية ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟**»(١)، فهدّأ رسول الله ﷺ من رَوْعهم وطمأنهم أنّ المراد بالظّلم هنا ظلم القمّة؛ أي: الشّرك بالله ﷻ.

(الآية ١٤) - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾:

أهذه وصيّة من وصايا لقمان لابنه، أم هي كلام جديد من الله ﷻ جاء في سياق كلام لقمان؟ قالوا: هو من كلام الحقّ ﷻ، بدليل قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، ومن التّكريم للقمان أنّ الله ﷻ ساق هذه الوصيّة بعد وصيّته لابنه، فجاءت وكأنّها حكاية عنه.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ اسْتِتابَةِ المُرتَدِّينَ والمُعَانِدِينَ وقِتالِهِمْ، بابُ إِثمِ مَنْ أشركَ باللَّهِ، وعُقُوبتهِ في الدُّنْيا والآخرةِ، الحديث رقم (٦٩١٨).

﴿وَوَصَّيۡنَا﴾: يعني: علّمنا ووعظنا، وهما يدلّان على معلومات تبتدئ بعلمنا ويذكّر بها في وعظنا؛ لذلك فالنّبيّ ﷺ عندما خطب النّاس في حجّة الوداع ذكر أمّهات الفضائل، لماذا؟ لأنّه آخر كلامه إليهم، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل الدّين كلّه، وإنّما جاء بجماع الخير.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾: والوصيّة بالوالدين بالذّات أخذتْ رقعة واسعة في كتاب الله ﷻ، وفي هذه الآية ذكر علّة الوصيّة، فقال ﷻ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾.

وفي خمس آيات أخرى وردتْ كلمة: ﴿إِحۡسَٰنًا﴾، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة: من الآية ٨٣]، وفي سورة النّساء: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النّساء: من الآية ٣٦]، وفي الأنعام: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، وفي الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، وفي الأحقاف: ﴿ ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، وفي آية واحدة وردت كلمة: ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ [العنكبوت: من الآية ٨]، وفي آية واحدة أيضاً جاءت الوصيّة بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين: (حُسْناً وإحساناً) هي الآية الّتي نحن بصدد الحديث عنها، لكن، ما الفرق بين (إحساناً) و(حُسناً)؟ الفرق أنّ الإحسان مصدر أحسن، وأحسن حدث، تقول: أحسن فلان إحساناً، أمّا حُسناً فمن الحسن، وهو المصدر الأصيل لهذه المادّة، كما تقول: فلان

عادل، فوصفته بالعدل، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ في هذا الوصف، تقول: فلان عَدْل؛ أي: في ذاته، لا مجرّد وَصْف له، فحُسْناً آكد في الوصف من إحساناً، فلماذا جاءت في هذه الآية بالذّات: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: من الآية ٨]، قالوا: لأنّ هذه الآية تتعرّض لمسألة صعبة تمسُّ قمّة العقيدة، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله ﷻ، لذلك احتاج الأمر أنْ نوصي الابن بالحُسْن في ذاته، وفي أسمى توكيداته، فلم يقُلْ هنا: (إحْسَاناً)، إنّما قال: (حُسْناً)، حتّى لا يظنّ أنّ دعوتهما إيّاه إلى الشّرك مبرّر لإهانتهما، أو التّخلّي عنهما؛ لذلك يُعلّمنا ربّنا ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، وإنْ كانت الوصيّة هنا بالوالدين إلّا أنّ حيثيّات الوصيّة خاصّة بالأمّ.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: فلم يذكر شيئاً عن دور الأب، لماذا؟ قال العلماء: لأنّ الكلام هنا كلام ربّ، وما عليك إلّا أنْ تُعمِل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه، والله ﷻ يُذكّرنا هنا بدور الأمّ خاصّة، لأنّها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها، فهو مستور عنك لا تعرفه، أمّا أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله، فكأنّ أفعال الأب وُجِدت حين تمّ تكوين العمر العقليّ الواعي، ففهم الابن ما فعل أبوه، فدوْر الأب ظاهر على خلاف دور الأمّ؛ لذلك ذكره الحقّ ﷻ هنا: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، ويأتي مَنْ يقول: أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأمّ، فهما فيه سواء؟ نقول: بلى، لكنّ مشقّة الأمّ فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة، ولولا أنّ

الله ﷻ ربط النّسل بالشّهوة لَزهدَ النّاس فيه لِمَا تتحمّله الأمّ من مشاقّ، ولِمَا يتحمّله الأب من تبعات الأولاد، ونعرف قصّة المرأة الّتي ذهبت تقاضي زوجها لأنّه يريد أنْ يأخذ ولدها منها، فقالت للقاضي وقد قال لها: أليس الولد ولدكما معاً؟ قالت: بلى، ولكنّه حمله خِفّاً ووضعه شهوة، وحملتُه وهناً على وهن، فحكم لها.

﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾: أي: ضعفاً على ضعف، والمرأة بذاتها ضعيفة، فاجتمع لها ضعفها الذّاتيّ مع الضّعف بسبب الجنين الّذي يتغذّى منها، ويكبر في أحشائها يوماً بعد يوم؛ لذلك قلنا: إنّ من حكمة الله ﷻ في خَلْق الرّحم أنْ جعله قابلاً للتّمدّد والاتّساع ليحتوي الجنين في مراحل الحمل المختلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يتحمّلها اتّساع الرّحم فيكون إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمّه في غذائه وفي تنفّسه وحركته، لكن حينما جاء أمر الله ﷻ وأذن بميلاده أنشأه خَلْقاً آخر له مُقوّمات حياة مستقلّة غير متّصل بأمّه، ومن عظمة الخالق سبحانه في مسألة الرّزق أنّ رزق الجنين يأتيه منفصلاً عن رزق أمّه، فلكلّ منهما رزق لا يأخذه الآخر، ومعلوم أنّ المرأة حين يُقدَّر لها حَمْل ينقطع عنها الدّم الّذي كان ينزل بصفة دوريّة حال فراغ الرّحم من الحمل، هذا الدّم هو الّذي جعله الله ﷻ غذاءً للجنين الجديد، أمّا إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدّم، ويتخلّص منه، لماذا؟ لأنّه ليس غذاءها، وكأنّ الخالق ﷻ يُنبّهنا أنّ لكلّ منّا رزقه الّذي لا يتعدّاه إلى غيره، وأيضاً من

حكمته ﷻ في وَضْع الجنين في بطن أمّه عند الولادة أنْ ينزل برأسه، وهذا هو الوضع الطّبيعيّ لولادة طفل سليم؛ لأنّ أوّل ضروريّات الحياة للطّفل ساعةَ انفصاله عن أمّه أنْ يتنفّس، فإذا نزل برأسه استطاع التّنفّس حتّى وإنْ تعسّر نزول باقي جسمه، أمّا إنْ نزل الطّفل بعكس هذا الوضع فإنّه يختنق ويموت.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾: الفصال: أي: الانفصال عن الأمّ في مسألة الرّضاعة، ومنه: يسمّون ولد النّاقة الّذي استغنى عن لبنها: الفصيل؛ أي: الّذي فُصِل عن أمّه، وأصبح قادراً على أنْ يأكل، وأن يعيش دون مساعدتها، وحتّى عمليّة فصال الولد عن أمّه فيها مشقّة وألم للأمّ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أنّ للأمّ الدّور الأكبر وعليها العبء الأكبر في مسألة الأولاد؛ لذلك كان لها الحظّ الأوفر في الوصيّة هنا، وفي وصيّة النّبيّ ﷺ للصّحابيّ الّذي سأل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(١)، فأعطى كلّاً منهما على قدر ما قدَّم، ومسألة الفصال هذه شُرحت في آيات أخرى، ففي سورة البقرة: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٣٣]، وهذه تؤكّد: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، وفي آية أخرى تجمع الحمل والرّضاعة معاً: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، وبخصم العامين من الثّلاثين شهراً يكون الباقي ستّة أشهر، وهي

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الأدبِ، بابٌ: مَنْ أحقُّ النّاسِ بحُسْنِ الصُّحبَةِ، الحديث رقم (٥٩٧١).

أقلّ مدّة للحمل، وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام عليّ -كرّم الله وجهه- حينما رأى عُمَر رضي الله عنه يريد أن يُقيم الحدّ على امرأة ولدتْ لستّة أشهر؛ لأنّه اعتقد أنّ مدّة الحمل تسعة أشهر، فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، الله يقول غير ذلك، فقال: وماذا يقول الله سبحانه وتعالى؟ فذكر عليٌّ الآيتين السّابقتين: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، والأخرى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، ثمّ بيَّن له عليٌّ رضي الله عنه أنّ أقلَّ مدّة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستّة أشهر، فقال عمر رضي الله عنه: "بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن".

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾: فالله سبحانه وتعالى هو المستحقّ للشّكر أوّلاً؛ لأنّه جل جلاله هو الّذي أنشأ من عدم، وأمدَّ من عُدْم، ثمّ الوالدان؛ لأنّهما السّبب في الإيجاد وإنشاء الولد، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ أي: على الإيجاد، لكن في موضع آخر قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٢٤]، وهذه للإيجاد والتّربية والرّعاية، فكما أنّ هناك أبوّةً للإيجاد هناك أبوّة للتّربية، فكثيراً ما نجد الطّفل يربّيه غير أبيه وغير أمّه، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشّكر والولاء والبرّ ما دام أنّ الله سبحانه وتعالى ذكرهم في العلّة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٢٤]، والعلّة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً، فإذا لم يكُنْ للأب الحقيقيّ وجود، فالأبوّة لمن ربَّى، وله حقوق الأب نفسها من حيث الشّكْر والبرّ والمودّة، بل ينبغي أن يكون حقُّه مضاعفاً؛ لأنّ في الأب الحقيقيّ عطف البُضع على البُضع، وفي الأب المربّي عطف الدّين على الدّين، وهذه مسألة أخرى غير مجرّد الأبوّة، لكن، هل شكر الله عز وجل أوّلاً دُرْبة على أنْ تشكر الوالدين، وهما السّبب المباشر في

وجودك؟ أم أنّ شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله جل جلاله الّذي خلقك وأوجدك؟ نقول: هما معاً، فشُكْر الله سبحانه وتعالى يستلزم شكْر الوالدين، وشكر الوالدين ينتهي إلى شُكْر الله عز وجل، قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ»(١).

﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾: أي: المرجع، والمعنى: أنّني أوصيك بأهمّ شيء فاحذر أنْ تخالف وصيّتي؛ لأنّني أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف.

(الآية ١٥) - ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾: يؤكّد الحقّ سبحانه وتعالى على أمر الوالدين، وكأنّه جل جلاله استدرك غير مُستدرَك، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله عز وجل، وكأنّ واحداً كان يناقش رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الوالدين وما نزل في شأنهما، فسأل: كيف لو أمراني بالكفر، أأكفر طاعةً لهما؟ لذلك جاء الحكم من الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة.

﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾: وفي آية العنكبوت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت]، فذكر فيها: ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ [العنكبوت: من الآية ٨]، ولم يقل فيها: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾، فكأنّ كلمة: الحُسْن، وهي الوصف الجامع لكلّ مدلولات الحُسْن، أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف.

---

(١) شُعَب الإيمان: ج ١٠، برّ الوالدين، الحديث رقم (٧٤٤٦).

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾: نقول: جاهد وجهد، جهد؛ أي: في نفسه، أمّا جاهد ففيها مفاعلة مع غيرك، نقول: جاهد فلان فلاناً، مثل قاتل، فهي تدلّ على المشاركة في الفعل، كما لو قلنا: شارك عمرو زيداً، فكلّ منهما فاعل، وكلّ منهما مفعول، لكن تغلب الفاعليّة في واحد، والمفعوليّة في الآخر.

فمعنى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾: لا تعني مجرّد كلمة عَرَضَا فيها عليك أن تشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنّما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهما في الشّرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فإن حدث منهما ذلك: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، ثمّ إيّاك أنْ تتّخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سبباً في اللّدد معهما، أو قطع الرّحم، فحتّى مع الكفر يكون لهما حقّ عليك: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾، ثمّ إنّهما كفرا بي أنا، وأنا الّذي أوصيك بهما معروفاً.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾: أي: لن تكون وحدك، إنّما سبقك أُناسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾: أي: مأواكم جميعاً.

سبب النّزول: قالوا: إنّ هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الّذي قال فيه رسول الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: «**ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**»(١)، وقال عنه ﷺ: «**هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ**»(٢)، ولمّا أسلم سعد غضبت أمّه، ففي صحيح مسلم: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَداً حَتَّى يَكْفُرَ بِدينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ المَناقِبِ، بابُ مَناقِبِ سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الحديث رقم (٣٧٥٥).
(٢) سنن التّرمذيّ: أبوابُ المَناقِبِ، بابُ مَناقِبِ سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الحديث رقم (٣٧٥٢).

أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا، قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثاً حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ: عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، وَفِيهَا: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٥] [(١)]، ولو أنّ الّذي يكفر بالله ﷻ ويريد لغيره من المؤمنين أنْ يكفر معه، كابن أو غيره، ثمّ يرى وصيّة الله ﷻ به مع كفره، لعلم أنّ الله ﷻ ربّ رحيم لا يستحقّ منه هذا الجحود، ولنتأمّل عظمة الأسلوب في قوله ﷻ: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾، فلم يقل مثلاً: (أعطهم معروفاً)، إنّما جعل المعروف مصاحبة تقتضي متابعتهما وتفقُّد شأنهما، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه، ويعطيهما قبل أنْ يسألا، فلا يلجئهما إلى ذُلّ السّؤال، وهذا في ذاته إحسان آخر، والحقّ ﷻ حين يقول بعد الوصيّة بالوالدين: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، إنّما لينبّهنا أنّ البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك، إنّما سيُكتب لك، وسيكون في ميزانك؛ لأنّك أطعتَ تكليف الله ﷻ وأمره، وأدَّيْتَ، فلك الجزاء.

(الآية ١٦) - ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾:

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: نداء أيضاً للتّلطّف والتّرقيق.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾: يريد لقمان أن يدلّ ولده على صفة

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فَضائِلِ الصَّحابةِ ﷺ، بابٌ فِي فَضْلِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ، الحديث رقم (١٧٤٨).

من صفات الله ﷻ، هي صفة العلم المطلق الّذي لا تخفى عليه خافية، وكأنّه يقول له: إيّاك أن تظنّ أنّ ما يخفى على النّاس يخفى على الله ﷻ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]، وكما أنّ الله ﷻ لا يخفى عليه مثقال حبّة من خردل، حتّى إن كانت في باطن صخرة، أو في السّموات، أو في الأرض، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيّئة مهما دَقَّتْ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: أي: وزن حبّة الخردل، وكانت أصغر شيء وقتها، فجعلوها وحدة قياس للقلّة، وليس لنا الآن أن نقول: وهل حبّة الخردل أصغر شيء في الوجود؟ فالقرآن الكريم ذكرها مثالاً للصّغَر على قدر معرفة النّاس بالأشياء عند نزوله، أمّا من حيث التّحقيق فقد ذكر القرآن الكريم الذّرّة والأقلَّ منها، لذلك لمّا اخترعوا في ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد؛ أي: الجزء الّذي لا يتجزّأ، واستطاعوا تفتيت الذّرّة، ظنّوا أنّ في هذه العمليّة مأخذاً على القرآن الكريم، فقد ذكر القرآن الكريم الذّرّة، وجعلها مقياساً دينيّاً في قوله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ٨﴾ [الزّلزلة]، لكن لم يذكر الأقلَّ منها، ومعلوم أنّ الجزء أصغر من كلّه، ونقول لهم: قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله ﷻ لعلمتم أنّ فيه احتياطاً لما توصّلتم إليه، ولما ستتوصّلون إليه فيما بعد، واقرؤوا إن شئتم قول الله ﷻ عن الذّرّة: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ٦١﴾ [يونس: من الآية ٦١].

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾: أي: على حبكة الوجود، وفي أضيق مكان.

﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: يعني: في المتّسع الّذي لا حدود له، فلا في الضّيّق المحكم، ولا في المتّسع يخفى على الله ﷻ شيء.

﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾: واستصحب حيثيّات الإتيان بها بوصفين لله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾: وجمع بين هاتين الصّفتين؛ لأنّك قد تكون خبيراً بالشّيء عالماً بمكانه، لكنّك لا تستطيع الوصول إليه، كأنْ يكون في مكان ضيّق لا تنفذ إليه يدك، وعندها تستعين بآلة دقيقة، فالخبرة موجودة، لكن ينقصك اللّطف في الدّخول، والحقّ ﷻ لطيف، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها، فهو عليم خبير بكلّ شيء مهما صغر، قادر على الإتيان به مهما دقَّ؛ لأنّه لطيف لا يمنعه مانع، فصفة اللّطف هذه للتّغلغل في الأشياء، ونحن نعلم أنّ الشّيء كلّما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتّى في المخلوقات الضّارّة، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً في الخلاء، وأراد أنْ يؤمّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضّارّة، فوضع على النّوافذ شبكة من الحديد تمنع اللّصوص والحيوانات الكبيرة، ثمّ تذكّر الفئران والثّعابين فضيّق الحديد، ثمّ تذكّر الذّباب والنّاموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقّ، فكلّما كان عدوّك لطيفاً دقيقاً كان أعنف، واحتاج إلى احتياط أكثر، فقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ يعني: لا يعوزه علم بالمكان، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء.

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده، ولم يأمره حتّى الآن بشيء من التّكاليف، إنّما حرص أنْ يُنبّهه: أنّك قد آمنت بالله ﷻ وبلغَك منهجه واستمعت إليه، فأطع ذلك المنهج في: (افعل) و(لا تفعل)، لكن

قبل أنْ تباشر منهج ربّك في سلوكك، اعلم أنّك تتعامل مع إله قيّوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يغيب عنه شيء، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد، وإيّاك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنّك لا ترى الله ﷻ، فإنّك إنْ لم تكُنْ تراه فإنّه يراك، واعلم أنّ عملك محسوب عليك، وإنْ كان في صخرة صمّاء ضيّقة، أو في سماء، أو في أرض شاسعة.

(الآية ١٧) - ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾:

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصّلاة، والصّلاة هي الرّكن الأوّل بعد أنْ نشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وعلمنا أنّ الصّلاة لأهمّيّتها فُرِضت بالمباشرة دون وساطة جبريل عليه السلام، ولأهمّيّتها جُعِلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال، أمّا بقيّة الأركان فقد تسقط لسبب أو لآخر، كالصّوم والزكاة والحجّ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْق معك إلّا الشّهادتان والصّلاة؛ لذلك جعلها النّبيّ ﷺ عماد الدّين، ولذلك بدأ بها لقمان:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فهي استدامة إعلان الولاء لله سبحانه وتعالى خمس مرّات في اليوم واللّيلة، فحين يناديك ربّك: (الله أكبر) فلا ينبغي أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق، واحذر إذا ناداك ربّك ﷻ ألّا تجيب. ثمّ تأمّل النّداء للصّلاة الّذي اهتدتْ إليه الفطرة البشريّة السّليمة، وأقرّه سيّدنا رسول الله ﷺ: (الله أكبر الله أكبر)، يعني أكبر من كلّ ما يشغلك عنه، فإيّاك أن تعتذر

بالعمل في أيّ شيء عن إقامة الصّلاة، وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ الصّلاة أوّل اكتمال في الإجماع لمنهج الله ﷻ، وبها يكتمل إيمان الإنسان في ذاته، وسبق أن قلنا: إنّ هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم، أركان الإسلام هي الخمسة المعروفة، أمَّا أركان المسلم فهي الملازمة له الّتي لا تسقط عنه بحال، وهي الشّهادتان والصّلاة.

ثمّ يبيّن لقمان لولده: أنّ الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الرّكنين الأساسيّين، الإيمان وإقام الصّلاة، ونلحظ أنّ هذه الآية لم تقرن إقامة الصّلاة بإيتاء الزكاة كعادة الآيات، فغالباً ما نقرأ: ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: من الآية ٤٣]، وعندما نتأمّل، نجد هذا من دقائق الأسلوب القرآنيّ، فالقرآن الكريم يحكي هذه الوصايا عن لقمان لولده، فالأب عندما يعظ ولده ويوصيه لا يطالبه بأداء الزكاة؛ لأنّ الزكاة تكون على الأب، فهو الّذي يزكّي عن المال، لقول النّبيّ ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»[1]، لذلك لم تأت هنا الوصيّة بالزكاة.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: انشغل بعد كمالك بإقامة الصّلاة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فبالصّلاة كملت في ذاتك، وبالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تنقل الكمال إلى غيرك، وفي هذا كمال الإيمان، وحين نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر لا نظنّ أنّنا نتصدّق على الآخرين، إنّما نؤدّي عملاً يعود نفعه علينا، فعندما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، سيكون المجتمع مجتمعاً متواصيا متراحماً، فلا يقصّر غيرك، فمنهج الله ﷻ فيه راحة للمجتمع كلّه،

(١) سنن ابن ماجه: كتابُ التّجاراتِ، بابُ ما للرَّجُلِ مِنْ مالِ ولدِهِ، الحديث رقم (٢٢٩١).

لا يشقى به أحد إلّا من خرج عن منهجه ﷻ، فالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، يكون كما قال النّبيّ ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)، والسّؤال هنا: إن جاءك إنسان يُدخّن مثلاً فهل تضربه بيدك، وتقول له: أنا أنهاك عن منكر؟! الجواب: لا، بل تنصحه، فالتّواصي والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ليس كما يعتقد بعض النّاس، فالله ﷻ أمرنا أن نغيّر المنكر، لكنّه جعل لهذا التّغيير تقديراً، فالدّين يريد منك أن تُصلِح، لكنّ طريقة الإصلاح تكون بسلطة المغيِّر على المغيَّر، فإذا كان لك ولاية على صاحب المنكر، كأن يكون ابنك، قد تغيِّر المنكر بيدك، أمّا إن لم يكن لك ولاية عليه فهل تضربه؟ بالتّأكيد لا، بل بالكلمة الطّيّبة تداوي بها دون أن تجرح الآخرين، ودون أن يؤدّي النّصح إلى فتنة، فيكون ضرره أكثر من نفعه، فدرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، فإن لم تستطع باللّسان فليكن التّغيير بالقلب، ولو كنت لا تملك إلّا أن تقول: اللّهمّ إنّ هذا منكر لا يُرضيني، لكن هل يُعَدّ عمل القلب تغييراً للمنكر، وأنت مُطالَب بأنْ تُغيِّره بيدك، يعني: إلى ضدّه؟ وهل هذه الكلمة تغيِّر من الواقع شيئاً؟ قال العلماء: لا يحدث التّغيير بالقلب إلّا إذا كان القالب تابعاً للقلب، فالقلب يشهد أنَّ هذا منكر لا يُرضي الله ﷻ، والقالب يساند حتّى لا تكون منافقاً، فأنت أنكرتَ عليه الفعل، ولا استطاعة لك على أنْ تمنعه، ولا أن تنصحه، فلا أقلَّ من أنْ تعزله عن حياتك وتقاطعه، وإلّا فكيف تُغيِّر بقلبك

(١) صحيح مسلم: كتابُ الإيمان، باب ٢٠، الحديث رقم (٤٩).

إنْ أنكرتَ عليه فعله وأبقيتَ على معاملته؟ فلا يكون التّغيير بالقلب إلّا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنّه قد عُزِل، فأنت لا تَبِعْ له ولا تشتر منه.. إلخ، وما استشرى الباطل وتَبجّح أهل الفساد وأهل المنكر إلّا لأنّ النّاس لم يعملوا بهذه الوصيّة النّبويّة؛ لأنّهم خافوا من الباطل ومن الظّلم، فالتّغيير بالقلب ليس كلمة تقال، إنّما فعل وموقف، وقد علَّمنا ربّنا سبحانه وتعالى هذه القضيّة في قوله جل جلاله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النّساء]. ثمّ يقول لقمان لولده:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾: أوصى بالصّبر بعد الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ لأنّ الّذي يتعرّض لهذين الأمرين لا بُدَّ أن يصيبه سوء من جرّاء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر، فإنْ تعرّضتْ للإيذاء فاصبر؛ لأنّ هذا الصّبر يعطيك جزاءً واسعاً.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: نقول: فلان له عزم، ونسمع القرآن الكريم يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٩]، العزم: الفرض المقطوع به، الّذي لا مناص عنه، ومنه ما جاء في قول لقمان لمّا خيَّره ربّه سبحانه وتعالى بين أن يكون رسولاً أو حكيماً، فاختار الرّاحة وترك الابتلاء، لكنّه قال: يا ربّ إنْ كانت عزمة منك فسمعاً وطاعة، يعني: أمراً مفروضاً. والعزم يعني شحن كلّ طاقات النّفس للفعل والقطع به، فالصّلاة على الميّت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة؛ لأنّها فرض كفاية إنْ فعلها بعضهم سقطتْ عن الباقين، على خلاف الصّلاة التّامّة في السّفر مثلاً، حيث يعدّها الإمام أبو حنيفة عزيمة لا رخصة، فإن أتممت الصّلاة في السّفر أسأْت، عملاً بقول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ

الله ﷻ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»[1]، والمعنى: لا تردّ يد الله ﷻ المبسوطة لك بالتّيسير في الصّلاة أثناء السّفر.

(الآية ١٨) - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: معنى: ﴿تُصَعِّرْ﴾ من الصَّعَر، وهو في الأصل داء يُصيب البعير يجعله يميل برقبته، ويشبّه به الإنسان المتكبّر الّذي يميل بخدّه، ويُعرض عن النّاس تكبّراً، فقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، كأنّ الحقّ ﷻ يُنبّهنا أنّ التّكبُّر وتصعير الخدّ داء، فهذا داء جسديّ، وهذا داء خلقيّ، والإنسان عادة لا يتكبّر إلّا إذا شعر في نفسه بميزة عن الآخرين، بدليل أنّه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صَعره، ولنا مَلْحظ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، فكلمة: ﴿لِلنَّاسِ﴾ هنا لها مدخل، وكأنّ الله ﷻ يقول لمن يُصعِّر خدّه: لا تَدْعُ النّاس إلى العصيان والتّمرّد على أقدار الله ﷻ بتكبُّرك عليهم، وإظهار مزاياك وسَتْر مزاياهم، فقد تصادف قليلَ الإيمان الّذي يتمرّد على الله ﷻ، ويعترض على قدره فيه، حينما يراك متكبّراً متعالياً، وهو حقير متواضع، فإنْ كنت محترف تكبُّر، فليكُنْ ذلك بينك وبين نفسك، أمّا أمام النّاس هذا داء كبير، فكلمة: ﴿لِلنَّاسِ﴾ تعني: أنّ الله ﷻ يريد أنْ يمنع رؤية النّاس لك على هذا الحال؛ لأنّك قد تفتن الضّعاف في دينهم وفي رضاهم عن ربّهم ﷻ.

---

(١) السّنن الكبرى للبيهقيّ: جُمَّاعُ أبوابِ صلاةِ المسافرِ والجمْعِ في السّفرِ، بابُ كراهيَةِ ترْكِ التّقصيرِ، والمَسْحِ على الخُفّينِ، وما يكونُ رُخْصَةً رَغْبَةً عنِ السُّنَّةِ، الحديث رقم (٥٤١٥).

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾: المرح هو الاختيال والتّبختر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يمنع الإنسان أنْ يمشي في الأرض، لكن يمنعه أنْ يمشي مِشيْة المتعالي على النّاس، المختال بنفسه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأمرنا: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: من الآية ١٥]، فالمشي في الأرض مطلوب، لكن بهيئة خاصّة تمشي مَشْياً سويّاً معتدلاً، فقد رأى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رجلاً يسير متماوتاً فنهره، وقال: ما هذا التّماوت يا هذا، وقد وهبك الله عافية، دَعْها لشيخوختك، ورأى رجلاً يمشي مشية قُطَّاع الطّرق فنهاه عن القفز أو الجري والإسراع في المشي، فالمطلوب في المشي هيئة الاعتدال، وسيأتي في قول لقمان: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: من الآية ١٩]، يعني: لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت، ولا تقفز قفز أهل الشّرّ وقُطَّاع الطّريق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾: المختال: هو الّذي وجد له مزيّة عند النّاس، والفخور الّذي يجد مزيّة في نفسه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يحبّ هذا ولا ذاك؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد التّواضع بين النّاس، وأنْ يحكم النّاس بمبدأ المساواة؛ ليعلموا أنّه تعالى ربُّ الجميع، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المتكبّر وحده في الكون، وإذا كان الكبرياء لله جَلَّ جَلَالُهُ وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبَّر علينا غيره.

(الآية ١٩) - ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾:

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾: القصد: هو الإقبال على الحدث، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين، يعني: توسّطاً واعتدالاً، هذا في المشي.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾: أي: اخفضه وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأُذُن.

لكن، لماذا جمع السّياق القرآنيّ بين المشي والصّوت؟ قالوا: لأنّ للإنسان مطلوبات في الحياة، هذه المطلوبات يصل إليها، إمّا بالمشي -فأنا لا أمشي إلى مكان إلّا إذا كان لي فيه مصلحة وغرض-، وإمّا بالصّوت، فإذا لم أستطع المشي إليه ناديته بصوتي، فإمّا تذهب إلى مطلوبك، أو أنْ تستدعيه إليك، والقصد؛ أي: التّوسّط في الأمر مطلوب في كلّ شيء؛ لأنّ كلّ شيء له طرفان، لا بُدَّ أن يكون في أحدهما مبالغة، وفي الآخر تقصير.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾: بعض النّاس يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير، وعادة ما يتّهم البشرُ الحميرَ بالغباء والذّلّة، ولو تأمّلنا طبيعة الحمير لوجدنا كم هي مظلومة مع البشر، فالحمار تجعله لحمل القاذورات، وتتركه ينام في الوحل فلا يعترض عليك، وتريده دابّة للرّكوب فتنظّفه وتضع عليه السّرْج، وفي فمه اللّجام، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمّر أو اعتراض، لذلك يجب أن نفهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾، فنهيق الحمار ليس مُنكَراً من الحمار، إنّما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمار، فكأنّ نهيق الحمار كمال فيه، وصوتك الّذي يشبهه مُنكَر مذموم فيك، فالاعتدال في الصّوت أمر ينبغي أن يتحلّى به المؤمن حتّى في الصّلاة والتّعبّد، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ [الإسراء: من الآية ١١٠]، وبعد أنْ عرضتْ لنا الآيات طرفاً من حكمة لقمان ووصاياه لولده تنقلنا إلى معنى كونيّ جديد:

(الآية ٢٠) - ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: التّسخير: هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمّة يؤدّيها بلا اختيار في التّنقُّل منها، كما سخّر الله عزّ وجلّ الشّمس والقمر.. إلخ، فمع أنّ كثيراً من النّاس منصرفون عن الله سبحانه وتعالى وعن منهجه جلّ جلاله، لم تتأبَّ الشّمس في يوم من الأيّام أنْ تشرق عليهم، ولا امتنع عنهم الهواء، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السّماء بمائها، لماذا؟ لأنّها مُسخَّرة لا اختيارَ لها، ولا نفهم من ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها، فهذا فهم سطحيّ لهذه المسألة، حيث يرى بعضهم أنّ الإنسان فقط هو الّذي خُيِّر، إنّما الحقيقة أنّ الكون كلّه خُيِّر، وهذا واضح في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، فالجميع خُيِّر، خُيِّرت السّموات والأرض والجبال، فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادةَ لها، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً؛ لأنّ له عقلاً يفكّر به، ويقارن بين البدائل.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾: أسبغ: أتمّ وأكمل، ومنها قوله سبحانه وتعالى عن سيّدنا داود عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: من الآية ١١]؛ أي: دروعاً ساترة محكمة تقي لابسها من ضربات السّيوف وطعنات الرّماح، والدّروع تُجعل على الأعضاء المهمّة من الجسم، كالقلب والرّئتين، وقد علَّم الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام

أن يصنع الدّروع على هيئة الضّلوع، ليست ملساء، إنّما فيها نتوءات تتحطّم عليها قوّة الضّربة، فمعنى: أسبغ علينا النّعمة: أتمّها إتماماً يستوعب حركة حياتنا كلّها، وأمدّنا دائماً بمقوّمات هذه الحياة، بحيث لا ينقصنا شيء، لا في استبقاء الحياة، ولا في استبقاء النّوع؛ لأنّ الّذي خلق ﷻ يعلم كلّ ما يحتاجه المخلوق، فآفة العالم ليس في أنّه لا يجد، إنّما في أنّه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ومن مُقوّمات لله ﷻ في كونه، فقوله ﷻ: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ هذه حقيقة لا ينكرها أحد، فهل تنكرون أنّه خلقكم، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون؟ هل تنكرون أنّه خلق السّموات بما فيها من الكواكب والمجرّات، وخلق اللّيل فيه منامكم، والنّهار فيه سعيكم على معايشكم؟ ثمّ في أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواسّ الظّاهرة وغير الظّاهرة، وجعل لكلّ منها مجالاً ومهمّة تؤدّيها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله ﷻ في جسمك من الآيات والمعجزات، وكلّ يوم يطلع علينا العلم بجديد من نِعَم الله ﷻ علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا.

﴿ظَٰهِرَةٗ﴾: أي: الّتي ظهرتْ لنا.

﴿وَبَاطِنَةٗۗ﴾: لم نصل إليها بعد، ومن نِعَم الله ﷻ علينا ما ندركه، ومنها ما لا ندركه، أمّا النّعم الباطنة فمنه ما يُكتشف في مستقبل الأيّام، فمنذ عدّة سنوات أو عدّة قرون لم نكُنْ نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً، ولا عن السّيّارات وآلات النّقل وعصر العجلة والبخار.. إلخ، فكلّها نِعَم ظاهرة لنا الآن، وكانت مستورة قبل ذلك، أظهرها النّشاط العلميّ والبحث والاستنباط

من معطيات الكون، وحين تحسب ما أظهره العلم من نِعَم الله ﷻ تجده حوالي ٣٪، ونسبة ٩٧٪ عرفها الإنسان بالصّدفة.

وقال ﷻ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ لأنّ الظّاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله ﷻ واجب الوجود الأعلى، والباطنة يدّخرها الله ﷻ لمن يأتي بعد، ثمّ يدّخر ادّخاراً آخر، بحيث لا يظهر إلّا حين نكون مع الله ﷻ في جنّته، ومن أعظم النّعم علينا أن يحجب الله ﷻ الغيب عن خَلْقه، ولو خيَّرتَ أيَّ إنسان: أتحبّ أن تعرف غَيْب النّاس، ويعرفوا غيبك؟ فلا شكَّ في أنّه لن يرضى بذلك أبداً، كما قيل: "لو تكاشفتم ما تدافنتم"، يعني: لو ظهر المستور من غيب الإنسان، واطّلع النّاس على ما في قلبه لتركوه إنْ مات لا يدفنونه، ولقالوا: دَعُوه للكلاب تأكله، جزاءً له على ما فعل، لكن لمّا ستر الله ﷻ غيوب النّاس، وجدنا حتّى عدوّ الإنسان يُسرع بحمله ودفنه، كما قال القائل: محا الموت أسباب العداوة بيننا، لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيوب الآخرين، وأنْ يتتبّعَ عوراتهم، فهل ترضى أنْ يعاملك النّاس بالمثل، فيتتبّعون عوراتك، ويبحثون عن عيوبك؟ قال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ**»(١)، ثمّ إنّ سيّئة واحدة يعرفها النّاس عنك كفيلة أن تُزهّدهم في حسناتك كلّها، والله ﷻ يريد أنْ ينتفع النّاس بعضهم ببعض ليثري حركة الحياة.

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبوابُ البرِّ والصّلَةِ، بابُ ما جاءَ في تعظِيمِ المُؤْمِنِ، الحديث رقم (٢٠٣٢).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: المجادلة: الحوار في أمر، لكلّ طرف فيه جنود، وكلّ منهم لا يؤمن برأي الآخر، والجدل لا يكون إلّا في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ويسمّونه الجدل الحتميّ، وهذا يكون موضوعيّاً لا لَددَ فيه، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير، وفيه نقابل الرّأي بالرّأي ليثمر الجدال، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٦]، أمّا الجدل الّذي يريد فيه كلّ طرف أنْ يُعلي رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شيء، والجدل مأخوذ من الجَدْل؛ أي: الفَتْل، والشّيء حين يُفتل على مثله يقوّيه، كذلك الرّأي في الجدل يُقوّي الرّأي الآخر، فإذا ما انتهيا إلى الصّواب تكاتفا على إظهاره وتقويته، فالمراد من الجدل تقوية الحقّ وإظهاره، فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كلّ طرف على أن يعلي رأيه ولو بالباطل، والحقّ ﷻ يبيّن لنا أنّ من النّاس من أَلِفَ الجدل في الله ﷻ على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير، فيقولون مثلاً في جدالهم: أللكون إله موجود؟ وإنْ كان موجوداً، أهو واحد أم متعدّد؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيّات أم الكلّيّات؟ أيزاول مُلْكه كلّ وقت؟ أم أنّه خلق القوانين، ثمّ تركها تعمل في الكون وتُسيّره؟ كأنّ الله ﷻ زاول سلطانه في المُلْك مرّة واحدة.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾: العلم أن تعرف قضيّة وتجزم بها، وهي واقعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها، فإنْ كانت القضيّة الّتي تؤمن بها غير واقعة، فهذا هو الجهل، فالجاهل لا يوضع في مقابل العالم؛ لأنّ الجاهل لديه علم بقضيّة لكنّها باطلة، وهذا يُتعِبك في الإقناع؛ لأنّه ليس خالي الذّهن، فيحتاج أوّلاً أنْ

تُخرج من ذِهنْه القضيّة الباطلة، وتُحِلّ محلّها القضيّة الصّحيحة، أمّا الأُمّيّ فهو خالي الذِّهن من أيّ قضيّة، وإنْ كانت القضيّة الّتي تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها، كالولد الصّغير الّذي علّمناه أنّ: (الله أحد) واستقرّتْ في ذهنه هذه المسألة؛ لأنّ أباه أو معلّمه لقَّنه هذه القضيّة حتّى أصبحتْ عقيدة عنده، فالّذي يُدلِّل عليها مَنْ لقَّنها له إلى أنْ يكبر، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها.

والعلم أنواع، منها وأوّلها: العلم البديهيّ الّذي نصل إليه بالبديهة دون بحث، فمثلاً حين نرى الإنسان يتنفّس نعلم أنّه حيٌّ بالبديهة، ونعلم أنّ الواحد نصف الاثنين، وأنّ السّماء فوقنا، والأرض تحتنا.. إلخ، وإذا نظرنا إلى معلومات الأرض كلّها، نجد أنّ أمّ هذه المعلومات البديهة، فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريّات تستخدم الأولى منها مقدّمة لإثبات الثّانية، والثّانية مقدّمة لإثبات الثّالثة..، وحين نعيد تسلسل النّظريات الهندسيّة فإنّنا لا بُدَّ أن نعود إلى النّظرية الأولى، نقول: إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان، فأعقد النّظريّات لا بُدَّ أن تعود إلى أمر بديهيّ منثور في كون الله ﷻ، المهم مَنْ يلتفت إليه، وقد قال الحقّ ﷻ: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف]، فقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: وجوداً وصفاتاً، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، يعني: أنّ الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً، إنّما مراء لا طائلَ من ورائه.

﴿وَلَا هُدًى﴾: الهدى: أي: الاستدلال بشيء على آخر، كالعربيّ الّذي

ضَلَّ في الصّحراء، فلمّا رأى على الرّمال بَعْراً وأثراً لأقدام استأنس بها، وعلم أنّه على طريق مطروق، ولا بُدَّ أن يمرَّ به أحد، فلمّا عرضتْ له قضيّة الإيمان استدلّ عليها بما رأى، فقال: البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، نجوم تزهر، وبحار تزخر.. أَلا يدلّ ذلك على اللّطيف الخبير؟! فالإنسان حين ينظر في الكون وفي آياته لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخالق ﷻ، هذه هي الآيات الّتي نأخذها بالأدلّة، لكنّ هذه الأدلّة لا تُوصِلنا إلّا إلى أنّ لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً، لكنّ العقل لا يصل بالإنسان إلى هذا الخالق: مَنْ هو، وما اسمه؟ فلا بُدَّ من بلاغ عن الله ﷻ على يد رسول يبلّغنا مَنْ هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته، وماذا أعدّ لمن أطاعه، وماذا أعدَّ لمن عصاه؟ وفَرْق بين التّعقُّل والتّصوُّر، والّذي أتعب الفلاسفة أنّهم خلطوا بينهما، فالتّعقّل أن أنظر في آيات الكون، وأرى أنّ لها موجداً، أمّا التّصوّر فأنْ أتصوّر هذا الموجِد: شكله، اسمه، صفاته.. إلخ، وهذه لا تتأتّى بالعقل، إنّما بالرّسول الّذي يأتي من قِبَل الإله الموجد، وسبق أن ضربنا مثلاً -ولله تعالى المثل الأعلى-، قلنا: لو أنّنا نجلس في مكان مُغلَق، وطرق الباب طارق، فكلّنا يتّفق على أنّ طارقاً بالباب لا خلاف في هذه، لكن نختلف في تصوُّره، فواحد يتصوّر أنّه رجل، وآخر يقول: طفل، وآخر يتصوَّره امرأة، وواحد يتصوّره بشيراً، وآخر يتصوّره نذيراً.. إلخ، فاتّفقنا في التّعقُّل، واختلفنا في التّصوّر، ولكي نعرف مَن الطّارق فعلينا أن نقول: مَن الطّارق؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا مَنْ هو؟ ولماذا جاء؟ ويُنهي لنا هذا الخلاف، كذلك الحقّ سبحانه وتعالى

هو الّذي يخبرنا عن نفسه، لكن كيف يتمّ ذلك؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلّى الله ﷻ عليه بالخطاب، بأن يكون مُعدّاً لتلقّي هذا الخطاب، لا أنْ يخاطب كلّ النّاس.

(الآية ٢١) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: كلمة: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عامّة تشمل كلّ الكتب المنزَّلة، وأقرب شيء في معناها أن نقول: اتّبعوا ما أنزل الله ﷻ على رسلكم الّذين آمنتم بهم، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله ﷺ وأقررتم برسالته.

أو: يكون المعنى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تصحيحاً للأوضاع، واعرضوه على عقولكم وتأمّلوه.

لكن يأتي ردّهم: ﴿بَلۡ﴾، وهي تفيد إضرابهم عمّا أنزل الله ﷻ.

﴿نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾: وفي آية أخرى: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٠]، فما الفرق بين: ﴿وَجَدۡنَا﴾ و﴿أَلۡفَيۡنَا﴾؟ قالوا: إنّ أعمار المخاطبين مختلفة في صُحْبة آبائهم والتّأثّر بهم، فبعضهم عاش مع آبائه يُقلِّدهم فترة قصيرة، وبعضهم عاصر الآباء فترة طويلة حتّى أَلِف ما هم عليه وعشقه؛ لذلك قال القرآن الكريم مرّة: ﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ ومرّة: ﴿وَجَدۡنَا﴾، والاختلاف الثّاني نلحظه في اختلاف تذييل الآيات، فمرّة يقول: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: من الآية ١٧٠]، ومرّة أخرى

يقول: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]، فما الفرق بين: يعقلون ويعلمون؟ الجواب: الّذي يعقل هو الّذي يستطيع بعقله أنْ يستنبط الأشياء، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطيّ عرف المسألة ممَّنْ يستنبطها، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل؛ لأنّ العقل يعلم ما عقله، أمّا العلم فيعلم ما عقله هو وما عقله غيره، فقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ تشمل أيضاً: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، فإذا نُفي العقل لا يُنفى العلم؛ لأنّ غيرك يستنبط لك، فالرّجل البسيط يستطيع أن يدير التّلفاز مثلاً، ويستفيد منه، ويتجوّل بين قنواته، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الّذي بين يديه، إنّما تعلّمه من الّذي يعلمه، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته، ويعلم ما يعقله غيره، ويؤدّيه إليه؛ لذلك فنَفْي العلم دليل على الجهل المطبق الّذي لا أملَ معه في إصلاح الحال.

ونلحظ أيضاً أنّ القرآن الكريم يقول هنا: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، وفي موضع آخر يقول: ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]، فقولهم هنا: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، فيه دلالة على إمكانيّة اتّباعهم الحقّ، فالإنكار هنا بسيط، أمّا الّذين قالوا: ﴿حَسۡبُنَا﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]، يعني: يكفينا ولا نريد غيره، فهو دلالة على شدّة الإنكار؛ لذلك في الأولى نفى عنهم العقل، أمّا في الأخرى فنفى عنهم العلم، فعَجُز الآيات يأتي مناسباً لصدرها.

وهنا يقول جل جلاله في تذييل هذه الآية: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لأنّ آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر

بالله ﷻ إلّا بوسوسة الشّيطان، فالشّيطان قَدْر مشترك بينهم وبين آبائهم، وهذا يدلّنا على أنّ منافذ الإغواء مرّة تأتي من النّفس، ومرّة تأتي من الشّيطان، وبهما يُطمَس نور الإيمان ونور المنهج في نفس المؤمن، لكن نرى الكثيرين ممّن يقعون في المعصية يُلْقون بالتّبعة على الشّيطان وحده، فيقول الواحد منهم: لقد أغواني الشّيطان، ولا يتّهم نفسه، وهذا يكذّبه الحديث النّبويّ عن رمضان: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ»[1]، فلو أنّ المعاصي كلّها من قِبَل الشّيطان ما رأينا معصية في رمضان، ولا ارتكبت فيه جريمة، أمّا وأنّه تقع فيه المعاصي وتُرتَكب الجرائم، فلا بُدَّ أنّ لها سبباً آخر غير الشّيطان؛ لأنّ الشّياطين مُصفَّدة فيه، مقيّدة.

(الآية ٢٢) - ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾:

﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يعني: مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجدل بغير علم، وبغير هدى، وبغير كتاب منير، فعليه أنْ يُسلم وجهه إلى الله ﷻ؛ لأنّ الله ﷻ قال في آية أخرى عن الشّيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص]، ثمّ استثنى منهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الإسراء: من الآية ٦٥]، ومعنى: ﴿يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أخلص وجهه في عبادته لله ﷻ وحده، وبذلك يكون في معيّة الله ﷻ، ومَنْ كان في معيّة ربّه ﷻ فلا يجرؤ الشّيطان على غوايته، ولا

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّيامِ، بابُ فضلِ شهرِ رمضانَ، الحديث رقم (١٠٧٩).

يُضيّع وقته معه، إنّما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدّخول إليه، فالّذي ينجينا من الشّيطان أنْ نُسلِم وجهنا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا المعنى ورد أيضاً في قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: من الآية ١١٢]، وهنا قال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، فما الفرق بين حرفي الجرّ: (إلى) و(اللّام)؟ الجواب: استعمال (إلى) تدلّ على أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الغاية، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِل إليها، أمَّا (اللّام) فتعني الوَصْل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مباشرة دون قطع طريق، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلّا بدرجة عالية من الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: أنّك على الطّريق الموصِل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنّك تؤدّي ما افترضه عليك، ومن إسلام الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ قَوْل ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّمل: من الآية ٤٤]، والكلام هنا كلام ملكة، فلم تقل: أسلمتُ لسليمان، لكن: ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ﴾ [النّمل: من الآية ٤٤]، فلا غضاضة، وإسلام الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو إخلاص العمل لله عَزَّ وَجَلَّ عمليّة دقيقة تحتاج من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة؛ لأنّ النّفس لا تخلو من هفوة، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن سرعان ما تتدخّل النّفس بما لها من حبّ الصّيت والسّمعة، فيخالط العملَ شيء من الرّياء ولو كان يسيراً.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: فلا بدّ من الإحسان، والإحسان كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١)، وهذا قمّة الإخلاص والرّقابة.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ سُؤالِ جبريلَ النّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الإيمانِ، والإسلامِ، والإحسانِ، وعلمِ السَّاعةِ، الحديث رقم (٥٠).

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: كلمة: ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ تدلُّ على القوّة في الفعل، والتّشبُّث بالشّيء، وهي تعني: طلب أنْ يمسك؛ لذلك لم يَقُل: (مسكَ)، إنّما: ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾، وأوّل مظاهر الاستمساك أنّك لا تطمئنّ إلى ضعف نفسك، فيكون تمسّك بالعروة الوثقى أشدّ، كما لو أنّك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً، فتتشبّث به بشدّة؛ لأنّك إنْ تهاونت في الاستمساك به سقطت، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك، وأنّه لا ينُجيك من الهلاك، ولا واقي لك إلّا أنْ تستمسك بهذا الحبل، كذلك الّذي يُسْلِم وجهه لله ﷻ ويُمسِك بالعروة الوثقى، فليس له إلّا هذه مُنْجية وواقية.

﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾: العروة: هي اليد الّتي نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق، وهي الّتي تفرّق بين الكوب والكأس، فالكأس لا عروة لها، إلّا إذا شُرب فيها الشّراب السّاخن، فيجعلون لها يداً.

﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: أي: المحكمة، وهي تأنيث أوثق، نقول: هذا أوثق، وهذه وُثْقى، مثل: أصغر وصُغْرى، وهي تعني الشّيء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله، فإنْ كان دَلْواً فهي وُثْقى بالدّلو، وإنْ كان كوباً فهي وُثْقى بالكوب، فهي الموثقة الّتي لا تنقطع، ولا تنفصل عن أصلها.

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثِّق، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌّ، جاءت ضعيفة هشَّة، بمجرّد أنْ تمسك بها تنخلع في يدك، وهذا ما نسمّيه: الغشّ التّجاريّ، وهو احتيال لتكون السّلعة رخيصة يُقبِل عليها المشتري، ثمّ يكون المعوِّض في ارتفاع قطع الغيار، فإرادة عدم التّوثيق لها مقصد عند المنتفع، فإذا كان الموثِّق هو الله ﷻ فليس أوثق من عُرْوته، وفي موضع آخر يقول

الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنها: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، فالعروة الوُثْقى هي حبل الله عَزَّ وَجَلَّ المتين الّذي يجمعنا فلا نتفرّق؛ لذلك في الاصطلاح نسمّي الفتحة في الثّوب الّتي يدخل فيها الأزرار: (عروة)، لماذا؟ لأنّها هي الّتي تجمع الثّوب، فلا يتفرّق، وفي آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: مرجعها، فلا نظنّ أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقنا عبثاً، أو أنّه جَلَّ جَلَالُهُ يتركنا سُدىً: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون]، ولو تركنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلا حساب لكان المنحرف الّذي أعطى لنفسه شهواتها في الدّنيا أوفر حظّاً من المستقيم، وما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليغشَّ عبده الّذي آمن به، وسار على منهجه، أو يسلمه للظّلمة والمنحرفين، وإذا كانت لله جَلَّ جَلَالُهُ عاقبة الأمور؛ أي: في الآخرة، فإنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يترك لنا شيئاً من ذلك في الدّنيا نصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطّلّاب آخر العام لنميّز المجدّ من الخامل، وإلّا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد، ولم يتفوّق أحد؛ لذلك لا بُدَّ من مبدأ الثّواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة، فإذا كنّا نُجري هذا المبدأ في دنيانا، فلماذا نستنكره في الآخرة؟ فهل يليق بهذا العالَم الّذي خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الدّقّة؛ وكوّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا هَملاً يستشري فيه الفساد، ويرتع فيه المفسدون، ثمّ لا يُحاسبون؟ إن كانت هذه هي العاقبة، فيا خسارة كلّ مؤمن، وكلّ مستقيم في الدّنيا.

(الآية ٢٣) - ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾:

بعد أن بيَّن الله ﷻ أنّ إليه مرجع كلّ شيء ونهاية الأمور كلّها، أراد أن يُسلّي قلب رسوله ﷺ فقال:

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: أي: بعد ما قلناه من الجدل بالعلم والهدى والكتاب المنير، وبعد ما بيّناه من ضرورة إسلام الوجه لله ﷻ، مَنْ يكفر بعد ذلك:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾: وهذا القول من الله ﷻ لرسوله ﷺ يدلّ على أنّ الله ﷻ علم أنّ رسوله ﷺ يحبّ أن تكون أمّته كلّها مؤمنة، وأنّه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك، وقد كرّر القرآن الكريم هذا المعنى في عدّة مواضع، منها قوله ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]، وقوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشّعراء]، فالله ﷻ يريد أنْ يقول لرسوله ﷺ: أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد ذلك، وكثيراً ما نجد في القرآن الكريم عتاباً لرسول الله ﷺ في هذه المسألة، وهو عتاب لمصلحته لا عليه، كما تعاتب ولدك الّذي أجهد نفسه في المذاكرة خوفاً عليه، ومن ذلك قوله ﷻ معاتباً نبيّه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس]، والعتاب هنا لأنّ رسول الله ﷺ ترك الرّجل المؤمن الّذي جاءه يستفهم عن أمور دينه، وذهب يدعو الكفّار والمكذِّبين به، فكأنّه اختار الصّعب الشّاقّ، وترك السّهل اليسير، فالعتاب هنا عتاب لمصلحة الرّسول ﷺ لا ضدّه كما يظنّ بعضهم في فهمهم لهذه الآيات، كذلك الأمر في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التّحريم: من الآية ١].

﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾: يعني: إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم، وما ينزل بهم في الدّنيا، فسوف يرجعون إلينا، ونحاسبهم في الآخرة، كما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧]، فقوله ﷻ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ هذه هي الغاية النّهائيّة، وهذه لا تمنع أن نُريَك فيهم أشياء تُظهِر عزّتك وانتصارك عليهم، وانكسارهم وذِلّتهم أمامك، وهذا ما حدث يوم الفتح يوم أنْ دخل النّبيّ ﷺ مكّة منتصراً ومتواضعاً يطأطئ رأسه بأدب وتواضع؛ لأنّه يعلم أنّ النّصر من الله ﷻ، وكأنّه ﷺ يقول لأهل مكّة: لقد كنتم تريدون المُلْك لتتكبّروا به، وأنا أريده لأتواضع به، وهذا هو الفرق بين عِزَّة المؤمن وعِزّة الكافر، لذلك لمّا تمكّن رسول الله ﷺ من رقابهم -بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا- جمعهم، وقال قولته المشهورة: «**مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟**»، قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[1].

ونلاحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد في: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾، إلى صيغة الجمع في: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، ولم يقل: (إليَّ مرجعه)؛ لأنّ (مَنْ) في اللّغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلّها، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها، وإن أردتَ معناها فاجمعه.

﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾: لأنّنا نُسجِّله عليهم ونحصيه، كما قال ﷻ: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٦].

---

(١) السّنن الكبرى للبيهقيّ: جِماعُ أبوابِ السِّيَرِ، بابُ فَتْحِ مَكَّةَ حرسها اللهُ تعالى، الحديث رقم (١٨٢٧٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بنات الصّدر ومكنوناته يعلمها الله ﷻ، حتّى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكيّ عمليّ أو قَوْليّ، فالله ﷻ يعلم ما يختلج في صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر.

﴿عَلِيمُۢ﴾: صيغة مبالغة من العلم، وفَرْق بين عالم وعليم: عالم: ذاتٌ ثبت لها العلم، أمّا عليم فذات عِلْمها ذاتيّ؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: من الآية ٧٦].

(الآية ٢٤) - ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾:

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾: الله ﷻ يُبيّن لكلّ مؤمن ألّا يغترّ بحال الكفّار حين يراهم في حال رَغَد من العيش، وسعة وعافية وتمكُّن؛ لأنّ ذلك كلّه متاع قليل، والحقّ ﷻ يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدّين على أنّه تضحية لا مغنم، وسبق أن أوضحنا أنّنا نستطيع أن نُفرّق بين مبدأ الحقّ ومبدأ الباطل بشيء واحد، هو استهلال الاثنين، فالدّاخل في مبدأ الحقّ مستعدّ أنْ يُضحّي، والدّاخل في مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل في سبيل دينهم بالأنفس والأموال، وتركوا بلادهم وأبناءهم، لماذا؟ لأنّهم مُكلَّفون بأداء مهمّة إنسانيّة عالميّة، لا يحملها إلّا مَنْ كان مستعدّاً للعطاء والتّضحية، أمّا أصحاب الدّعوات الباطلة، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أوّلاً، لذلك رُوِي أنّ صحابيّاً حين سمع من رسول الله ﷺ البشرى بالجنّة، وأنّه ليس بينه وبينها إلّا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت في يده، ولم ينتظر حتّى يمضغها، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشّهادة وطامعاً فيما عند

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد سُمع منهم في ساحة القتال أنْ ينادي أحدهم: هُبّي يا رياح الجنّة، وآخر يقول: إنّي لأجد ريح الجنّة دون أُحُد.

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، هذا التّمتُّع بزينة الحياة الدّنيا ما هو إلّا استدراج لهم لا تكريم، وقلنا: إنّك لا تلقي بعدوّك من على الحصيرة مثلاً، إنّما تُعليه وترفعه ليكون أَخْذه أليماً وشديداً، كذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -ولله المثل الأعلى- يُمتّعهم، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النّعيم، ولنقرأ في هذا المعنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام].

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾: نلجئهم؛ أي: نُضيّق عليهم الخناق، بحيث لا يجدون إلّا العذابَ الغليظ.

(الآية ٢٥) - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: هذا إفحام لهم، حيث شهدوا بأنفسهم أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو خالق السّموات والأرض، وتعجّب بعد ذلك؛ لأنّهم ينصرفون عن عبادة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع، لذلك بعد هذه الشّهادة منهم، وبعد أنْ قالوا: ﴿اللَّهُ﴾ يُتبعها الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقول:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: الحمد لله؛ لأنّهم أقرّوا على أنفسهم، ونحن في معاملاتنا نفعل مثل هذا، وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة، فحين

يعترف لك الخَصْم بما تريد، تقول: الحمد لله، وحين يُخلّصك الله ﷻ من أذى أحد الأشرار، تقول: الحمد لله الّذي نجّانا من فساد هذا المفسد، ولو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطّاع الطّرق، نقول: الحمد لله؛ أي: الّذي خلّصنا من شرّه، وأراح منه البلاد والعباد، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام]، كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم، وتُردُّ إليه مظلمته، أو تظهر براءته، كما سنقول -إنْ شاء الله- في الآخرة: ﴿ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤﴾ [فاطر: من الآية ٣٤]، ويقول ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤﴾ [الزمر]، فالحمد لله ﷻ تُقال أيضاً عند خلوصنا إلى غاية تُخرِجنا ممّا كنّا فيه من الضّيق، ومن الهَمّ، ومن الحزن، وتُقال حين ندخل الجنّة، وننعم بنعيمها ونعلم صِدْق الله ﷻ فيما أخبرنا به من نعيمها، هذا كلّه حَمْد على نِعمه، وهناك الحمد الأعلى: ألم تقرأ الحديث القدسيّ: «**إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً**»(١)، فماذا بعد هذا الرّضوان؟ يقول ﷻ: ﴿وَتَرَى

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الرّقاقِ، بابُ صفَةِ الجنَّةِ والنَّارِ، الحديث رقم (٦٥٤٩).

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر]، هذا هو الحمد الأعلى، فقد كنت في الحمد مع النّعمة، وأنت الآن في الحمد مع المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وهم أهل الغفلة عن الله عَزَّ وَجَلَّ، أو: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: العلم الحقيقيّ، النّافع، وإنْ كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير، أو: يعلمون العلم الّذي يُحقِّق لهم شهواتهم.

ثمّ ينتقل السّياق إلى آيات كونيّة، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

(الآية ٢٦) - ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾: بعد أن سجّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنّه جَلَّ جَلَالُهُ خالق السّموات والأرض، أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يُبيّن لنا أنّ السّموات والأرض ظرف لما فيهما، وفيهما أشياء كثيرة، منها ما نعرفه، ومنها ما لا نعرفه، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه، فما في (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها، وما في الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق مهمّة أنفس من الخزانة وأهمّ، لذلك قلنا: إيّاك أنْ تجعل كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ حافظة لشيء مهمّ عندك؛ لأنّه أغلى من أيِّ شيء فينبغي أنْ نحفظه، لا أنْ نحفظ فيه، وكأنّ في الآية إشارة إلى أنّهم كما أقرُّوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخَلْق السّموات والأرض، ينبغي أنْ يُقرّوا كذلك بأنّ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما فيهما، وهذه مسألة عقليّة يهتدي إليها كلّ ذي فكر سليم، فما دامت السّموات والأرض لله عَزَّ وَجَلَّ، فله ما فيهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: الغنيّ المطلق؛ لأنّ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلّ هذا الملْك في السّموات والأرض، فالله جَلَّ جَلَالُهُ هو الغنيُّ الغِنَى المطلق؛ لأنّه خلق هذا

الخَلْق وهو غنيّ عنه، ثمّ أعطاه لعبيده وجعله في خدمتهم، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً.

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: حميد: فعيل بمعنى محمود، وهو أيضاً حامد كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: من الآية ١٥٨]، لكن، شاكر لمن؟ قال العلماء: إذا كان العبد يشكر ربّه عزّ وجلّ، وقد علّمه الله سبحانه وتعالى: أنّ الّذي يحيّيك بتحيّة، ينبغي عليك أنْ تُحيّيَه بأحسن منها، فربُّك يعاملك هذه المعاملة، فإنْ شكرْتَهُ يزدك، فهذه الزّيادة شُكْر لك على شُكْرك لربّك؛ أي: مكافأة لك، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧].

(الآية ٢٧) - ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾:

﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ﴾: مِنْ: هنا تفيد العموم؛ أي: من بداية ما يُقال له: شجرة، وفرق بين أنْ تقول: ما عندي مال، وما عندي من مال، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الّذي لا يُعتدُّ به، أمّا: (من مال) فقد نفيت جنس المال قليله وكثيره.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: الشّجرة: هي النّبات الّذي له ساق، وقد تشابكتْ أغصانها، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النّساء: من الآية ٦٥]، أمّا النّبات الّذي ليس له ساق فهو العُشْب أو النّجم الّذي ينتشر على سطح الأرض، خاصّة بعد سقوط الأمطار، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام، إنّما من الشّجرة ذات الغصون والفروع، وقد ذكر القرآن الكريم هذين النّوعين في

كلام معجز، فقال ﷻ: ﴿وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرّحمن]، فالشّمس والقمر: ﴿بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرّحمن: من الآية ٥]؛ أي: حساب دقيق محكم؛ لأنّ بهما حساب الزّمن، ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرّحمن]؛ أي: في خضوع لله ﷻ، وكلمة: النّجم هنا يصحّ أنْ تُضاف إلى الشّمس والقمر، ويصحّ أنْ تضاف إلى الشّجر، فهو لفظ يستخدم في معنى، ويؤدّي معنى آخر بضميمة ضميره.

﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾: أي: يُعينه ويساعده إنْ نفد ماؤه، ولنا هنا أن نسأل: لماذا جعل الإمداد للماء، ولم يجعله للشّجر؟ قال العلماء: لأنّ القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْر له، فالحبر مظنّة الانتهاء، كما أنّ الشّجر ينمو ويتجدّد، أمّا ماء البحر فثابت لا يزيد، يقول ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ۝١٠٩﴾ [الكهف]، والعدد سبعة هنا: ﴿سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ لا يُراد به العدد، إنّما يراد به الكثرة كما في قوله ﷻ: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [الطّلاق: من الآية ١٢]، فهذه في مجرّتنا الشّمسيّة، فما بالك بالسّموات في المجرّات الأخرى، وقد علمنا أنّ السّماء هي كلّ ما علاك فأظلّك، فيرد العدد سبعة على سبيل الكثرة، والعرب كانوا يعدّون هذا العدد نهاية للعدد؛ لأنّ العدد معناه الأرقام الّتي تبيّن المعدود، فهناك فرق بين العدد والمعدود، ولمّا تبيّنّا هذا الفرق استطعنا أنْ نردّ على المستشرقين في مسألة تعدّد الزّوجات، فالعدد يعني؛ ١، ٢، ٣، ٤، ٥، أمّا المعدود فما يميّز هذه الأعداد، والرّسول ﷺ حينما أراد أن يُنهي التّعدّد المطلق للزّوجات لمّا أنزل الله ﷻ عليه أنْ يأمر النّاس أنّ مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك

أربعاً منهنّ ويفارق الباقيات، وكان عنده ﷺ في هذا الوقت تسع زوجات، لم يشملهُنَّ هذا الحكم، فقالوا: لماذا استثنى الله ﷻ محمّداً من هذا الحكم؟ وكيف يكون عنده تسع، وعند أمّته أربع؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود: هل استثنى الله ﷻ رسوله في العدد، أم في المعدود؟ نقول: استثناه في المعدود؛ لأنّه ﷻ خاطب نبيّه ﷺ في آية أخرى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: من الآية ٥٢]، ففرض على رسول الله ﷺ أنْ يقتصر على هؤلاء، لا يزيد عليهنّ، ولا يتزوّج بعدهنّ حتّى لو مُتْنَ جميعاً، فلم يستثنه في العدد، وإلّا لكان من حقّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوّج بأخرى، وإنْ مُتْن جميعاً يأتي بغيرهنّ، ولك أن تقول: ولماذا جعل الله ﷻ الاستثناء في المعدود لا في العدد؟ قالوا: لأنّ زوجات غير النّبيّ ﷺ إذا طُلّقن لهنّ أن يتزوّجن بغيره، لكنّ زوجات النّبيّ ﷺ أمّهات للمؤمنين ومحرّمات عليهم، فإنْ طلّق رسول الله ﷺ إحداهنّ بقيت بلا زواج، لذلك أُمِر رسول الله ﷺ أنْ يُمسِك زوجاته التّسع، شريطة ألّا يزيد عليهنّ، في حين يُباح لغيره أن يتزوّج بأكثر من تسع، بشرط ألّا يبقى معه أكثر من أربع، وعليه، فهذا الحكم ضيّق على رسول الله ﷺ في هذه المسألة في حين وسّع على أمّته، ونعلم أنَّ معظم زوجات النّبيّ ﷺ كُنَّ كبيرات في السّنّ، وبعضهنّ كُنَّ لا إرْبة لهنّ في مسألة الرّجل، لكنّهنّ يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ﷺ، وعلى شرف كَوْنهنّ أمّهات المؤمنين؛ لذلك كانت الواحدة منهنّ تتنازل عن قَسْمها في البيتوتة لضرّتها مكتفية بهذا الشّرف، فالتّفريق بين العدد والمعدود خلّصنا من إفك المستشرقين، ومن

تحاملهم على رسول الله ﷺ واتّهامهم له بتعدّد الزّوجات، وأنّه ﷺ وسَّع على نفسه وضيَّق على أمّته.

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيّرت حتّى الدّارسين للنّحو، فلا إشكالَ في العدد واحد والعدد اثنان؛ لأنّنا نقول في المفرد المذكّر: واحد، والمؤنّث: واحدة، وللمثنّى المذكّر: اثنان، وللمؤنّث: اثنتان، فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً، لكنّ الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة، حيث يذكَّر العدد مع المعدود المؤنّث، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر، فمن أين جاء هذا الاختلاف؟ قال العلماء: لاحظ أنّ التّذكير هو الأصل؛ ولذلك احتاج التّأنيث إلى علامة، أمّا المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة، تقول: قلم، وتقول: دواة، فاحتاجت إلى علامة للتّأنيث فهي الفرع والمذكّر هو الأصل، والأعداد من ثلاثة إلى عشرة، نقول: ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة... إلخ، فالعدد نفسه مبنيٌّ على التّاء، وليست هي تاء التّأنيث؛ لأنّها أعداد مجرّدة بلا معدود، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى، إنّما نحذف التّاء فيكون الحذف هو علامة التّأنيث ويبقى العدد مع المذكّر على الأصل بالتّاء، فما حكاية العدد سبعة؟ قالوا: إنّ العدد واحد هو الأصل في الأعداد؛ لأنّ العدَّ ينشأ من ضمّ واحد إلى آخر، فواحد هو الخامة الّتي تتكوّن منها الأعداد فنضمّ واحداً إلى واحد، ونقول: اثنان، ونضمّ إلى الاثنين واحداً، فيصير العدد ثلاثة.. وهكذا، ومعلوم أنّ أقلَّ الجمع ثلاثة، والعدد إمّا شفع وإمّا وتر، الشّفع هو الّذي يقبل القسمة على الاثنين، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱلشَّفۡعِ

﴿وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر]، فبدأ بالشّفع وأوّله الاثنان ثمّ الثّلاثة، وهي أوّل الوتر، أمّا الواحد فقد تركناه؛ لأنّه كما قلنا الخامة الّتي تتكوّن منها جميع الأعداد، وما دام الله ﷻ قال: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر]، فالاثنان أوّل الشّفع، والثّلاثة أوّل الوتر، والأربعة ثاني الشّفع، والخمسة ثاني الوتر، والسّتّة ثالث الشّفع، والسّبعة ثالث الوتر، وقلنا: إنّ الجمع أقلُّه ثلاثة، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً، وانتهت عند هذا العدد، فإذا أرادوا العدَّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمّونها واو الثّمانية، وقد سار القرآن الكريم في أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب، واقرأ إنْ شئت هذه الآيات:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٧١]، أمّا في الجنّة، فيقول ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٧٣]، فما الفرق بين الآيتين؟ ولماذا جاءت الواو في الثّانية، ولم تُذْكر في الأولى؟ قالوا: لأنّ ﴿فُتِحَتۡ﴾ [الزّمر: من الآية ٧١] في الأولى جواب شرط، وهذا الجواب كانوا يُكذّبونه وينكرونه، والشّرط تأسيس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٧١]، ماذا حدث؟ ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٧١]، إنّما هل كان المؤمنون المتّقون الّذين يذهبون إلى الجنّة يُكذّبون بهذا اليوم؟ فـ: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ [الزّمر: من الآية ٧٣] هنا لا تكون جواباً؛ لأنّهم يعلمون يقيناً أنّها ستفتح، أمّا الجواب فسيأتي في: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزّمر: من الآية ٧٣- الآية ٧٤]، ولـمّا كانت أبواب النّار سبعة لم يذكر الواو، أمّا في الجنّة فذكر الواو؛ لأنّ

أبوابها ثمانية، كذلك اقرأ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولاحظ متى تستخدم الواو: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التّحريم]، تجد الواو قبل الثّمانية؛ ذلك لأنّ العرب تعتبر السّبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾: أي: يُجعل مِداداً لكلمات الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: كلمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي السّبب في إيجاد المقدورات العجيبة؛ لأنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس]، فكلّ مراد من شيء سببه: ﴿كُن﴾، وهنا عجيبة ينبغي أنْ نتأمّلها: فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول للشّيء وهو لم يُخْلق بعد: ﴿كُن﴾، كأنّ كلّ الأشياء موجودة في الأزل ومكتوبة، تنتظر هذا الأمر: ﴿كُن﴾، فتبرز إلى الوجود، كما يقول أهل المعرفة: أمور يُبديها ولا يَبتديها، فـ: ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: هي: ﴿كُن﴾ وكلّ مرادات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كونه، ما علمنا منه وما سنعلم، وما لم نعلم إلّا حين تقوم السّاعة.

(الآية ٢٨) - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يؤكّد دائماً على قضيّة البعث والقيامة، ويريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ ينصب للنّاس في حركة حياتهم موازين الجزاء؛ لأنّ كلّ عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعدّ عملاً باطلاً، ولا يمكن أنْ يستغني عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلّا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً، فإذا لم يتوفّر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً في غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد، إذا لم يُثب

المختار على الفعل، ويعاقب على التّرك اضطربت حركة الحياة، حتّى في المجتمعات الّتي لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون، قانون الثّواب والعقاب.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، فالأمر يسير على الله ﷻ؛ لأنّ خَلْق النّفس الواحدة وخَلْق جميع الأنفس يتمّ بـ: ﴿كُن﴾، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستّة أشهر، كذلك شاء الله ﷻ أنْ يوجد الإنسان جنيناً في بطن أمّه، وأن تجري عليه أمور النّمو بطبيعتها، فخَلْق الإنسان لا يقاس بالنّسبة إلى الله ﷻ بالزّمن، وقد حَلَّ لنا الإمام عليّ -كرّم الله وجهه- هذه القضيّة حينما سُئِل: كيف يحاسب الله تعالى النّاس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام السّاعة في وقت واحد؟ فقال: "يحاسبهم جميعاً في وقت واحد، كما أنّه يرزقهم جميعاً في وقت واحد"؛ لأنّه ﷻ لا يشغله شأن عن شأن.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: سميع وبصير صيغة مبالغة من السّمع والبصر، وقلنا: إنّك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرّة واحدة في نظرة واحدة، وكذلك تسمعه، فما بالك بسَمْع الله ﷻ وبصره؟!

(الآية ٢٩) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: هذه آيات كونيّة واضحة مرئيّة للجميع: للمؤمن والكافر، للطّائع والعاصي، فالحقّ ﷻ يوزّع لنا الوقت بين ليل ونهار، لكنّه ليس توزيعاً متساوياً، بحيث يكون كلّ منهما

أربعاً وعشرين ساعة ثابتة على التّقدير الجبريّ كما يقولون؛ لذلك نرى اليوم ينقص مثلاً عن الأربع وعشرين ساعة عدّة دقائق تُضاف إلى زمن اللّيل أو العكس، لذلك قالوا من أيّام بطليموس: السّنة (٣٦٥) يوماً وخمس ساعات، وخمس وخمسون دقيقة، واثنتا عشرة ثانية بالدّقّة، بعدها انتهوا إلى أنَّ السّنة (٣٦٥) يوماً وربع يوم عن طريق الجبر، فكلّ ثلاث سنين نجبر الرّابعة، ويقولون: سنة بسيطة، وسنة كبيسة؛ أي: طويلة، فالّتي تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة، لذلك نجد شهر شباط في هذه السّنة (٢٩) يوماً، ذلك لنعوض اليوم.

وكلمة: (يوم) تعني اللّيل والنّهار، لكنّ القسمة بينهما ليست متساوية، فالحقّ ﷻ بصنعته الحكيمة أراد أنْ يُوزّع الحرارة والبرودة على كلّ مناطق المعمورة، ويعطي لكلّ منطقة ما تحتاجه لتنبت أرضها، وتعطينا مقوّمات حياتنا، بدليل أنّ من النّباتات ما لا ينمو إلّا في الصّيف، ومنها ما لا ينمو إلّا في الشّتاء، كذلك في الاعتدال الرّبيعيّ والاعتدال الخريفيّ، لذلك، عرفنا أخيراً أنّ الخالق ﷻ جعل لمحور الأرض ميلاً بمقدار (٢٣,٥) درجة عن مستوى مدارها فهي غير مستوية، ففي فصل الشّتاء يكون القسم الكبير منها مواجهاً للّيل، والآخر مواجهاً للنّهار، فنجد ليل الشّتاء أطول من ليل الصّيف وأبرد منه، ويبلغ ليل الشّتاء أقصى ما يمكن من الطّول وهو (١٢) ساعة، ومقابل ذلك في فصل الصّيف، فكأنّ ميل محور الأرض سرٌّ من أسرار هندسة هذا الكون، ففي الحادي والعشرين من حزيران يبدأ الانقلاب الصّيفيّ، وفي الثّالث والعشرين من كانون الأوّل يبدأ الانقلاب

الشّتويّ، ثمّ الاعتدال الرّبيعيّ في الحادي والعشرين من آذار، والاعتدال الخريفيّ في الثّاني والعشرين من أيلول، وفي الاستواء الرّبيعيّ والاستواء الخريفيّ نجد أنّ اللّيل مساو للنّهار، وجوّهما معتدل لا حرّ ولا برد، فقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: يعني: لا تظنّ أنّ اللّيل والنّهار قسمة متساوية؛ لأنّ الله ﷻ بحكمته يُدخل جزءاً من اللّيل في النّهار، أو جزءاً من النّهار في اللّيل، فيزيد في أحدهما، وينقص من الآخر لحكمة أرادها ﷻ لمصلحة الإنسان، وإمداداً له بمقوّمات حياته، لنعلم أنّ ما يطرأ على اللّيل أو النّهار من تغيير الأشياء لها مناط في الحكمة الإلهيّة العليا، وحين نُقسّم اليوم إلى ليل ونهار -وهي قسمة كما قلنا: ليست رتيبة ولا متساوية- فإنّ للّيل مهمّة في الحياة وللنّهار مهمّة، كما قال ﷻ: ﴿ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النّبأ]، معنى اللّباس: السّكن والرّاحة؛ لذلك عرفنا فيما بعد أنّ الضّوء في أثناء النّوم أمر غير صحّيّ، وفهمنا قول رسول الله ﷺ: «أَطْفِئُوا المَصَابِيحَ إِذَا رَقَدْتُمْ»(١)، والقرآن الكريم حين يتحدّث عن اللّيل والنّهار يقول كلاماً عامّاً يفهمه كلّ معاصر لمرحلة من مراحل التّقدّم العلميّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: من الآية ١٢]، ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان]، ومعنى: ﴿خِلْفَةً﴾؛ أي: يُخالف أحدهما الآخر ويأتي بعده، وهذا صحيح الآن، فنحن نرى اللّيل يخلف النّهار، والنّهار يخلف اللّيل، لكن كيف نتصوّر هذه المسألة في بَدْء الخَلْق؟ لو أنّ البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الأشربةِ، بابُ تغطيةِ الإناءِ، الحديث رقم (٥٦٢٤).

للشّمس، فالنّهار أوّلاً ليس خِلْفة لشيء قبله، ثمّ تغيب الشّمس فينشأ اللّيل ليكون خِلْفة للنّهار، وفي المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشّمس، فاللّيل هو الأوّل ليس خِلْفة لشيء قبله، فلا يحلّ لنا هذه المسألة إلّا قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: من الآية ٦٢]؛ أي: من بداية الخَلْق وهما خِلْفة، وهذا لا يتأتّى ولا يسوغ إلّا إذا كانت الأرض مكوَّرة، بحيث يكون الجزء المقابل للشّمس منها مكوّناً للنّهار، والجزء الآخر للّيل في وقت واحد، فلمّا تحرّكت الأرض في دورانها صار كلّ منها خِلْفة للآخر، فمعطيات القرآن الكريم يهضمها العقل، ولا يعارضها أبداً، ومن عجائب اليوم في هذه الكواكب أنّ يوم الزّهرة مثلاً (٢٤٤) يوماً بيومنا نحن، أمّا العام فيساوي (٢٢٥) يوماً بيومنا، فكأنّ يوم الزّهرة أطول من عامها، كيف؟ قال العلماء: لأنّ المدار مختلف عن مدار الأرض، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشّمس.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: لنا أن نلحظ دقّة الأداء القرآنيّ في الانتقال من الفعل المضارع: ﴿يُولِجُ﴾، إلى الماضي: ﴿وَسَخَّرَ﴾ ففي الكلام عن حركة اللّيل والنّهار قال: ﴿يُولِجُ﴾، ولـمّا تكلّم عن الشّمس والقمر قال: ﴿وَسَخَّرَ﴾؛ لأنّ التّسخير تمّ مرّة واحدة، ثمّ استقرّ على ذلك، أمّا إيلاج اللّيل في النّهار، وإيلاج النّهار في اللّيل فأمر مستمرّ يتكرّر كلّ يوم، فناسبه المضارع الدّالّ على التّكرار.

﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: أي: إلى غاية محدودة؛ لذلك نسمّي العمر النّهائيّ: الأجل، والمراد بالأجل المسمّى يوم القيامة، فكأنّ الخالق ﷻ ضمن

لنا استمرار الشّمس والقمر إلى قيام السّاعة، فاطمئنّوا، ثمّ أيُّ عظمة هذه في كوكب مضيء ينير العالم كلّه منذ خلقه الله سُبحانه وتعالى وإلى قيام السّاعة، دون صيانة ودون قطعة غيار؛ ذلك لأنّه مبنيّ على التّسخير القهريّ الّذي يمنع الاختيار، فليس للشّمس أنْ تمتنع عن الشّروق وكذلك القمر، ومن العظمة في الألوهيّة هذه الرّحمانيّة الرّحيمة الّتي تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر، وفي هذه الآية ورد التّعبير بلفظ: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وفي مواضع أخرى ورد بلفظ: ﴿ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرّعد: من الآية ٢]، بـ (اللّام) بدلاً من: (إلى)، وكذلك في سورتي فاطر (١٣) والزّمر (٥)، ولكلّ من الحرفين معنى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ تعطينا الصّورة لمشية الشّمس والقمر قبل وصولهما الأجل، إنّما: ﴿ مُّسَمّٗىۚ﴾ [فاطر: من الآية ١٣]؛ أي: الوصول المباشر للأجل، وكما أنّ للّيل مهمّة وللنّهار مهمّة، كذلك للشّمس مهمّة، وللقمر مهمّة بيّنها الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: من الآية ٥]، وفي موضع آخر قال سُبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾ [الفرقان]، فالضّياء للشّمس فيه نور وحرارة، على خلاف نور القمر الّذي لا حرارة فيه، ومن عجائب أمر القمر أنّنا كُنَّا نحسبه قطعة من اللّؤلؤ مضيئة في السّماء، حتّى إنّ الشّعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر، ولو عرفوا حقيقة القمر الّتي عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التّشبيه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾: الله سُبحانه وتعالى كلّف الإنسان، وسيحاسبه، وهو خبير بما يعمله، ويعلم ما في الصّدور، وقد شرع لنا الأعمال الّتي تنظّم حركة حياتنا وحركة عبادتنا؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل باللّيل فنقول: هذه

اللّيلة من رمضان، أمّا يوم عرفة فيدخل بيومه؛ لأنّه يوم مجموع له النّاس.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ معطوفة على: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾، فالتّقدير: (ألم تر أنّ الله بما تعملون خبير).

(الآية ٣٠) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدّم ذِكْره من دخول اللّيل في النّهار، ودخول النّهار في اللّيل، وتسخير الشّمس والقمر، ذلك كلّه:

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: فكلّ ما تقدّم نشأ عن صفة من صفات الله ﷿ وهو الحقّ، والحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر، فكأنّ ناموس الكون بكلّ أفلاكه وبكلّ المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغيّر؛ لأنّ الّذي خلقه وأبدعه حقّ: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وما دام الله ﷻ هو: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ فما يدَّعونه من الشّركاء هم الباطل.

﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾: فلا يوجد في الشّيء الواحد حَقَّان، فإنْ كان أحدهما هو الحقّ فغيره هو الباطل، فالحقّ واحد ومقابله الباطل، وأيُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتّخاذها آلهة وشركاء مع الله ﷿؟ لذلك؛ قلنا في الحروب الّتي تنشب بين النّاس: إنّها لا تنشب بين حقّين؛ لأنّ الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان، إنّما هو حقّ واحد، والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً، أو تنشأ بين باطلين، أمّا نشأتها بين حقّ وباطل فإنّها في الغالب لا تطول؛ لأنّ الباطل زهوق، والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحقّ ولو بعد حين، إنّما

تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين، فليس أحد الطّرفين فيها أهلاً لنصرة الله ﷻ، فالحقّ واحد وثابت، والحقّ هو الظّاهر وهو الغالب.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾: العليّ الكبير يقولها الله ﷻ، ويقولها رسوله ﷺ، ونقولها نحن؛ لأنّ الله ﷻ قالها؛ ولأنّ النّبيّ الصّادق أخبرنا بها، لكنّ المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله ﷻ، فللّه ﷻ وحده العلوّ، ولله ﷻ وحده الكبرياء، بدليل أنّ الكافر حين تضطرّه أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلّا: يالله يا ربّ، فالله هو العليُّ بشهادة مَنْ كفر به، ثمّ أردف صفة (العليّ) بصفة (الكبير)؛ لأنّ العليّ يجوز أنّه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلوّ، لكنّ الله ﷻ هو العليّ، وهو الكبير الّذي يستحقّ هذا العلوّ. ثمّ يلفتنا الحقّ ﷻ إلى آية أخرى من آياته في الكون:

(الآية ٣١) - ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١﴾:

بعد أن ذكر الله ﷻ بعض الآيات الكونيّة البعيدة عنّا أراد ﷻ أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات الّتي بَيْن أيدينا في الأرض، فقال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: يعني: ألم تعلم.

﴿أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ﴾: أي: السّفن.

وربّما أنّ سيّدنا رسول الله ﷺ لم يَرَ هذه السّفن في البحار، ولم تكن قد ظهرت السّفن العملاقة الّتي نراها اليوم كالأعلام، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤﴾ [الرّحمن]، ومتى وُجِدت البوارج العالية الّتي تشبه

الجبال والمكوَّنة من عدّة أدوار؟ لم توجد إلّا حديثاً، فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ [الزّخرف]، ومَنْ يبحث في القرآن الكريم يجد فيه الكثير من هذه الآيات الّتي تثبت صِدْق القرآن الكريم وصِدْق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله عز وجل، وذكرنا قصّة المرأة الّتي أسلمت عندما قرأت التّاريخ الإسلاميّ، وقرأت في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه، وفجأة صرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحرس من حوله، وقال لهم: لقد أنزل الله عليَّ: ﴿ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: من الآية ٦٧]، فوقفت المرأة عند هذه الآية، وقالت: والله لو أنّ هذا الرّجل كان يخدع النّاس جميعاً ما خدع نفسه في حياته.

وقلنا في معنى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أنّها بمعنى: ألم تعلم؛ لأنّ إعلام الله سبحانه وتعالى لك أوثق من رؤية عينيك.

﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: الجري: حركة تودّع فيها مكاناً إلى مكان آخر، هذا التّوديع إمّا أن تمشي الهُوَيْنى أو تجري، لكن ما هي نعمة الله سبحانه وتعالى في جريها؟ كانت أوّل سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر، وكان الغاطس منها في الماء حوالي شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السّفينة، فإذا ما وضعت عليها ثقلاً فإنّها تغطس بمقدار هذا الثّقل، حتّى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السّفينة وحمولتها فإنّها تغرق، وهذه الفكرة هي الّتي تُستخدم في الغوّاصات، فبالوزن يتمّ التّحكّم في حركة الغوّاصة تحت

الماء، والآن نرى السّفن العملاقة الّتي تُصنَع من الحديد، والعجيب أنّ هذا الحديد الصّلب يحمله الماء السّائل اللّيّن ويجري به، ويتمكّن ربّان السّفينة من التّحكّم في حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشّراع بطريقة معيّنة فتسير السّفينة حسب ما أراد، حتّى لو كان اتّجاهها عكس اتّجاه الرّيح، ويسمّون هذه الحركة: (تسفيح)، لذلك يقول سبحانه وتعالى عن حركة السّفن: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٣]، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يُبيّن لنا أنّ أقلّ الأشياء كثافة بقوّة الحقّ له يحمل أكثر الأشياء كثافة، ولننظر إلى جرّارات النّقل الثّقيل، هذه الجرّارات العملاقة الّتي تحمل عدّة أطنان من الحديد مثلاً، على أيّ شيء تسير وتتحرّك؟ إنّها تسير وتتحرّك على الهواء المضغوط في عجلاتها، والّذي يأخذ قوّته من هذا الضّغط، بحيث إذا زدنا في ضغط هذه العجلات تنفجر.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: أي: من عجائبه في كونه خاصّة في البحار، ففي الماضي كنّا لا نرى من المخلوقات في الأعماق إلّا السّمك الّذي يصطاده الصّيّادون، أمّا الآن ومع تطوّر علوم البحار وطرق التّصوير تحت الماء أصبحنا نرى في أعماق البحار عجائب أكثر ممّا نراه على اليابسة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ توحي بأنّ آيات الله سبحانه وتعالى في كونه كثيرة، لكنّ على الإنسان أنْ يبذل جهداً في البحث عنها واكتشافها، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقّة البحث والغوص تحت الماء، فإذا ما رأينا ما في أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله عزّ وجلّ فقد وجب علينا الشّكر، والشّكر لا يكون إلّا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة

من قبل، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد منّا أن نستقبل آياته في الكون استقبالَ بحث وتأمّل ونظر، لا استقبال غفلة وإعراض، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف].

وتقديم ﴿صَبَّارٍ﴾ على ﴿شَكُورٍ﴾ دليل على أنّ الصّبر على مشقّات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتي نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها.

(الآية ٣٢) - ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ٣٢﴾:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾: يعني: غطّاهم واحتواهم؛ لذلك قال:

﴿كَٱلظُّلَلِ﴾: جمع ظُلَّة، وهي الّتي تعلو الإنسان وتظلّله، ولا يكون الموج كذلك إلّا إذا علا عن مستوى الإنسان، وخرج عن رتابة الماء، ومن ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧١]، ونحن نشاهد هذه المظاهر إذا كنّا في عرض البحر، فنرى الموجة من بعيد أعلى منّا، وأنّها حتماً ستطمسنا، حتّى إذا ما وصلتْ إلينا شاهدنا فيها مظهراً من لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنا، حيث تتلاشى وتمرّ من تحتنا بسلام، وهذا شيء عجيب ونعمة تستوجب الشّكر، فالموج شيء مخيف؛ لذلك لمّا غشيهم وأيقنوا الهلاك:

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: دعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع أنّهم كافرون به، لكنّ المرء في مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها، فلم يدعوا اللّات أو العزّى، ولم يقُلْ أحد منهم: يا هُبَل، إنّما دعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإخلاص له جَلَّ جَلَالُهُ،

فالتّديُّن طَبْع في النّفس، لكنّ التّديُّن الحقّ له مطلوبات ومنهج بـ: افعل كذا، ولا تفعل كذا، وهذا يريد أنْ يُرضي نفسه بأن يكون مُتديّناً، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التّديّن، فماذا يفعل؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له، وقد توفّرت هذه في عبادة الأصنام.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: وكان ينبغي عليهم بعد أنْ نجّاهم وأسعفهم أن يؤمنوا به، وأنْ يطيعوه، وأن تؤثّر فيهم هذه الهزّة الّتي زلزلتهم، إلّا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن الله سبحانه وتعالى، والمقتصد هو البين بين، تأخذه الأحداث والخطوب، فتردُّه إلى الله عز وجل حال الكرب والشّدّة، لكنّه إذا كُشف عنه تردّد، وضعفتْ عنده هذه الرّوح.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾: فمنهم من بهت كفره حينما تنبّه في الوازع الإيمانيّ، لكنّه لـمّا نجا غرّته الدّنيا من جديد، ومنهم الجاحد الختّار؛ أي: الغادر.

(الآية ٣٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: خطاب الله سبحانه وتعالى لعباده بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يدلّ على أنّه سبحانه وتعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً في الآخرة.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾: التّقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرّك وقاية تقيك وتحميك؛ والتّقوى كما عرّفها الإمام عليّ -كرّم الله وجهه-: "هي الخوف

من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل"، ولا تنتهي المسألة عند تقوى الرّبّ في الدّنيا، إنّما:

﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾: أي: خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربّكم، وكلمة (يوم) تأتي ظرفاً، وتأتي اسماً مُتصرّفاً، فهي ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث في هذا اليوم، كما تقول: خِفْت شدّة الملاحظة يوم الامتحان، فالخوف من الحدث، لا من اليوم نفسه، أمَّا لو قلت: خفت يوم الامتحان، فالخوف من كلّ شيء في هذا اليوم؛ أي: من اليوم نفسه، فالمعنى هنا: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾؛ لأنّ اليوم نفسه مخيف بصرف النّظر عن الجزاء فيه، وفي هذا اليوم: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، خصَّ هنا الوالد والولد؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نصح الجميع، ثمّ خصَّ الوالدين في الوصيّة المعروفة: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [لقمان: من الآية ١٤]، وهنا: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ لأنّ الوالد مظنّة الحنان على الولد، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه، فقدَّم هنا (الوالد)، ثمّ قال:

﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾: فقدّم المولود، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول: ولا يجزي ولد عن والده، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود؟ الجواب: الكلام هنا كلام ربّ، وفرْق كبير بين ولد ومولود؛ لأنّ المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر، فظنّوا أنّ وصيّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية تبيّن لهؤلاء ألّا يطمعوا في أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الّذين ماتوا على الكفر، لذلك لم يقل هنا: ولد، إنّما: مولود؛ لأنّ المولود هو المباشر للوالد، والولد يقال للجدّ وإنْ علا، فهو ولده، والجدّ وإنْ علا والده، فإذا كانت الشّفاعة لا تُقبل من المولود لوالده

المباشر له، فهي من باب أَوْلَى لا تُقبل للجدّ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود، فالمسألة كلام ربّ حكيم، لا مجرّد رَصْف كلام.

لكن، متى يجزي الوالد عن الولد، والمولود عن والده؟ قالوا: الولد ضعيف بالنّسبة إلى والده يحتاج منه العطف والرّعاية، فإذا رأى الوالد ولده يتألّم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم، أمّا الولد فلا يدفع عن أبيه الألم؛ لأنّه كبير، إنّما يدفع عنه الإهانة، فالوالد يشفع في الإيلام، والولد يشفع في الإهانة، فلكلّ منهما مقام.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾: الوعد: إخبار بشيء يسرّ لم يَأْت وقته، وضدّه الوعيد، وهو إخبار بشيء يؤذي لم يأْتِ وقته بعد، لكن ما فائدة كلّ منهما؟ الوعد حقّ، وكذلك الوعيد حقّ، لكنّه خصَّ الوعد؛ لأنّه يجلب للنّفس ما تحبّ، أمّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبّها، ووضّحنا هذه المسألة بأنّ الله ﷻ يتكلّم في النّعم أنّ منها نِعَم إيجاب، ونِعَم سلب.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾: والغَرور بالفتح الّذي يغرُّك في شيء ما، فمعنى غرَّك: أدخل فيك الغرور، بحيث تُقبِل على الأشياء، وتتصرّف فيها في كنف هذا الغرور وعلى ضوئه.

﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: بالفتح هو الشّيطان، وله في غروره طرق وألوان، فغرور للطّائعين وغرور للعاصين، فلكلّ منهما مدخل خاصّ، فيغرّ العاصي بالمعصية، ويوسوس له بأنّ الله غفور رحيم، وقد عصا أبوه فغفر الله ﷻ له، لذلك أحد الصّالحين سمع قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾ [الانفطار]، فأجاب: غرّني كرمه؛ لأنّه خلقني وسوّاني في أحسن صورة، وعاملني بكرم ودلّلني، حتّى أصابني الغرور بذلك.

(الآية ٣٤) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾:

بعد أن حذّرنا ربّنا ﷻ من الغرور في الحياة الدّنيا يُذكّرنا أنّ بعد هذه الحياة حياة أخرى، وقيامة وساعة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: والسّاعة لا تعني القيامة فحسب، إنّما لكلّ منّا ساعته؛ لأنّه مَنْ مات فقد قامت قيامته، لماذا؟ لأنّه انقطع عمله، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصّالح، فكأنّ قيامته قامت بموته.

وهذه الآية جمعتْ خمسة أمور استأثر الله ﷻ بعلمها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾، فهل هذه هي كلّ الغيبيّات في الكون؟ نقول: في الكون غيبيّات كثيرة لا نعرفها، فلا بُدَّ أنّ هذه الخمس هي المسؤول عنها، وجاء الجواب على قدر السّؤال، بالله لو هَبَّتْ الرّيح، وحملتْ معها بعض الرّمال، أنعرف أين ذهبت هذه الذّرّات؟ وفي أيّ ناحية، أنعرف ورق الشّجر كم تساقط منها؟ هذه كلّها غيبيّات لا يعلمها أيضاً إلّا الله ﷻ، أمّا نحن فلا نعلم حتّى عدد النِّعَم الّتي أنعم الله ﷻ بها علينا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، وقد ورد في أسباب نزول مفاتح الغيب هذه، أنّ رجلاً من محارب، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله: أريد أنْ أعرف متى السّاعة، وقد بذرْت بذري، وأنتظر المطر

فمتى ينزل؟ وامرأتي حامل، وأريد أن تلد ذكراً، وقد أعددت لليوم عُدَّته، فماذا أُعِدّ لغد؟ وقد عرفت موقع حياتي، فكيف أعرف موقع مماتي؟ هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾، فأخفى الله سبحانه وتعالى القيامة وأخفى الموت؛ لنظلّ على ذِكْر له نتوقّعه في كلّ لحظة، فنعمل له، ولنتوقّع دائماً أنّنا سنلقى الله عزّ وجلّ، فنعدّ للأمر عُدّته.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾: وهذا أيضاً، ومع تقدُّم العلوم حاول بعض النّاس التّنبّؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرّياح ودرجة الحرارة.. إلخ، وربّما صَحَّتْ حساباتهم، لكن فاتهم أنّ لله عزّ وجلّ أقداراً في الكون تحدث ولا تدخل في حساباتهم، فكثيراً ما نُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتّجاه الرّيح، فتنقلب كلّ حساباتنا، لذلك من عجائب الخَلْق أنّنا كلّما اقتربنا من الشّمس وهي مصدر الحرارة تقِلُّ درجة الحرارة، وكلّما ابتعدنا عنها زادت درجة الحرارة، فالمسألة ليست روتينيّة، إنّما هي قدرة لله سبحانه وتعالى، والله عزّ وجلّ يجمع لنا الأسباب ليثبت لنا طلاقة قدرته الّتي تقول للشّيء: ﴿كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: من الآية ١١٧].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾: هذه أيضاً من مفاتح الغيب، وستظلّ كذلك مهما تقدّمت العلوم، ومهما ادَّعى الخَلْق أنّهم يعلمون ما في الأرحام، والّذي أحدث إشكالاً في هذه المسألة الآن الأجهزة الحديثة الّتي استطاعوا بها رؤية الجنين، وتحديد نوعه، فهذه الخطوة العلميّة أحدثتْ بلبلة عند بعض النّاس، فتوهّموا أنّ الأطبّاء يعلمون ما في الأرحام، وبناءً عليه ظنّوا أنّ هذه المسألة لم

تَعُدْ من مفاتح الغيب الّتي استأثر الله ﷻ بها، ونقول: أنتم بسلطان العلم علمتم ما في الأرحام بعد أن تكوّن ووضحتْ معالمه، واكتملتْ خِلْقته، أمّا الخالق ﷻ فيعلم ما في الأرحام قبل أنْ تحمل الأمّ به، قال ﷺ: «**وَكَّلَ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكاً، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الأَجَلُ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**»(١)، ألم يُبشّر الله سبحانه وتعالى نبيّه زكريّا عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمّه؟ وحتّى نحن عندما علمنا بواسطة الأجهزة إن كان الجنين ذكراً أم أنثى، هذا الغيب ما علمناه بذواتنا، إنّما بما علّمنا الله ﷻ، فالطّبيب الّذي يُخبرنا بنوع الجنين لا يعلم الغيب، إنّما مُعلَّم غيب.

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾: الإنسان يعمل، إمّا لدنياه، وإمّا لأُخْراه، فالنّفس إمّا تعمل الخير أو الشّرّ، الحسنة أو السّيّئة، والإنسان في حياته عُرضَة للتّغيُّر، لذلك يقال في الأثر: "يا ابن آدم، لا تسألني عن رزق غدٍ، كما لم أطالبك بعمل غد"، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذّاريات].

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾: وهذه المسألة حدث فيها إشكال؛ لأنّ رسول الله ﷺ أخبر الأنصار أنّه سيموت بالمدينة حينما وزّع الغنائم على النّاس جميعاً ما عدا الأنصار؛ لذلك غضبوا ووجدوا في أنفسهم شيئاً؛ لأنّ رسول الله ﷺ حرمهم، لكنّ سيّدنا رسول الله ﷺ جمعهم وتلطّف معهم في

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ القدَرِ، بابٌ في القدَرِ، الحديث رقم (٦٥٩٥).

الحديث واعترف لهم بالفضل، فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُم اللَّهُ؟»، قَالُوا: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: «أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «وَعَالَةً فَأَغْنَاكُم اللَّهُ بِي؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ -كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ- ثُمَّ قَالَ: «أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟»، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟، قَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ؟»، فَقَالُوا: بَلْ لِلَّهِ الْمَنُّ عَلَيْنَا وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ قُرَيْشاً حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً لِأَنَّهُمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِنِسَاءِ الْأَنْصَارِ وَلِمَوَالِي الْأَنْصَارِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ،

الْأَنْصَارُ شِعَارِي وَالنَّاسُ دِثَارِي»[(١)]، وقال في مناسبة أخرى: «**الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**»[(٢)]، فنُبِّئَ رسول الله ﷺ أنّه سيموت بالمدينة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، نقول: الأرض منها عامّ ومنها خاصّ، فأرض المدينة شيء عامّ، نعم سيموت بالمدينة، لكن في أيّ بقعة منها، وفي أيّ حجرة من حجرات زوجاته، فإذا علمتَ الأرض العامّة، فإنّ الأرضَ الخاصّة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد، أضف إلى ذلك أنّ هذه خصوصيّة لرسول الله ﷺ فقط، ويُرْوى أنّ أبا جعفر المنصور الخليفة العبّاسيّ كان يحبّ الحياة ويحرص عليها، ويخاف الموت، وكان يستشير في ذلك المنجّمين والعرّافين، فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يقطع عليه هذه المسألة، فأراه الله سبحانه وتعالى في المنام أنّ يداً تخرج من البحر وتمتدّ إليه، وهي مُفرَّجة الأصابع هكذا، فأمر بإحضار مَنْ يُعبّر له هذه الرّؤيا، فكان المتفائل منهم، أو الّذي يبغي نفاقه يقول له: هي خمس سنوات، وآخرون قالوا: خمسة أشهر، أو خمسة أيّام أو دقائق، إلى أن انتهى الأمر عند أبي حنيفة رضي الله عنه فقال له: إنّما يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول لك: هي خمسة لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ، وهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وما دامت هذه المسائل كلّها مجهولة لا يعلمها أحد، فمن المناسب أن يكون ختام الآية:

(١) الجامع الصّحيح للسّنن والمسانيد: مَناقِبُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم، مناقب الأنصار.

(٢) السّنن الكبرى للنّسائيّ: سورةُ الإسراءِ، قَوْلُهُ تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: من الآية ٨١]، الحديث رقم (١١٢٣٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: فالحقّ ﷻ يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر في هذه المسائل، وكلّ ما يجب أن نعلمه أنّ المقادير تجري بأمر الله ﷻ لحكمة أرادها الله ﷻ، وأنّها إلى أجل مسمّى، وأنّ العلم بها لا يُقدّم ولا يُؤخّر، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك؟ لا شيء أكثر من أنّك ستعيش نَكِداً حزيناً طوال الوقت لا تجد للحياة لذّة، لذلك أخفى الله ﷻ عنّا هذه المسألة لنُقبِل على الله ﷻ بثقتنا في مجريات قدر الله ﷻ فينا.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (السّجدة)

الآيات: (١– ٣٠)

سورة السّجدة

هي السّورة الثّانية والثّلاثون في ترتيب المصحف الشّريف، وهي سورة مكّيّة إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، عدد آياتها ثلاثون آية، نزلت بعد سورة (المؤمنون)، وقبل سورة (الطّور)، وهي من أواخر السّور المكّيّة، ولها فضل عظيم، روى الشّيخان عن أبي هريرة ﵁، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةَ، وَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾»[1]، وروى الإمام أحمد عن جابر ﵁: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةَ، وَ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[2]، سُمّيت سورة السّجدة لِمَا ذكر الله ﷻ فيها من أوصاف المؤمنين الّذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم: ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ۝١٥﴾ [السّجدة: من الآية ١٥]، ومعظم النّاس منّا يحفظون سورة السّجدة لما فيها من أسرار، وتبدأ هذه السّورة بالأحرف المقطّعة:

(الآية ١) - ﴿الٓمٓ ۝١﴾:

وهنا تأتي: ﴿الٓمٓ﴾ بعد مفاتح الغيب الخمسة الّتي سبقتْ في آخر سورة لقمان، وكأنّها مُلْحقة بها، فهي سِرٌّ استأثر الله ﷻ بعلمه، ونحن في تفسيرنا لها نحوم حولها؛ لذلك كلّ مَنْ فسَّر الحروف المقطَّعة في بدايات السّور لا بُدَّ أن يقول بعدها: والله أعلم بمراده؛ لأنّ تفسيراتنا كلّها

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الجُمُعَةِ، بابُ ما يُقْرَأُ في صلاةِ الفجرِ يومَ الجُمُعَةِ، الحديث رقم (٨٩١).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدُ المُكثرينَ مِنَ الصَّحابةِ، مُسْنَدُ جابرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵁، الحديث رقم (١٤٦٥٩).

اجتهادات تحوم حول المعنى المراد، وفي الآخرة سنعرف مرادات الله ﷻ في هذه الحروف، وسنعرف كم قَصُرَتْ عقولنا عن فهمها، فهذه الحروف المقطّعة هي مفاتيح للأرواح والقلوب، وكنّا قد أفضنا بتفسير الحروف المقطّعة في السّور الّتي مرّت معنا، والله أعلم بمراده.

(الآية ٢) - ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: مادّة (نزل) وردتْ في القرآن الكريم بلفظ: نزل، ونزَّل، وأنزل، أنزل تدلّ على التّعدية، يعني: أنّ الله سبحانه وتعالى عدَّى القرآن الكريم من اللّوح المحفوظ، إلى أنْ يباشر مهمّته في السّماء الدّنيا، وهذا الإنزال من الله سبحانه وتعالى، أمّا نزَّل فالتّنزيل مهمّة الملائكة؛ لذلك يقول جل جلاله في الإنزال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر]؛ أي: من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، ثمّ تتنزّل به الملائكة مُنجَّماً حسب الأحداث، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٥]، فقد كان محفوظاً عندنا في اللّوح المحفوظ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة]، ثمّ نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السلام، وما دام ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ [الشّعراء: من الآية ١٩٣]، فهذا يعني أنّ القرآن الكريم نزل معه، فقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء]، تساوي تماماً: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٥]، فالنّزول يُنسَب مرّة إلى القرآن الكريم، ومرّة إلى الرّوح الأمين، ومادّة (نزل) وما يُشتقّ منها من إنزال وتنزيل كأنّك تتلقّى من جهة أعلى منك وأرفع، وما دُمْتَ تتلقّى من جهة أعلى منك، فإيّاك أنْ يضلّ بك الفكر لناحية أخرى.

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، وقلنا: إنّ النّسب في القضايا؛ أي: نسبة شيء إلى شيء إمّا مجزوم بها أو غير مجزوم بها، فلو قُلْنا: الأرض كرويّة فهذه قضيّة جزم بها الآن، فهي قضيّة واقعة ومجزوم بصحّتها، وعليها دليل في الكون، فإنْ كانت القضيّة غَيْر مجزوم بها، فهي بين ثلاث حالات: إمّا فيها شكّ، أو ظنّ، أو وهم، الشّكّ أنْ تتساوى الكفَّتان: الإثبات والنّفي، والظّنّ أن تُغَلِّب جانب الإثبات فلا تجزم به إنّما ترجِّحه، فإنْ غلَّبْتَ الأخرى وجعلتها هي الرّاجحة، فهذا توهّم، وهنا قال سُبحانه وتعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شكَّ فيه، فنفى الشّكَّ، وهو تساوي النّفي والإثبات، وما دام قد نفى التّساوي، فهذا يعني أنّه أراد أنْ يثبت الأعلى؛ أي: أنّه حقٌّ لا يرقى إليه الشّكّ، وجملة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ جملة اعتراضيّة بين: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وبين: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وما دام أنّه: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فلا بُدَّ أنّه حقٌّ لا ريب فيه.

(الآية ٣) - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾: ﴿أَمۡ﴾: تعني أنّ لها مقابلاً، يعني: أيقولون كذا؟ أم يقولون: افتراه، فماذا هذا المقابل؟ المقابل: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فالمعنى: أيُصدّقون بأنّ هذا الكتاب من عند ربّ العالمين، وأنّه لا رَيْبَ فيه؟ أم يقولون: افتراه محمّد، فـ: ﴿أَمۡ﴾ هنا جاءت لتنقض ما يُفهَم من الكلام السّابق عليها.

﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: نعرف أنّ: ﴿بَلۡ﴾ تأتي للاستدراك، لكنّها هنا ليست للاستدراك، إنّما لإبطال قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، كما لو قُلْت: زيد ليس

عندي بل عمرو، فأفادتْ الإضراب عمّا قبلها، وإثبات الحكم لما بعدها، وهم يقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، فكلامهم واتّهامهم باطل، والقرآن الكريم هو الحقّ من عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾: هو الشّيء الثّابت الّذي لا يطرأ عليه التّغيير؛ لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغيّر أبداً.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾: ومعلوم أنّ سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بشيراً ونذيراً، لكن خصَّ هنا النّذير؛ لأنّه جاء ليصلح معتقدات فاسدة، وإصلاح الفاسد لا بُدَّ أن يسبق ما يُبشّر به، ولم يأْتِ ذكر البشارة هنا؛ لأنّهم ما سمعوا للنّذارة، وما استفادوا بها، لكن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تصطدم لفظيّاً بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: من الآية ٢٤]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: من الآية ١٥]، وليس بين هذه الآيات تناقض؛ لأنّ المعنى: ما أتاهم من نذير قريب، ولا مانع من وجود نذير بعيد، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: من الآية ١٩].

﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾: لعلّ: تفيد الرّجاء، والرّجاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كأنّه واقع متحقّق؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبّ لعباده جميعاً أنْ يؤمنوا به؛ ليأخذوا جميل عطائه في الآخرة، كما أخذوا عطاءه في الدّنيا، وهم جميعاً خَلْقه وصَنْعته.

ثمّ ينقلنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى قضيّة من قضايا أصول الكون:

(الآية ٤) - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنّه خلق السّموات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان، وهو المكرَّم الأوّل في هذا الكون، وجميع الأجناس في خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً، فهو سيّد في هذا الكون، لكن هل أخذ سيادته بذاته وبفعله؟ الجواب: لا، إنّما أخذها بفضل الله عز وجل عليه، فكان عليه أوّلاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السّيادة على غيره، ومسألة خَلْق السّموات والأرض من الأشياء الّتي استأثر الله عز وجل بعلمها، وليس لأحد أنْ يقول: كيف خُلِقَت ولا حتّى كيف خُلق الإنسان، فخَلْق السّموات والأرض مسألة لا تُؤخَذ إلّا ممَّنْ خلق؛ لذلك قَصَّ لنا ربّنا سبحانه وتعالى قصّة خَلْق آدم عليه السلام، وقصَّ لنا قصّة خلق السّموات والأرض، لكنّ الخَلْق حدثٌ وفعلٌ، والفعل يحتاج إلى زمن يعالج فيه الحدث، والإشكال هنا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فهل الحدث بالنّسبة إلى الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى زمن؟ الفِعْل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً، حيث نوزّع جزئيّات الفعل على جزئيّات الزّمن، أمّا في حقّه سبحانه وتعالى فهو يفعل بلا علاج للأمور، إنّما يقول للشّيء: ﴿كُن﴾ فيكون، أمّا قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فقد أوضحناها بمثال، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى، عندما تصنع كوباً وتترك الموادّ الأوّليّة تتفاعل بعضها ببعض، فقد أراد الله سبحانه وتعالى لحكمة أن تتفاعل هذه الموادّ مع بعضها خلال ستّة أيّام، وهذا من إرادته، وليس من احتياجه، فهو جل جلاله

لا يحتاج إلى زمن، ومسألة خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام عُولجت في سبع سور من القرآن الكريم، أربع منها تكلّمْن عن خلق السّموات والأرض ولم تتعرّض لِما بينهما، وثلاث تعرّضتْ لخَلْق السّموات والأرض وما بينهما، ففي (الأعراف) مثلاً، وفي (يونس)، و(هود)، و(الحديد) تعرّضت الآيات لخلق السّموات والأرض فقط، وفي (الفرقان) و(السّجدة) و(ق) تكلَّمتْ عن البينيّة، فكأنّ السّموات والأرض ظرف خُلِق أوّلاً، ثمّ خُلِق المظروف في الظّرف، وهذا هو التّرتيب المنطقيّ أنْ تُعِدَّ الظّرف أوّلاً، ثمّ تضع فيه المظروف.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: الله جل جلاله يخاطب العرب بهذه الآيات، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشّمس والقمر، فكيف يقول سبحانه وتعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولم يخلق بعد الشّمس والقمر؟ نقول: المعنى خلقها في زمن يساوي ستّة أيّام بتقديرنا نحن الآن، وإلّا فاليوم عند الله سبحانه وتعالى يختلف عن يومنا، ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجّ: من الآية ٤٧]؛ أي: في الدّنيا، وقال عن اليوم في الآخرة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج]، فللّه سبحانه وتعالى تقدير لليوم في الدّنيا، ولليوم في الآخرة، والحقّ سبحانه وتعالى لم يُفصّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلّا في سورة (فُصِّلَت)، فهي الّتي فصَّلَتْ القول في خَلْق السّموات والأرض، وهذه من عجائب هذه السّورة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصّلت]، هذه ستّة أيّام، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ

سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصّلت]، وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيّام، فكيف نُوفّق بين ستّة أيّام في الإجمال، وثمانية أيّام في التّفصيل؟ قالوا: الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها؛ لأنّ المفصَّل تستطيع أن تضمّ بعضه إلى بعض، أمّا المجمل فهو النّهاية، وأَعِدْ قراءة الآيات: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصّلت]، وهذا كلّه من لوازم الأرض: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصّلت: من الآية ١٠]؛ أي: أنّ هذه اللّوازم تابعة لما قبلها، فالمعنى: في تتمّة أربعة أيّام، فاليومان الأوّلان داخلان في الأربعة، كما لو قلت: سِرْتُ من دمشق إلى طرطوس في ساعة، وإلى اللّاذقيّة في ساعتين، فالسّاعة الأولى محسوبة من هاتين السّاعتين، فالحقّ سبحانه وتعالى خلق الأرض في يومين، وخلق ما يلزمها في تتمّة الأربعة أيّام، فالزّمن تتمّة للزّمن؛ لأنّ الحدث يُتمّم الحدث، فالمحصّلة النّهائيّة ستّة أيّام، وليس هناك خلاف بين الآيات: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، ومن العجيب أن يأتي هذا التّفصيل في سورة (فصّلت).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: الحقّ سبحانه وتعالى يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم، حتّى في موضوع الزّمن، فالله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن، وعندما يقول: استوى على العرش، فإنّما يقرّب أذهان النّاس إلى الملك، فالملوك في الأرض لا يستقرّون على كراسيّهم إلّا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر، فمعنى: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: صعد وجلس واستقرّ، فهل يحقّ هذا المعنى بالنّسبة إلى الله عزّ وجلّ؟ سبحان

الله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فكما أنّ لله ﷻ وجوداً ليس كوجودنا، وسَمْعاً ليس كسمعنا، وفعلاً ليس كفِعْلنا، فكذلك له ﷻ استواء، لكن ليس كاستوائنا، فالمعنى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استتبَّ له أمر الخَلْق.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾: الوليُّ: مَنْ يليك، ويكون قريباً منك، وإليه تفزع في الأحداث، فهو الملجأ الأوّل.

﴿وَلَا شَفِيعٍۚ﴾: الشّفيع: الّذي يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك.

فالوليُّ هو الّذي ينصرك بنفسه، أمَّا الشّفيع فهو يتوسّط لك عند مَنْ ينصرك، فليس لك وليٌّ ولا شفيع من دون الله ﷻ.

﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: يعني: لا يوجد غيره، وإنْ وُجِد فبتحنين الله ﷻ للغير عليك، فالخير أيّاً كان مردُّه إلى الله ﷻ.

(الآية ٥) - ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾:

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: في هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الّذين قالوا: إنّ الله ﷻ قادر وخالق، لكنّه ﷻ زاول سلطانه في مُلْكه مرّة واحدة، فخلق النّواميس، وخلق القوانين، ثمّ تركها تعمل في إدارة هذا الكون، ونقول: لا، بل هو ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾؛ أي: أمْر الخَلْق، وهو ﷻ قيُّوم عليه، وإلّا فما معنى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٥] إن قُلْنا بصحّة ما تقولون؟ بل هو ﷻ خلق الكون، ويُدبّر شؤونه على عينه ﷻ، والدّليل على

قيّوميّته سبحانه وتعالى على خَلْقه أنّه خلق الأسباب على رتابة خاصّة، فإذا أراد سبحانه وتعالى خَرق هذه الرّتابة بشواذّ تخرج عن القوانين المعروفة، كما خرق لإبراهيم عليه السلام قانون الإحراق، وكما خرق لموسى عليه السلام قانون سيولة الماء، ومسألة خَرْق القوانين في الكون دليل على قيّوميّته سبحانه وتعالى، ودليل على أنّ أمر الخَلْق ما يزال في يده جل جلاله، ولو أنّ المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المنبّه حين تضبطه، ثمّ تتركه ليعمل من تلقاء نفسه، ولو كان الأمر كذلك لانطفأتْ النّار الّتي أُلقِي فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً.

ولمّا سُئِل أحد العارفين عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرّحمن: من الآية ٢٩] ما شأن ربّك الآن، وقد صحَّ أنّ القلم قد جفَّ؟ قال: أمور يُبديها ولا يَبتديها، يرفع أقواماً ويضع آخرين، فمسألة الخَلْق إبداء لا ابتداء، فأمور الخَلْق مُعدَّة جاهزة مُسْبقاً، تنتظر الأمر من الله عز وجل لها بالظّهور، وقلنا هذا المعنى في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، فكلمة: ﴿يَقُولَ لَهُۥ﴾ [يس: من الآية ٨٢] تدلّ على أنّ هذا الشّيء موجود بالفعل ينتظر أنْ يقول الله عز وجل له: اظهر إلى حيّز الوجود، فالحقّ سبحانه وتعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثمّ تعود إليه سبحانه وتعالى النّتائج.

﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾: فالله سبحانه وتعالى يرسل إلى الأرض، ثمّ يستقبل منها؛ لأنّ المدبّرات أمراً من الملائكة لكلّ منهم عمله واختصاصه، وهذه المسألة نسمّيها في عالمنا عمليّة المتابعة، فرئيس العمل يكلّف مجموعة من موظّفيه بالعمل، ثمّ لا يتركهم، إنّما يتابعهم ليستقيم العمل، بل ويحاسبهم كلّاً بما يستحقّ، والملائكة هي الّتي تعرج بالنّتائج إليه سبحانه وتعالى.

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: فالعود سيكون للملائكة، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوِك؛ لذلك الّذي يعمله البشر في ألف سنة تعمله الملائكة في يوم، ومثال ذلك: ما قرأناه في قصّة سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ [النّمل: من الآية ٣٨]، وهذا الطّلب من سليمان عليه السلام كان على ملأ من الإنس والجنّ، لكن لم يتكلّم بشريٌّ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل، إنّما تصدّى له عفريت، وليس جِنّياً عاديّاً، والعفريت جنّي ماهر له قدراته الخاصّة، وإلّا ففي الجنّ أيضاً من لا يجيد مثل هذه المهامّ، كما في الإنسان تماماً، قال العفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ [النّمل: من الآية ٣٩]، وهذا يعني أنّه سيستغرق وقتاً، ساعة أو ساعتين، أمّا الّذي عنده علم من الكتاب فقال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النّمل: من الآية ٤٠]، يعني: في طرفة عين لما عنده من العلم؛ لذلك لمّا رأى سليمانُ العرشَ مستقرّاً عنده في لمح البصر، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النّمل: من الآية ٤٠]، فالفعل يستغرق من الزّمن على قدْر قوّة الفاعل، فكلّما زادتْ القوّة قَلَّ الزّمن، وقد أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن الإسراء والمعراج.

﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: أي: من سنينكم أنتم.

(الآية ٦) - ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى تدبير الأمر من السّماء إلى الأرض، ثمّ متابعة الأمر ونتائجه، هذا كلّه؛ لأنّه سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: وأنّه جلّ جلاله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فالحقّ سبحانه وتعالى يُعلّمنا أنّ الآمر لا بدّ أنْ يتابع المأمور.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: قلنا: إنّ عالم الغيب تعني أنّه بالأوْلى يعلم الشّهادة، لكن ذكر الله ﷻ علمه بالشّهادة حتّى لا يظنّ أحد أنّ الله ﷻ غَيْب، فلا يعلم إلّا الغيب، وقد بيَّنّا معنى الشّهادة حينما تكلَّمنا عن قوْل الله ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء]، والجهر أو الشّهادة معناه الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات، فلا تستطيع أنْ تُميّزها، مع أنّها جهر أمامك وشهادة، أمّا الحقّ ﷻ فيعلم كلّ صوت، ويردُّه إلى صاحبه، فعِلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الّذي لا يُغلَب ولا يُقهر، فلا يلويه أحد عن علمه، ولا عن مراداته في كَوْنه، ومع عِزَّته فهو ﷻ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

(الآية ٧) - ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾:

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾: الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة، ولغاية ومهمّة مرسومة، وليس عَبَثاً يخلق الله ﷻ الأشياء، فالخالق ﷻ قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق، ويعلم المهمّة الّتي سيؤدّيها؛ لذلك يخلق ﷻ على مواصفات تحقّق هذه الغاية، وتؤدّي هذه المهمّة، وقد يُخيَّل لك أنّ بعض المخلوقات لا مهمّةَ لها في الحياة، أو أنّ بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل ممّا هي عليها، ونذكر هنا الرّجل الّذي تأمّل في كون الله ﷻ، فقال: ليس في الإمكان أبدعُ ممّا كان، والولد الّذي رأى الحدّاد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة، فيلويها ويُعْوِجها، فقال لأبيه: لماذا لا يترك الحدّاد عيدان الحديد

على استقامتها؟ فعلَّمه الوالد أنّ هذه العيدان لا تؤدّي مهمّتها إلّا باعوجاجها، فالله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾؛ لأنّ لكلّ مخلوق مهمّة مُهيّأ لها.

﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾: وتعجب من تصاريف القدر، فخلق الإنسان من شيء لا قيمة له، ولولا طغيان النّاس عن الإيمان لعلموا كيف كان، فالإنسان الّذي كرّمه الله سبحانه وتعالى على سائر المخلوقات بدأه عز وجل من الطّين، وهو أدنى أجناس الوجود، وقلنا: إنّ جميع الأجناس تنتهي إلى خدمة الإنسان، الحيوان وهو أقربها للإنسان، ثمّ النّبات، ثمّ الجماد، ومن الجماد خُلِق الإنسان، وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقي الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم أن يُقبّل الحجر الأسود في فريضة كُتبت عليه مرّة واحدة في العمر، وهي فريضة الحجّ، وبعض المغرضين الّذين يحبّون أنْ يستدركوا على كلام الله عز وجل قالوا: إنّ الله سبحانه وتعالى قال في مسألة الخَلْق مرّة: ﴿مِّن مَّآءٖ﴾ [المرسلات: من الآية ٢٠]، ومرّة: ﴿مِن تُرَابٖ﴾ [الكهف: من الآية ٣٧]، ومرّة: ﴿مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون: من الآية ١٢]، ومرّة: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ [الحجر: من الآية ٣٣]، ومرّة: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: من الآية ٢٦].. إلخ، فأيُّ هذه العناصر أصل للإنسان؟ وقلنا: إنّ هذه مراحل مختلفة للشّيء الواحد، والمراحل لا تقتضي النّيّة الأوّليّة، فالماء والتّراب يُكوِّنان الطّين، فإذا تُرك الطّين حتّى تتغيّر رائحته فهو الحمأ المسنون، فإذا تُرك حتّى يجفَّ ويتجمّد فهو الصّلصال، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها، ويجوز لنا أنْ نقول: إنّ الإنسان خُلِق من ماء، أو من تراب، أو من طين... إلخ، والمراد هنا الإنسان الأوّل، وهو سيّدنا آدم عليه السلام، ثمّ أخذ الله سبحانه وتعالى سلالته من ماء مهين، والسّلالة هي خلاصة الشّيء، فالخالق سبحانه وتعالى

خلقَنَا أوّلاً من الطّين، ثمّ جعل لنا الأزواج والتّناسل الّذي نتج عنه رجال ونساء، ثمّ يحتفظ الخالق جلّ جلاله لنفسه بطلاقة القدرة في هذه المسألة، وكأنّه يقول لك: إيّاكم أنْ تفهموا أنّني لا أخلق إلّا بالزّوجيّة، إنّما أستطيع أنْ أخلق بلا زوجيّة كما خلقْتُ آدم، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام، وقد تتوفّر علاقة الزّوجيّة ويجعلها الله عزّ وجلّ عقيماً لا ثمرةَ لها، وهكذا تناولت طلاقة القدرة ألوان القسمة العقليّة كلّها في هذه المسألة، ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشّورى]، ثمّ إنّ خَلْق الإنسان الأوّل وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التّامّة الكاملة، فخلقه الله عزّ وجلّ رجلاً مستوياً، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثمّ كبر وجرتْ عليه سنة التّطوّر، إنّما خلقه الله سبحانه وتعالى على صورته؛ أي: على صورة آدم عليه السلام.

(الآية ٨) - ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾:

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾: النّسل هو الأنجال والذّرّيّة.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: السّلالة: خلاصة الشّيء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السّيف من غمده، فالسّلالة هي أجود ما في الشّيء، ولذلك نقول: فلان من سلالة كذا، وفلان سليل المجد، يعني: في مقام المدح، حتّى في الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة، ويُسجّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها.

﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾: هذا النّسل وهذه السّلالة خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ماء، وهو منيٌّ الرّجل وبويضة المرأة، هذا الماء وصفه الله عَزَّ وَجَلَّ بأنّه: ﴿مَّهِينٖ﴾؛ لأنّه يجري في مجرى البول، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرّحم، وفي هذا الماء المهين عجائب، ويرحم الله العقاد حين قال: إنّ أصول ذرّات العالم كلّه يمكن أن تُوضع في نصف كشتبان الخياطة، فالمسألة دقّة تكوين وعظمة خالق، ففي هذه الذّرّة البسيطة خصائص إنسان كامل، فهي تحمل: لونه، وجنسه، وصفاته.. إلخ، وسبق أن قلنا في عالم الذّرّ: إنّ في كلٍّ منّا ذرّة وجزيئاً حيّاً من لَدُنْ أبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(الآية ٩) - ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾:

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾: هذه التّسوية كانت أوّلاً للإنسان الأوّل الّذي خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الطّين، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر]، وقد مَرَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه التّسوية بالمراحل الّتي ذكرت، كذلك الأمر في سلالته يُسوّيها الخالق عَزَّ وَجَلَّ، وتمرّ بمثل هذه المراحل: من نطفة، ثمّ من علقة، ثمّ من مضغة.. إلخ، ثمّ تُنفخ فيه الرّوح، وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفيّة خَلْقه، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل من المُشَاهد لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق، ومعلوم أنّ نَقْض الشّيء يأتي على عكس بنائه، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدّة أدوار فإنّ آخر الأدوار بناءً هو أوّل الأدوار هدماً، كذلك الحال في الموت، أوّل شيء فيه خروج الرّوح، وهي آخر شيء

في الخَلْق، فإذا خرجت الرّوح تصلَّب الجسد، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصّلصاليّة، ثمّ يُنتن وتتغيّر رائحته، كما كان في مرحلة الحمأ المسنون، ثمّ يتحلّل هذا الجسد ويتبخّر ما فيه من مائيّة، وتبقى بعض العناصر الّتي تتحوّل إلى تراب ليعود إلى أصله الأوّل، فخُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربّك عز وجل فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الّذي لم تشهده.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾: سبق أن تكلّمنا عن هذه الأعضاء، وقد قرّر علماء وظائف الأعضاء مهمّة كلّ عضو وجارحة، ومتى تبدأ هذه الجارحة في أداء مهمّتها، وأثبتوا أنّ الأُذُن هي الجارحة الأولى الّتي تؤدّي مهمّتها في الطّفل، بدليل أنّك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطّفل بعد ولادته لا يرمش، في حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً؛ ذلك لأنّه يسمع بعد ولادته مباشرة، أمّا الرّؤية فتتأخّر من ثلاثة إلى عشرة أيّام، لذلك كانت حاسّة السّمع هي المصاحبة للإنسان، ولا تنتهي مهمّتها حتّى في النّوم، وبها يتمّ الاستدعاء، أمّا العين فلا تعمل أثناء النّوم، وهذه المسألة أوضحها الله سبحانه وتعالى في قصّة أهل الكهف، فلمّا أراد الحقّ جل جلاله لأهل الكهف أن يناموا هذه المدّة الطّويلة، ضرب الله سبحانه وتعالى على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسّة كما قال عز وجل: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ [الكهف]، ومن عجائب الأداء البيانيّ في القرآن الكريم أنّ كلمة: أسماع، يقابلها: أبصار، لكنّ المذكور هنا: ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾، فالسّمع مفرد، والأبصار جمع، فلماذا أفرد السّمع وجمع البصر؟ قال العلماء: لأنّ الأُذُن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات، كما أنّ للعين غطاءً يُسْدَل عليها ويمنع عنها المرئيّات، فهو

سمع واحد لي ولك وللجميع، الكلّ يسمع صوتاً واحداً، أمّا المرئيّات فمتعدّدة، فما تراه أنت قد لا أراه أنا، ولم يأْتِ البصر مفرداً -في هذا السّياق- إلّا في موضع واحد هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٣٦]؛ ذلك لأنّ الآية تتكلّم عن المسؤوليّة، والمسؤوليّة واحدة ذاتيّة لا تتعدّى، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً، ومن المناسب أن يذكر الحقّ سبحانه وتعالى السّمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق؛ لأنّ الإنسان يُولَد من بطن أمّه لا يعلم شيئاً، وبهذه الأعضاء والحواسّ يتعلّم ويكتسب المعلومات والخبرات، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النّحل]، فالمعاني تتجمّع بهذه الحواسّ، حتّى يصير الإنسان سَويّاً لديه الملَكة الّتي يتعلّم بها، ثمّ يُعلِّم هو غيره.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: قال العلماء: هي القلب، وقال بعضهم: إنّ الفؤاد هو المخّ أو الدّماغ، فالسّمع والبصر يجمّع المعلومات الّتي تذهب إلى الفؤاد.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: دليل على أنّ هذه النّعم تستوجب الشّكر، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر، وكان ينبغي أن نشكر المنعم كلّما سمعنا، وكلّما أبصرنا، وكلّما عملتْ عقولنا وتوصّلتْ إلى جديد.

(الآية ١٠) - ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: غِبْنا فيها، واندثرتْ ذرّاتنا، بحيث لا نعرف أين ذهبت، وإلى أيّ شَيء انتقلت، يقولون: إذا حدث هذا:

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾: يعني: أيخلقنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من جديد مرّة أخرى؟
والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يردّ عليهم:

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾: بل: تفيد الإضراب عن كلامهم السّابق، وتقرير حقيقة أخرى، هي أنّهم لا ينكرون البعث والحشر، إنّما ينكرون لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾، فمسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها؛ لأنّ الدّليل عليها واضح، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥﴾ [ق]، والّذي خلق من العدم أوّلاً قادر على الإعادة من موجود، فالإعادة أسهل من البَدْء؛ لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]، فتكذيبهم ليس للبعث في حَدّ ذاته، إنّما للقاء الله عَزَّ وَجَلَّ وللحساب، لكنّهم يُنكِرون البعث؛ لأنّه يؤدّي إلى لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم يكرهون لقاءه جَلَّ جَلَالُهُ، فينكرون المسألة من بدايتها.

(الآية ١١) - ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١﴾:

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾: نلحظ هنا أنّهم يتكلّمون عن البعث: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، ومعلوم أنّ البعث إيجاد حياة، فإذا بالقرآن الكريم يُحدّثهم عن الوفاة، وهي نقْضٌ للحياة، ليُذكّرهم بهذه الحقيقة.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: من توفّيت دَيْناً من المدين؛ أي: أخذتهُ كاملاً غيرَ منقوص، والمراد هنا: الموت، والتّوفّي يُنسَب مرّة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]، ومرّة إلى مَلَك الموت: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السّجدة: من الآية ١١]، ويُنسب مرّة إلى أعوانه من

الملائكة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: من الآية ٦١]؛ لأنّ مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو وحده واهب الحياة، وهو وحده صاحب الأمر في نَقْضها وسَلْبها من صاحبها؛ لذلك حرَّم الله عَزَّ وَجَلَّ القتل والانتحار، وجعل القاتل ملعوناً؛ لأنّه يهدم بنيان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إنسان الموت أذِن لملَك الموت في ذلك، فهذه المسألة لها مراحل ثلاث: التّوفّي من الله عَزَّ وَجَلَّ يأمر به ملك الموت، ثمّ يأمر ملكُ الموت ملائكتَه الموكَّلين بهذه المسألة، ثمّ ينفِّذ الملائكةُ هذا الأمر، ولنتأمّل لفظة: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: من الآية ٦١]؛ أي: أخذتْه كاملاً، فلم يقُلْ: أعدمتُه مثلاً؛ لذلك نقول قُبضت روحه؛ أي: ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه، ذهبت إلى الملأ الأعلى، ثمّ تحلَّل الجسد، وعاد إلى أصله، وذاب في الأرض، كما قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾، فالّذي يُتوفَّى لم يُعدم، إنّما هو موجود؛ روحه وجسده، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على إعادته يوم القيامة؛ لذلك لم يقُلْ: أعدمنا، وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً في قصّة سيّدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: من الآية ٥٥].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾، جاءت ردّاً على قولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الّذي قال: أنا خلقتُ الإنسان، لم يقُلْ: وأنا سأعدمه، إنّما: سأتوفّاه، فهو عندي كاملٌ بروحه وبذرّاته التّكوينيّة، والّذي خلق في البدء قادر على الإعادة، وجمع الذّرّات الّتي تشتّتت.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾: أي: يرقبكم ولا يغفل عنكم، يلازمكم ولا ينصرف عنكم، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك، كما قال أهل المعرفة: الموت سهم انطلق إليك فعلاً، وعمرك بمقدار سفره إليك، فهو واقع لا محالة، كما قلنا في المصيبة، وأنّها ما سُمّيت مصيبة إلّا لأنّها ستصيبك لا محالة.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾: أي: يوم القيامة سترجعون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والرّجوع والعودة والمردّ إليه، قال سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه]، ونقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فنحن من الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسنعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

(الآية ١٢) - ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾:

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة، يوم يُساق المجرم ذليلاً إلى ما يستحقّ من العذاب، وفي هذا المشهد يخاطب الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهو أوّل مخاطَب، ثمّ يصبح خطاباً لأمّته:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: أي: حالة وجودهم أنّهم ناكسوا رؤوسهم، وتقدير جواب الشّرط: لرأيتَ أمراً عجيباً يشفي صدرك ممّا فعلوه بك، ونلحظ في هذا الأسلوب دقّة الأداء في قوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾، فلم يقل مثلاً: (ولو تعلم)؛ لأنّ إخبار الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كأنّه رؤيا العين، فحين يخبرك الله جَلَّ جَلَالُهُ بأمر، فاعلم أنّه أصدق من عينك حين ترى؛ لأنّ عينك قد تخدعك، أمّا إخبار الله عَزَّ وَجَلَّ لك فهو الحقّ.

﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾: النّكس: هو جَعْل الأعلى أسفل، والرّأس دائماً في الإنسان أعلى شيء فيه، وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون:

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: هذا كلامهم، ومع ذلك لم يقل القرآن الكريم: (قالوا: أبصرنا وسمعنا)، فحَذْف الفعل هنا يدلّ على أنّ القول ليس سهلاً عليهم؛ لأنّه إقرار بخطئهم الأوّل وإعلان لذلَّة التّوبة، وقلنا: إنّ هذه هي الآية الوحيدة الّتي تقدَّم فيها البصر على السّمع؛ لأنّ السّاعة حين تأتي بأهوالها نرى الهول أوّلاً، ثمّ نسمع ما نراه، لذلك يقول ﷻ مُصوِّراً أثر هذا الهول: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحجّ: من الآية ٢]، فقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ إقرار منهم بأنّهم كانوا على خطأ، وأنّهم يرغبون في الرّجوع إلى الصّواب، كما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون]، ثمّ كشف حقيقة أمرهم: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: من الآية ٢٨]، وهنا يقولون:

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: وهل يكون اليقين في هذا الموقف؟ اليقين إنّما يكون بالأمر الغيبيّ، وأنتم الآن في اليقين الحسّيّ المُشَاهد، فهو يقين لا يُجدي.

(الآية ١٣) - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾: هنا قد يسأل سائل: لماذا جعل الله ﷻ النّاسَ مؤمنين وكافرين، طائعين وعاصين؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً

مهتدين طائعين؟ أهذا صعب على الله تبارك وتعالى؟ الجواب: لا، ليس صعباً على الله جل جلاله، بدليل أنّه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، كذلك الأرض والسّماء والجبال.. إلخ، كلّها تُسبّح الله سبحانه وتعالى وتعبده: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النّور: من الآية ٤١]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، وهنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾، فالله سبحانه وتعالى يبلو الإنسان بالنّسبة إلى العمل، حيث تركه يختار، ولم يجعله كالملائكة، وكالمخلوقات المسيَّرة الّتي لا اختيار لها، إنّما أخذ الإنسان الاختيار مُفصَّلاً، وبقيّة الخَلْق أخذوا الاختيار جملة، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأحزاب]، هذه أمانة الاختيار والعقل والاختيار بين البدائل، فابن آدم اختار أن يكون مختاراً، ومعنى الهداية في: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ أي: هداية المعونة، وإلّا فقد هدى اللهُ عز وجل جميعَ النّاس هداية الدّلالة على طريق الخير، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: من الآية ٩]، فالّذي أخذ بهداية الدّلالة أيّده الله سبحانه وتعالى بهداية المعونة، كما قال جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمّد].

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾: يريد الله سبحانه وتعالى أنْ يثبت لخَلْقه أنّه هو الأَوْلَى بالحكمة في الخَلْق، بدليل أنّ الّذي يشذّ عن مراد الله عز وجل لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع، كما نرى المجتمعات تشقى بالعصاة، والحقّ سبحانه وتعالى يترك الكافر يكفر باختياره، والعاصي يعصي باختياره، ويكون إثم للكافر وإثم للعاصي، ولو

عادوا إلى ما أمر به الله سبحانه وتعالى لسلم النّاس جميعاً، ولو أنّ النّاس عملوا بما أنزل الله عزّ وجلّ ما حدث فساد في الكون ولا خَلَلٌ في حياتهم أبداً.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾: أي: وقع وثبت وقُطع به، ويأتي هذا المعنى بلفظ سبق، كما في: ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات]، حقّ القول؛ أي: مضى هذا الأمر.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: عرفنا أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الجنّة، وخلق لها أهلاً يملؤونها، وخلق النّار وخلق لها أهلاً يملؤونها، فليس فيهما أزمة أماكن، فالجنّة أُعِدَّتْ لتَسَع جميع الخَلْق إنْ آمنوا، وكذلك النّار أُعِدَّتْ لتَسَع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا، فكلّ إنسان يكفر يترك مقعده في الجنّة ويأخذ مقعده في النّار.

﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: أي: الجِنّ والعفاريت.

(الآية ١٤) - ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤﴾:

﴿فَذُوقُوا۟﴾: والتّقدير: ذوقوا العذاب، كما جاء في آية أخرى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: من الآية ٤٨]، ويُقال هذا لزعماء ورؤوس الكفر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدّخان]، واختار حاسّة التّذوّق؛ لأنّ كلّ وسيلة إدراك قد تتّصل بلون من ألوان التّرف في الحياة، أمّا الذّوق فيتّصل بإمداد الحياة، وهو الأكل والشّرب، وبهما قوام حياة الإنسان، فهما ضرورتان للحياة لا مجرّد ترف فيها، وعِلّة هذه الإذاقة:

﴿بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾: أي: يوم القيامة الّذي حدَّثناكم عنه، وحذَّرناكم من أهواله، فلم نأخذكم على غِرَّة، لكن نبّهناكم إلى سوء العاقبة، فلا عذرَ لكم الآن، وقد ضخَّم الله ﷻ لهم هذه الأهوال، فكان من الواجب أن يلتفتوا إليها، وأنْ يعتبروا بها، ويتأكّدوا من صِدْقها، والمؤمنون يغرمون حين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالمكذّبين والجاحدين؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى نجّاهم بإيمانهم من هذا العذاب: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥]، وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﷻ:

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾: فأنتم نسيتم لقاء الله ﷻ، ونسيتم أوامره، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم، وقد ترككم سبحانه وتعالى ليس هملاً، إنّما ترككم من امتداد الرّحمة بكم، فقد كانت رحمته تشمل المؤمن والعاصي في الدّنيا، وخصّ بها المؤمنين في الآخرة.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: فهذا العذاب الخالد، وهو جزاء العمل، والله سبحانه وتعالى يبيّن بشكلٍ قاطع: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النّجم]، والإنسان يُحاسَب على عمله، وقد يقول قائل: إنّ النّبيّ ﷺ يقول: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»(١)، نقول: صحيح إنّ الله سبحانه وتعالى يُحاسِب على العمل، لكنّه سبحانه وتعالى يُدخل الجنّة

(١) صحيح مسلم: كتاب صفةِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ، بابُ لَنْ يدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعملهِ بلْ برحمةِ اللهِ تعالى، الحديث رقم (٢٨١٦).

بالفضل وبرحمته؛ لأنّه مهما عمل الإنسان لا يمكن أن يوفّي المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقّه، ويبقى مقصّراً، ومَن الّذي جعل الجنّة ثواباً للمؤمن على عمله؟ إنّه الله عَزَّ وَجَلَّ.

(الآية ١٥) - ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ١٥﴾:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: الخرور: السّقوط بغير نظام ولا ترتيب، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: من الآية ٢٦]، وفي موضع آخر قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا المعنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٧]؛ أي: من قبل القرآن الكريم: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٧- الآية ١٠٨]، فالخرور: أنْ تهوي إلى الأرض ساجداً دون تفكير، وكلّ سجود في القرآن الكريم يتلو هذه المادّة: (خرَّ) دليل على أنّها أصبحتْ مَلَكة وآليّة في المؤمن، بل ويؤكّدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٧]؛ لأنّه سجود يأخذ الذّقن، فهو متمكّن في الذّلّة، وهو فوق السّجود الّذي نعرفه في الصّلاة على الأعضاء السّبعة المعروفة، ولم يُذكر الخرور مع الرّكوع إلّا في موضع واحد، هو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأن سيّدنا داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾ [ص: من الآية ٢٤]، وفي موضع آخر قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾ [الإسراء]، فكلّما ازدادوا ذِلَّة ازدادوا خشوعاً، فكأنّهم عشقوا التّكليف، وأحبّوا أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لذلك بالغوا في الذّلّة والعبوديّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه المسألة تفسّر لنا قول النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَبُ مَا**

يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1]، فعلى الإنسان أن يُكثر من الدّعاء حال سجوده، ويجعل لنفسه بعد صلاته سجدة دعاء، ففي السّجود يضع الإنسان وجهه وجبهته -وهي رمز العلوّ والرّفْعة- على الأرض خضوعاً لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا یَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، سبّحوا بحمد ربّهم بكلّ ذلّة وخضوع، والتّسبيح هو تنزيه وتقديس لله عَزَّوَجَلَّ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَیۡءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، ﴿فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ حِینَ تُمۡسُونَ وَحِینَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِی ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِیࣰّا وَحِینَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾ [الرّوم].

﴿وَهُمۡ لَا یَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾: في ذلّة يخضعون لربّهم بهذا السّجود.

(الآية ١٦) - ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ یَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفࣰا وَطَمَعࣰا وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ یُنفِقُونَ ۝١٦﴾:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾: التّجافي: التّرك، لكنّ التّرك قد يكون معه شوق، ويصاحبه ألم، كحالتك عندما تودّع حبيباً وتتركه، وأنت غير زاهد فيه، أمّا الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك، فهؤلاء المؤمنون يتركون مضاجعهم وكأنّ جنوبهم تكره المضجع وتجفوه؛ لأنّها تتركه إلى لذّة أبقى وأعظم هي لذّة الاتّصال بالله عَزَّوَجَلَّ ومناجاته، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾؛ أي: تكرهها وتجفوها، مع أنّها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته.

---

(١) صحيح مسلم: كتابُ الصَّلاةِ، بابُ ما يُقالُ في الرّكوعِ والسُّجودِ، الحديث رقم (٤٨٢).

﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾: أي: يدعون ربّهم جَلَّ جَلَالُهُ وهم على حال التّعب، فالدّعاء مجرّد الدّعاء يريحهم، لماذا ولم يُجابوا بعد؟ قالوا: لأنّهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ، ثمّ إنّ حلاوة لقائهم بربّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الصّلاة تُنسيهم التّعب الّذي يعانون، والمؤمنون يدعون ربّهم:

﴿خَوۡفٗا﴾: أي: خوفاً ممّا حدث منهم من تقصير في حقّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنّهم لم يُقدِّموا لله عَزَّ وَجَلَّ ما يستحقّ من التّقوى والطّاعة.

﴿وَطَمَعٗا﴾: أي: في المغفرة.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾: والمراد هنا الزكاة، لذلك نرى في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ أنّ هذا التّجافي كان بقصد الصّلاة؛ لأنّ القرآن الكريم عادةً ما يقرن الصّلاة بالزكاة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

(الآية ١٧) - ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾:

إنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخفى أسرار الخير عن الخَلْق، ولم يُعْطهم منها إلّا على قدر حاجتهم منها، فإذا أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يُجازي عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدّنيا وإمكاناتهم فيها، إنّما يجازيهم بما يعلم هو جَلَّ جَلَالُهُ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته، وهذه الإمكانات لا نستطيع التّعبير عنها؛ لأنّ ألفاظ اللّغة لا تستطيع التّعبير عنها، ومعلوم أنّ الإنسان لا يضع الاسم إلّا إذا وُجِد المسمّى والمعنى أوّلاً؛ لذلك قال جَلَّ جَلَالُهُ في التّعبير عن هذا النّعيم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾، وقال النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الجنّة: «**أَعْدَدْتُ**

لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، فكيف نُسمّي هذه الأشياء؟ وكيف نتصوّرها، وهي فوق إدراكاتنا؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله تعالى في الجنّة، ثمّ ألَا ترى أنّ الحقّ ﷻ حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنّة، لا يقول لنا: الجنّة كذا وكذا، إنّما يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرّعد: من الآية ٣٥]؛ أي: ما نعرضه عليك أيّها الإنسان ليس هو الجنّة، إنّما شبيه بها، أمّا هي على الحقيقة ففوق الوصف الّذي تؤدّيه اللّغة، فالله ﷻ يعطينا الصّورة القريبة لأذهاننا، لهذا قال ﷻ عن نعيم الجنّة:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: القرّة والقُرور: أي: السّكون، ومنه قرَّ في المكان؛ أي: استقرّ فيه، والمعنى أنّ الإنسان لا يستقرّ في المكان إلّا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته، فإذا أردتَ أنْ تستقرّ في مكان، أو تشتري شقّة مثلاً، تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق.. إلخ، فمعنى (قرة العين)؛ أي: استقرارها على شيء بحيث لا تتحوّل عنه إلى غيره، والعين لا تستقرّ على الشّيء إلّا إذا أعجبها، ورأتْ فيه كلّ ما تصبو إليه من متعة.

ثمّ يُعلِّل الله ﷻ هذا النّعيم الّذي أخفاه لعباده المؤمنين في الجنّة بأنّه:

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: وهذه أثارت معركة بين العلماء هي معركة الأحبّاء؛ ففريق قال: إنّ المؤمن يدخل الجنّة بعمله، كما نصّتْ هذه الآية؛ أي: أنّ الجنّة بالعدل لا بالفضل، وفريق قال: بل يدخل الجنّة بفضل الله ﷻ،

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ بَدْءِ الخلقِ، بابُ ما جاءَ في صِفَةِ الجَنَّةِ وأَنَّها مَخْلُوقَةٌ، الحديث رقم (٣٢٤٤).

كما جاء في قول الحقّ ﷻ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس]، وكما قلنا في الآية السّابقة: إنّ النّبيّ ﷺ يقول: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»(١)، فهناك توفيق بين القولين: أنّ الإنسان يدخل الجنّة بعمله، ولكن أن تكون الجنّة جزاء له فهذا من رحمة الله ﷷ.

(الآية ١٨) - ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾:

نلحظ أنّ مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد، فكان القياس أنْ نقول: لا يستويان، لكن في سياق القرآن الكريم جاءت: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾، وسبق أنْ قُلْنا: إنّ: (من وما) الموصولتين تأتيان للمفرد أو المثنّى أو الجمع، وللمذكّر والمؤنّث، فمرّة يراعي السّياق لفظها، ومرّة يراعي معناها، والمعنى هنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾: الحقّ ﷻ لا يتكلّم عن المفرد، إنّما عن الجمع، أو أنّها قيلت ردّاً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر، وأراد الحقّ ﷻ أن يعطيها العموم لا خصوص السّبب، فراعى السّياق خصوص السّبب في مؤمن وكافر، وراعى عموم الموضوع، فقال: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾، والقاعدة الفقهيّة تقول: إنّ العبرة في القرآن الكريم بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، وقيل: إنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وهكذا جمعتْ الآية بين خصوصيّة السّبب في: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾، وبين عموم الموضوع في: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً، وجاء قوله ﷻ: ﴿لَّا

(١) صحيح مسلم: كتاب صِفَةِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ، بابُ لَنْ يَدْخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعملِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ تعالى، الحديث رقم (٢٨١٦).

﴿يَسۡتَوُۥنَ﴾، كأنّه جواب للسّؤال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾، لكن لماذا لم يأتِ الجواب: لا يستوي المؤمن والفاسق؟ قالوا: لأنّ هذا الأسلوب يسمّى أسلوب الإقناع التّأكيديّ، وهو أن تجعل الخصم هو الّذي ينطق بالحكم، وما دام أنّ المؤمن لا يستوي والفاسق، فلكلّ منهما جزاء يناسبه:

(الآية ١٩) - ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩﴾:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وإنْ جاءت لفظة (مؤمن) مفردة، فقد أوضحتْ هذه الآية أنّ المراد الجمع؛ أي: العموم؛ لأنّه أُخِذ ممّا كان مفرداً جمعاً، وهذا دليل على أنّ هذا المفرد في جنسه جمع كثير، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر]، فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: من الآية ٣]؛ لأنّ لفظة الإنسان هنا تدلّ على الجماعة، واللّام هنا هي اللّام الاستغراقيّة، فالحقّ سبحانه وتعالى ينقلنا من المؤمن إلى العموم: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومن الفاسق إلى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾، فهما جماعتان متقابلتان لكلّ منهما جزاؤه الّذي يناسبه.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾: المأوى: هو المكان الّذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه؛ ليحفظه من كلّ مكروه، كما قال سبحانه وتعالى في شأن عيسى وأمّه مريم عليهما السلام: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: من الآية ٥٠]، يعني: يمكنهما الاستقرار فيها؛ لأنّ بها مُقوِّمات الحياة، ﴿وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: من الآية ٥٠]، يعني: عيْن ماء.

﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾: فالجنّة مأوى المؤمن، تحفظه من النّار وأهوالها.

﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: جزاء عملهم الصّالح، والنّزُل هو المكان المعَدّ لينزل فيه الضّيف الطّارئ عليك؛ ومن ذلك يسمّون الفندق: (نُزُل)، فإذا كانت الفنادق الفاخرة الّتي نراها الآن ما أعَدَّه البشر للبشر، فما بالنا بما أعدَّهُ ربُّ البشر لعباده الصّالحين؟

(الآية ٢٠) - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾: من الفسوق؛ أي: الخروج، نقول: فسقتْ البلحة، يعني خرجت عن قشرتها، والمراد هنا الّذين خرجوا عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: قلنا: إنّ المأوى هو المكان الّذي تأوي إليه، فيحميك من كلّ مكروه، فكيف تُوصَف به النّار هنا؟ الجواب: الكلام هنا للتّهكّم والسّخرية، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: من الآية ٢١]. ثمّ يُصوِّر لنا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما فيه أهل النّار من اليأس:

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾: وفي موضع آخر قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزّخرف]، فلا أمل لهم في الخروج، ولا حتّى في الموت الّذي يريحهم ممّا هم فيه، بل تردّهم الملائكة في العذاب، ويقولون لهم:

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: فالإذاقة تعدَّتْ اللّسان واستولتْ على كلّ الأعضاء، فكلّ ذرّة فيه تذوق عذاب النّار جزاء ما كانوا يكذّبون بها في الدّنيا، حيث كذّبوا بالأصل، وهو الرّجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يوم

القيامة، ثمّ إنّ عذاب الفاسقين لا يقتصر على عذاب الآخرة، إنّما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه في الدّنيا.

(الآية ٢١) - ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾:

﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أي: القريب، والمراد في الدّنيا.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: أي: عذاب الآخرة، وهذا العذاب الّذي سيصيبهم في الدّنيا مظهر من مظاهر رحمة الله ﷻ حتّى بالكافرين والفاسقين؛ لأنّ الله ﷻ علّله بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فالمراد ما يلحقهم من عذاب في دار التّكليف كالذّلّة والهوان لعلّهم يرجعون، ووصفه الله ﷻ بأنّه العذاب الأدنى، أمّا العذاب الأكبر الّذي لا مهرب منه، ولا مفرّ، هو عذاب الآخرة، وهو العذاب الأكبر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: رجاء أنْ يعودوا إلى ساحة الإيمان في الدّنيا، وقلنا: إنّ (لعلّ) تفيد الرّجاء المحقّق إنْ كان الفعل من الله ﷻ، أمّا الرّجاء هنا فرجاء في العبد الّذي يملك الاختيار؛ لذلك رجع بعضهم، ولم يرجع الآخرون.

(الآية ٢٢) - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾: هنا أيضاً يعرض علينا ربّنا ﷻ هذه القضيّة في صورة هذا السّؤال التّقريريّ، كأنّه ﷻ يقول لنا: أنا

بيّنت لكم يا عبادي، فقولوا لي: هل يوجد أحد أظلم ممَّنْ ذُكِّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها، والمنطق الطّبيعيّ أن نقول: لا أحدَ أظلم من هذا، وهذا إقرار مِنّا بهذه الحقيقة؛ لذلك عرضها الله ﷻ في صورة سؤال بدل الإخبار بها.

﴿ذُكِّرَ﴾: أي: أنّ رسالات الله ﷻ إلى خَلْقه ما هي إلّا تذكير بعهد الإيمان القديم الّذي أخذه الله ﷻ على عباده حين قال ﷻ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، وسبق أنْ قُلْنا: إنّ في كلّ منّا ذرّةً شهدتْ هذا العهد، وجاء الرّسل والأنبياء؛ ليبلّغوا الرّسالة والشّرائع، لكنّ الإنسان طغى وتجبّر، وكذّب بالإيمان، قال ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشّمس].

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾: هؤلاء مجرمون؛ لأنّهم ليس فقط أذنبوا، وليس فقط كذّبوا، وليس فقط كفروا، وليس فقط جحدوا، وإنّما أجرموا بحقّ أنفسهم، وبحقّ مجتمعاتهم، وبحقّ مَنْ حولهم، وبحقّ ذرّيّاتهم، وآبائهم، أجرموا بأنّهم اختاروا الكفر على الإيمان.

(الآية ٢٣) - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٢٣﴾:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾: الإيتاء يختلف، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً، وهناك إيتاء لكتاب موقوت، لزمن موقوت، لقوم موقوتين، وإيتاء آخر لكلّ الأزمان والأمكنة، كما هو القرآن الكريم، فهو لكلّ زمان ومكان.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: التّوراة.

﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ﴾: أي: في شكّ.

﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب؟ إنْ كان لقاء موسى عليه السلام فهو تبشير بأنّ الله جلّ جلاله سيجمع بين سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حَيٌّ بقانون الأحياء وبين موسى عليه السلام الميّت بقانون الأموات، وهذا لا يتأتّى إلّا إذا كان حديث الإسراء والمعراج في أنّهما التقيا فيه صادقاً؛ لذلك في القرآن الكريم آية ينبغي أن نقف عندها، وأن نتأمّلها بيقظة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزّخرف]، هذا تكليف من الله عزّ وجلّ لمحمّد صلى الله عليه وسلم أنْ يسأل الرّسل، فمتى يسألهم؟ فهذه الآية -والله أعلم- تنبئ بأنّهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا، وهذه الآية في لقاء موسى والأخرى في لقاء الرّسل كلّهم، فعلينا أن نصدّق بحديث الإسراء والمعراج، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع بإخوانه من الأنبياء في بيت المقدس، وصلّى بهم ودار بينهم حوار.

أمّا إذا كان المعنى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي: لقاء الكتاب، فالتّوراة كما قلنا: أصابها التّحريف والتّبديل، وزِيدَ عليها وكُذِب فيها، لكن سيأتيك يا محمّد من أهل التّوارة، أمثال: عبد الله بن سلام، مَنْ يعرفون التّوراة بلا تحريف، ويُسرُّون إليك بها، هؤلاء الّذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران: من الآية ١١٣]، ألم يواجه عبد الله بن سلام رضي الله عنه قومه من اليهود، فقال لهم: كيف تُكذِّبون بمحمّد، وقد كنتم تستفتحون به على الّذين كفروا، فتقولون لهم:

لقد أطلَّ زمان نبيّ يأتي فنتّبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم، لقد تجمّعتم من شتّى البلاد، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدِم هذا النّبيّ، فما بالكم تكذّبونه؟ وقد قال القرآن الكريم عنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: من الآية ٨٩]، ومن لقاء الكتاب الّذي وعد به النّبيّ ﷺ ما رُوِي عن عبد الله بن سلام ﵁ أنّه لـمّا أراد أنْ يؤمن أتى النّبيّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ البَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ»، قَالُوا: أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ»، قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ(١).

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أي: جعلنا الكتاب هدى، وهذا دليل على أنّ منهم مهتدين بدليل شهادة القرآن الكريم لهم: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: من الآية ١١٣].

(الآية ٢٤) - ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾: ليس المقصود بالإمامة هنا السّلطة الزّمنيّة، إنّما إمامة القدوة بأمر الله ﷻ؛ لذلك قال ﷻ:

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ أحاديثِ الأنبياءِ، بابُ خَلْقِ آدمَ ﵇ وذُرِّيَّتِهِ، الحديث رقم (٣٣٢٩).

﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾: فهم لا يصدرون في شيء إلّا على هدى من الله عزّ وجلّ، وفي سورة الأنبياء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء].

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾: الإيقان: هو الإيمان الّذي لا يتزعزع، ولا يطفو إلى العقل ليُبحَث من جديد، يعني: أصبحت مسألة مُسلَّماً بها، مستقرّة في النّفس.

(الآية ٢٥) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥﴾:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: نلحظ على أسلوب الآية أنّها لم تقل مثلاً: إنّ ربك يفصل بينهم، إنّما استخدمت الضّمير المنفصل: ﴿هُوَ﴾؛ ليفيد التّأكيد والاختصاص، فالمعنى: لا أحدَ يفصل بينهم في القيامة إلّا الله عزّ وجلّ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: من الآية ١٦]، فجاءت ﴿هُوَ﴾ لتقطع الشّكّ في وجود الغير.

﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: لأنّ الفصل لا يكون إلّا عن نزاع، والنّزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضيّة تريد مراجعة من حكم.

(الآية ٢٦) - ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾:

تكلّم الله سبحانه وتعالى عن الرّسالة الّتي أرسل بها رسوله صلى الله عليه وسلم ليؤكّد في النّاس عقيدة أعلى، وهي عقيدة الوجود للإله الواحد الّذي لا شريك له، ثمّ بيّن

أنّ لنا مع الله ﷻ لقاء آخر حين تنتهي هذه الدّنيا الفانية، ثمّ نستقبل حياة خالدة، إمّا إلى جنّة إنْ شاء الله، وإمّا إلى نار -نعوذ بالله-.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾: كما قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر]، فهذه الأهرامات الّتي يَفِد إليها النّاس، والّتي تُعَدُّ مزاراً سياحيّاً هي آية من آيات الله ﷻ تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرّسل، فالله ﷻ لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونيّة الّتي تشهد بوحدانيّته ﷻ وألوهيّته ﷻ، والمعجزات الّتي تثبت صدق الرّسول في البلاغ عن ربّه ﷻ، ثمّ آيات الأحكام الّتي تحمل أقضية الحياة، والّتي لا يمكن لبشر أنْ يستدرك عليها، وتحمل الحلَّ الشّافي والدّواء النّاجع لكلّ أدواء المجتمع، وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم، كما قال ﷻ: ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصّافّات]، فها هي آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم، بعضها فوق الأرض، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثّرى؛ لذلك نجد أنّ كلّ الآثار القديمة يجدونها في الحفريّات تحت الأرض، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة، فتبتلع القافلة بأكملها، فما بالك بهبَّات الرّياح من أيّام عاد حتّى الآن؟ فخذوا عبرة من مصير هؤلاء.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾: يهدي: أي: يدلُّ ويرشد ويُبيّن ويُوضّح، والهداية لها عناصر ثلاثة: الهادي والمهديّ والشّيء المهْدَى إليه، فاللّام في: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾؛ أي: لمصلحتهم ومن أجلهم، وليس عليهم، فالهدى لمصلحة المهديّ

لا الهادي، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أنّ الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلَّغه عن الله عَزَّوَجَلَّ هذا الفضل.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾: أي: انظروا إلى المخالفين للرّسل من قبلكم، وكيف أخذهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلم يُمكّنهم من رسله، بل انتصر الرّسل عليهم، و﴿كَمْ﴾ هنا بمعنى: كثير، كما تقول لمن ينكر جميلك: كم أحسنتُ إليك؛ أي: مرّات كثيرة لا تُعَدُّ، والمراد: أنّنا بيّنّا لكم كثيراً من الأمم الّتي عادتْ رسلها، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم الّتي انتهوا إليها: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: القرن: حدّده العلماء بمئة عام، لكنّ هذه المئة تتداخل، ويقترن فيها عدّة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد، فالقرن يقرن بين الجدّ والابن والحفيد، هذا إنْ أردنا الزّمن وحده، فإنْ قُرِن الزّمن بعصر دين من الأديان أو نبيّ أو ملك، فقد يطول القرن إلى الألف عام، كما في قرن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالقرن مرتبط بما قُرن به؛ لذلك نقول: العصر الجاهليّ، عصر صدر الإسلام، عصر بني أميّة، العصر العبّاسيّ، عصر المماليك، وما نزال حتّى الآن نقول عن عصرنا: العصر الحديث.

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يلقي القضايا دون حجّة أو دليل، بل هي شاخصة أمامكم تمرّون بها، وترونها ليل نهار، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصّافّات].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: فالله سبحانه وتعالى يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سِيَر المكذِّبين المعاندين، وما حاق بهم من انتقام الله عز وجل منهم.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾: اختار الله سبحانه وتعالى هنا حاسّة السّمع؛ لأنّها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظّالمين الفراعنة والأكاسرة والقياصرة وغيرهم، وبها نعتبر، وفي موضع آخر سيقول عز وجل: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [السّجدة: من الآية ٢٧]، ويقول جل جلاله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ [يس: من الآية ٦٨]، فيُنَوِّع لنا، ويُقلِّب كلّ وسائل الإدراك لينبّهنا من خلالها، والمعنى: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظّالمين، لقد نبّهناهم وذكَّرناهم، ومع ذلك أشركوا.

(الآية ٢٧) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾:

نلاحظ هنا توافق النّسق القرآنيّ بين صدر الآيات وعَجُزها، ففي الآية السّابقة قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ أي: يدلُّ ويرشد، والكلام فيها عن قصص تاريخيّ، فناسبها: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، أمّا هنا فالكلام عن مشاهد مرئيّة، فناسبها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، فهذا ينبغي أنْ يُسمَع، وهذا ينبغي أنْ يُرى.

وفي الآية السّابقة قال سبحانه وتعالى: ﴿أَهْلَكْنَا﴾، لنعتبر بإهلاك المكذّبين في الماضي، أمّا هنا فيلفتنا إلى آية من آياته في الكون، فيأتي الفعل: ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بصيغة المضارع الدّالّ على التّجدّد والاستمرار، ففي الأوقات كلّها يسوق الله سبحانه وتعالى السّحب، فينزل منها المطر على الأرض ﴿الْجُرُزِ﴾؛ أي: المجدبة، فتصبح مُخضرّة بأنواع الزّروع والثّمار، وهذه آية مستمرّة نراها جميعاً،

ولا تزال في الحال وفي الاستقبال؛ ولأنّ هذه الآية واقعة الآن وتحتاج منّا المشاهدة والتّأمّل، قال في ختامها: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾.

﴿نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ﴾: السَّوْق: حَثٌّ بسرعة، ومعلوم أنّ السَّوْق يكون من الوراء، على خلاف القيادة، فهي من الأمام، فالّذي تسوقه يكون أمامك، وأنت تراه فلا يتفلّت منك، ولو كان خلفك فهو عُرْضة أنْ يهرب منك، فلا تشعر به، والسَّوْق مرّة يكون للسّحاب، كما في قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [فاطر: من الآية ٩]، ومرّة يكون السَّوْق للماء نفسه كما في هذه الآية، وسَوْق الماء له عدّة مظاهر: فالله ﷻ يسوق الماء من السّحاب إلى الأرض، فإذا نزل إلى الأرض ساقه في الأنهار، أو سلكه ينابيع في الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه، فربُّنا ﷻ جعل لنا خزّانات للماء تحت الأرض، لا لنحرم منه حين يوجد، لكن لنجده حين يُفقَد، وكون الماء ينابيع في الأرض يجعلنا نتغلّب على مشكلات كثيرة، فالأرض تحفظه لنا، فلا يتبخّر، ولا نحتاج إلى بناء السّدود وغيرها، ممّا يحفظ لنا الماء العَذْب، وإيّانا أنْ نظنّ أنَّ الماء حين يسلكه اللهُ ﷻ ينابيعَ في باطن الأرض يسيح فيها، أو يحدث له استطراق سائليّ يختلط فيه العذب بالمالح، لا.. إنّما يسير الماء العَذْب في شبه أنابيب ومسارب خاصّة، يجدونها حتّى تحت مياه الخليج المالحة، وهذه من عجائب الخَلْق الدّالّة على قدرة الخالق ﷻ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠﴾ [الرّحمن]، كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض، فالله ﷻ يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾،

فهذه آية نشاهدها جميعاً، لكنّ المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل، نهتدي من خلالها إلى قدرة الخالق ﷻ.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾ فيه دليل على قيُّوميّته سبحانه وتعالى على الخلق، فإنْ كان سَوْق الماء يتمّ بواسطة الملائكة المكلَّفين به، إلّا إنّه سبحانه وتعالى صاحب الأمر الأوّل والمتتبّع لعمليّة تنفيذه.

﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾: قدَّم الله سبحانه وتعالى الأنعامَ على الإنسان في الأكل من الزّرع، مع أنّها كلّها مملوكة للإنسان؛ لأنّ الأنعام في الغالب تأكل من الزّرع وهو ما يزال أخضراً لم ينضج بَعْد، مِن قبل أن يأكُلَ الإنسان الحبَّ.

(الآية ٢٨) - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨﴾:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾: كلمة: ﴿مَتَىٰ﴾ يُستفهم بها عن الزّمان، والاستفهام بها يدلّ على أنّك استبطأت الشّيء فاستفهمتَ: متى يحدث؟ الرّسول ﷺ حين بُعِث أخبر قومه أنّه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ﷻ، وقد أيّده الله سبحانه وتعالى بالمعجزات، وأخبرهم بمصير مَن اتّبعه ومصير مَنْ خالفه، وأنّ ربّه ﷻ ما كان ليرسله إليهم، ثمّ يُسلْمه أو يتخلّى عنه، فهو لا بُدَّ منتصر عليهم، فهذه سنّة الله سبحانه وتعالى في أنبيائه ورسله، حيث قال جلّ جلاله: ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصّافّات]، وهنا يحكي الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنّهم قالوا لرسول الله ﷺ: متى هذا الفتح؛ أي: النّصر الّذي وعدك الله سبحانه وتعالى به يا محمّد؟ وقد كان هذا النّصر غاية بعيدة

المنال أمام المؤمنين، فما زالوا قلَّة مُسْتَضعفة، والاستفهام هنا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ ليس استفهاماً على حقيقته، إنّما يراد به الاستهزاء والسّخرية بسيّدنا رسول الله ﷺ، وجواب الله ﷻ على هذا الاستفهام يحدّد نيّتهم منه، فهم يستبعدون هذا النّصر وهذه الغلبة الّتي وعد الله سبحانه وتعالى بها عباده المؤمنين، لكنّهم يستبعدون قريباً، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه، وقد سجَّل القرآن الكريم عليهم مثل هذا الموقف في قوله سبحانه وتعالى حكايةً عن الكفّار الّذين قالوا لرسولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: من الآية ٧٠].

وكلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بـ (أل) فخيرها مضمون، واعلم أنّها نعمة محروسة لك سينالك نفعها، فإنْ جاءت نكرة، فلا بُدَّ لها من متعلّق يوضّح الغاية منها: أهذا الفتح لك أم عليك؛ فقوله سبحانه وتعالى في خطاب النّبيّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١﴾ [الفتح] دلَّ على أنّ هذا الفتح لمصلحته ﷺ، فهو غُنْم لا غُرْم، أمّا الأخرى، ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٤].

وكلمة (الفتح) تأتي بمعانٍ متعدّدة، يحدّدها السّياق، كما قلنا في كلمة العين، فتأتي بمعنى العين الباصرة، تقول: رأيت فلاناً بعيني، وتقول: جُدْت على فلان بعيْن منّي؛ أي: بالذّهب أو الفضّة، وتقول: سمحتُ له أنْ يروي أرضه من عيني؛ أي: عين الماء، وتقول: هؤلاء عيون فلان؛ أي: جواسيسه، وهذا يسمّونه: المشترك اللّفظيّ.

١- وكلمة (الفتح) تستخدم في الأمر المادّيّ، تقول: فتحتُ الباب؛ أي: أزلت مغاليقه، وهذا هو الأصل في معنى الفتح، فالحقّ سبحانه وتعالى يقول في

قصّة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: من الآية ٦٥]، ففتحوا متاعهم الفتح المادّيّ الّذي يُزيل عنه الأربطة.

٢- وقد يُراد الفتح المعنويّ، كما في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٧٦]؛ أي: بما أعطاكم الله سبحانه وتعالى، ومنحكم من الخير والعلم.

٣- ويأتي الفتح بمعنى إظهار الحقّ في الحكم بين حقّ وباطل وتجلية الأمر فيه؛ لذلك يسمّي أهلُ اليمن القاضي: (الفاتح).

٤- ويأتي بمعنى النّصر والغَلَبة، كما في هذه الآية الّتي معنا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثمّ يجيب الله سبحانه وتعالى عن سؤالهم بما يُفيد أنّه سؤال استبعاد واستهزاء:

(الآية ٢٩) - ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾:

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾: أي: لِمَ تسألون عن يوم الفتح؟ وماذا ينفعكم العلم به؟ إنّ يوم الفتح إذا جاء أُسْدِل السّتار على جرائمكم، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان، ولن يُنْظِرَكم الله عزّ وجلّ إلى وقت آخر، ومعلوم أنّ الإيمان لا ينفع صاحبه إلّا إذا كانت لديه فُسْحة من الوقت، أمّا الإيمان الّذي يأتي في النّزع الأخير، إذا بلغت الرّوح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الّذي قال حين أدركه الغرق: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: من الآية ٩٠]، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليه هذا الإيمان: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس]، الآن لا ينفع منك إيمان؛

لأنّك مُقْبل على الله ﷻ، وقد فات أوان العمل، وحَلَّ أوان الحساب، فالإيمان أنْ تؤمن وأنت صحيح تستقبل الحياة وتحبّها، الإيمان أن تؤمن عن طواعية.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾: أي: ليس لكم الآن إمهال؛ لأنّ الّذي خلقكم يعلم سرائركم، ويعلم أنّه سبحانه وتعالى لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: من الآية ٢٨].

(الآية ٣٠) - ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾:

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾: أي: انصرف عنهم، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ، ولا جدوى من مناقشتهم والتّناظر معهم، فقد استنفدوا كلّ وسائل الإقناع، ولم يَبْقَ لهم إلّا الرّدع.

﴿وَٱنتَظِرۡ﴾: أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ؛ أي: انتظر وعدي لك بالنّصر والغلبة، وقلنا: إنّ وعد الله سبحانه وتعالى محقّق، حيث لا توجد قوّة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾: وفَرْق بين انتظار رسول الله ﷺ حين ينفّذ أمر ربّه ﷻ، وبين: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، فانتظار رسول الله ﷺ لشيء محقّق، له رصيد من القوّة والقدرة، أمّا انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان، لا رصيدَ لها من قوّة إنفاذ، ومعنى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾؛ أي: ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شيء يمنعه من تبليغ رسالة ربّه ﷻ، وهذا حمق منهم، فقد كان عليهم أن يعلموا أنّ الرّسول عليه السلام مُؤيَّد من الله ﷻ مُرْسَل من قِبَله

لهدايتهم، وما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليرسل رسولاً ثمّ يخذله، فسنّة الله جَلَّ جَلَالُهُ في الرّسل أنّ لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم، وقد ورد هذا الانتظار في موضع آخر بلفظ (التّربّص) في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ [الطّور].

وهذه السّورة سمّيت (السّجدة)؛ لأنّ بها سجدة تلاوة، وينبغي أن نسجد لله عَزَّ وَجَلَّ شكراً عندها، والسّجود يمثّل منتهى الخضوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا جاءت هذه الآية الّتي تهزّ كيان الإنسان، يعلّمنا ربّنا جَلَّ جَلَالُهُ أن ننفعل لهزّة الكيان، وأن نسارع بالسّجود، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك في الصّلاة، فكأنّ في هذه الآية آمراً قويّاً وسرّاً عظيماً استدعى أنْ نُخرِج السّجود عن موقعه بأمر مَنْ شرّع السّجود الأوّل، ولا بُدَّ أنّ في آيات سجود التّلاوة طاقاتٍ جميلة من نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله عَزَّ وَجَلَّ يريد أنْ يشعر الخَلْق أنّهم يستقبلون نعماً جديدة، لا يكفي في شكرها السّجود الرّتيب الّذي نعرفه، فيشرّع لها سجوداً خاصّاً بها، فعندما يأتينا أمر مفرح نسجد شكراً لله جَلَّ جَلَالُهُ، وعندما نريد أن نحمد الله نسجد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعندما نقرأ آية فيها سجدة نسجد لله عَزَّ وَجَلَّ.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (الأحزاب)

الآيات: (١– ٣٠)

سورة الأحزاب

هي سورة مدنيّة، من المثاني، عدد آياتها ثلاث وسبعون، وهي السّورة الثّالثة والثّلاثون حسب ترتيب المصحف الشّريف، في الجزء الثّاني والعشرين، نزلت بعد سورة آل عمران، وقبل سورة الممتحنة، تبدأ بأسلوب النّداء للنّبيّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، سُمّيت سورة الأحزاب؛ لأنّ المشركين تحزّبوا على المسلمين من كلّ جهة، فاجتمع كفّار مكّة مع غطفان وبني قريظة وغيرها من القبائل على حرب المسلمين، ولكنّهم رُدّوا مهزومين بغير قتال، وكفى الله سبحانه وتعالى المؤمنين القتال بتلك المعجزة.

(الآية ١) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: نداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمنادي هو الله سبحانه وتعالى، والمنادى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمه محمّد، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدلّ على مُسمَّاه، بحيث إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمّى، فبالنّسبة إلى سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له اسم محمّد الّذي ورد في القرآن الكريم أربع مرّات: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: من الآية ٤٠]، ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمّد: من الآية ٢]، ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩]، وورد باسم أحمد في موضع واحد هو: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصّفّ: من الآية ٦]، وسبق أنْ

تكلَّمنا في علّة هذه التّسمية، محمّد؛ أي: يقع عليه الحمد من غيره، أمّا كنيته: فأبو القاسم، ولقبه: رسول الله، والنّبيّ ﷺ لم يخاطبه المولى ﷻ باسمه كما خاطب باقي الأنبياء: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: من الآية ٣٣]، ﴿ ﴾ [هود: من الآية ٤٦]، ﴿ ﴾ [هود: من الآية ٧٦]، ﴿ ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٤]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: من الآية ٥٥]، وإنّما كان يخاطبه دائماً، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٤]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: من الآية ٤١]، وقد سمّاه جدّه عبد المطلب محمّداً ليكون محموداً في الأرض وفي السّماء، والنّداء هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ هو تكريم لسيّدنا رسول الله ﷺ من الله سبحانه وتعالى بهذه الصّفة المحبّبة إلى قلبه ﷺ.

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: قد يتفاجأ بعض النّاس، فالنّبيّ ﷺ أتقى خلق الله عزّ وجلّ على الأرض، فعندما يقول الله سبحانه وتعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذه نسبة كلاميّة من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، فهل كان رسول الله ﷺ غير تقيّ حتّى يأمره ربّه ﷻ بالتّقوى؟ الجواب: بالتّأكيد لا، نحن نعلم أنّ الحدث يحدث في أزمنة ثلاثة: ماضٍ وحال ومستقبل، فإذا طُلب من شخص فعل شيء هو مُقيم عليه بالفعل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النّساء: من الآية ١٣٦]؛ أي: استمرّوا بالإيمان، فمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: واصل تقواك حالاً، كما فعلتها سابقاً، وواصلها مستقبلاً، فلا تنقطع عنها أبداً، وهي من خلفه لأمّته كلّها، فإذا قال الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فهي غير قوله لنا: اتّقوا الله، فالأمر لنا بالتّقوى، أي: نفّذ ما فُرِض عليك، أمّا في حقّ رسول الله ﷺ فهي بمعنى: اتقّ الله سبحانه وتعالى تقوى تناسب مقامك من ربّك؛ لأنّ عطاءات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى، كما أنّ كمالاته ﷻ لا تتناهى، لذلك كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا

صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»(١)، فالعبادة لا تكون لمجرّد الثّواب والمغفرة، إنّما هناك درجات وارتقاءات أخرى.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾: فهل حين يتّقي رسول الله ﷺ ربّه يطيع الكافرين والمنافقين؟ قال العلماء: جمع القرآن الكريم بين الأمر بالتّقوى والنّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام، تقول: أكرم فلاناً وفلاناً أيضاً، فلم تقل: لا تكرم إلّا فلاناً، فعطف: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾ على: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالالتزام، والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾؛ لأنّهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الحقّ، وأنْ يعترضوا طريقه، وأساس الفساد في الكون أنْ يحبّ الإنسان أنْ يأخذ خير غيره، وأن يكون دمه من عرق الآخرين، فإذا جاء مَنْ يعدّل هذا الميزان المائل وقفوا له بالمرصاد؛ لأنّ دعوته تتعارض ومنافعهم، فالله سبحانه وتعالى يريد منّا الاستقامة على منهجه، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج، واقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾ تعني: أنّه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرّأي والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتكَ فيه أمر من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب صِفَةِ القيامةِ والجنّةِ والنّارِ، بابُ إِكْثَارِ الأعمالِ والاجتهادِ في العبادةِ، الحديث رقم (٢٨٢٠).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: فالعلم غير الحكمة، العلم أن تعلم القضايا، أمّا الحكمة فأنْ تُوظِّف هذه القضايا في أماكنها، فالصّفتان متلازمتان متكاملتان، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: من الآية ٢٦]، فالقويّ إنْ كان خائناً لم تنفعك قوّته، كذلك إنْ كان الأمين ضعيفاً فلا تنفعك أمانته، فالعلم يعطيك قضايا الخير كلّه، والحكمة أنْ تضع الشّيء في موضعه، والقضيّة في مكانها.

(الآية ٢) - ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢﴾:

نلحظ هنا نهياً بين أمرين: الأوّل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، والآخر: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾، وبينهما النّهي: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ﴾، ووقوع هذا النّهي بين هذين الأمرين ترتيب طبيعيّ؛ لأنّك إذا اتّقيتَ الله ﷻ ستُعلي منهج الحقّ، وهذا يؤذي أهل الباطل وأهل الفساد المستفيدين به، فلا بُدَّ أنْ يأتوا إليك يوسوسون في أُذنك ليصرفوك عن منهج ربّك ﷻ، وعليك أنْ تردّ الأمر إلى ما يوحى إليك وأنْ تتّبعه.

وقلنا: إنّ الوحي: إعلام بخفاء، فإنْ كان علانية فلا يُعَدُّ وحياً، والوحي هنا: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، مِنْ مَنْ؟ ﴿مِن رَّبِّكَ ۚ﴾، وكلمة: ﴿رَّبِّكَ ۚ﴾ تدلّ على الحبّ والاهتمام، وأنّه ﷻ لن يخذلك أبداً، وما اتّصاله بك إلّا للخير لك ولأمّتك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: الخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدّقيق، وهو الّذي لا يغيب عنه شيء.

ونلحظ أنّ الآية السّابقة خُتمتْ بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: عليماً بما يُشرّع، حكيماً يضع الأمر في موضعه، وقال هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: بما ينتهي إليه أمرك مع التّشريع، استجابةً أو رفضاً، فربُّك لن يُشرّع لك ثمّ يتركك، إنّما يَخْبُر ما تصنع، ولو حتّى نيّات القلوب، فالخبرة تدلّ على منتهى العلم الواسع، وهذا المعنى واضح في قوله ﷻ في قصّة لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان]، واللّطف هو التّغلغل في الأشياء مهما كانت دقيقة، وقلنا: إنّ الشّيء كلّما لَطُفَ عَنُفَ، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول لرسوله ﷺ: اطمئنّ، فمهما صُودِمتَ من خصومك، ومهما تألّبوا عليك، فربُّك من ورائك لم يتركك، وهؤلاء الخصوم خَلْقي، وأنا معطيهم الطّاقات المفكّرة العاقلة والطّاقات المتآمرة، وسوف أنصرك عليهم في كلّ مرحلة من مراحل كيدهم لك.

(الآية ٣) - ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾:

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: يعني: إيّاك أن تظنّ أنّ واحداً من هؤلاء سوف يساعدك في أمرك، أو أنّه يملك لك ضرّاً أو نفعاً، فلا تُحسِن الظّنّ بأوامرهم ولا بنواهيهم، ولا تتوكّل عليهم في شيء، إنّما توكّل على الله ﷻ.

ولا بُدَّ أن نُفرّق هنا بين التّوكّل والتّواكل: التّوكّل أن تكون عاجزاً في شيء، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه، وتعتمد عليه في أن يقضيه لك، شريطة أن تستنفد فيه الأسباب الّتي خلقها الله ﷻ لك، فالتّوكّل أن تعمل

الجوارح وتتوكّل القلوب، وقد ضرب لنا سيّدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحيّاً في هذه المسألة بالطّير، فقال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً»(١)، أمّا التّواكل فأنْ ترفضَ الأسباب الّتي قدّمها الله سبحانه وتعالى لك، وتقعد عن الأَخْذ بها، وتقول: توكّلت على الله عز وجل، ثمّ يذكر الحقّ سبحانه وتعالى حيثيّة التّوكّل على الله عز وجل، فيقول:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي: يكفيك أنْ يكون الله سبحانه وتعالى وكيلك؛ لأنّه لا شيء يتأبَّى عليه، ولا يستحيل عليه شيء، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لأنّه لا تعوزه أسباب، ولا يُثنيه عن إرادته شيء، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: من الآية ٩٦]. وفي التّوكّل ملحظ آخر ينبغي أنْ نتنبّه إليه، هو أنّنا إذا توكّلنا على أحد ليقضي لنا أمراً، فلا نضمن أنْ يعيش حتّى يقضي حاجتنا، فكيف نتوكّل عليه ونُعلِّق الآمال به، وفي الصّباح قد نسمع أنّه مات؟! فلا ينبغي أن نتوكّل إلّا على الله عز وجل الحيّ الّذي لا يموت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: من الآية ٥٨]، واستغنِ بوكالة الله عز وجل عن كلّ شيء: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

فهذه الأمور للأمّة كلّها، ولكلّ أتباع النّبيّ ﷺ، وهي: التّقوى وعدم اتّباع الكافرين والمنافقين وأن نتّبع القرآن الكريم ونتوكّل على الله عز وجل، وبذلك يكون لنا الفوز والنّجاة في الدّنيا والآخرة.

---

(١) سنن ابن ماجه: كتابُ الزُّهدِ، بابُ التَّوكُّلِ واليقينِ، الحديث رقم (٤١٦٤).

(الآية ٤) - ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾: ترتبط هذه الآية بالآيات قبلها، فقد ذكر الله ﷻ معسكرين: أحدهما يجب أنْ يُطاع، فقال ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، وآخر نُهي رسول الله ﷺ عن طاعته: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾، فنحن هنا أمام معسكرين: واحد يمثّل الحقّ في أجلى معانيه وصوره، وآخر يمثّل الباطل، وللقلب هنا دَوْر لا يقبل المواربة، إمّا أنْ ينحاز ويغلّب صاحب الحقّ، وإمّا أنْ يغلّب جانب الباطل، وما دمت أمام أمرين متناقضين لا يمكن أنْ يجتمعا، فلا بُدَّ أن تُغلِّب الحقّ؛ لأنّ الله ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾، لم يقل: (ما جعل الله ﷻ لامرأة من قلبين في جوفها)، بل خصّ الرّجال، لماذا؟ قالوا: إنّ المرأة عندما تكون حاملاً، ويكون الجنين في بطنها فهناك قلبان في جوفها؛ قلبها وقلب الجنين، أمّا الرّجل فما جعل الله ﷻ من قلبين في جوفه، فإمّا الحقّ وإمّا الباطل، ولا يمكن أن تتّقي الله ﷻ وتطيع الكافرين والمنافقين؛ لأنّ القلب الّذي يميل ويغلّب، قلب واحد، ومعلوم أنّ القلب هو أهمّ عضو في الجسم البشريّ، فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلاً يصف له الطّبيب دواءً، يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضميّ، ويحتاج إلى وقت ليتمثّل في الجسم، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة في العضل، فيصبُّ

الدّواء في الجسم مباشرة، فإنْ كان المرض أشدّ يُعْطَى حقنة في الوريد، لماذا؟ ليصل الدّواء المطلوب جاهزاً إلى الدّم مباشرة، فيضخّه القلب إلى جميع الأعضاء في أسرع وقت، فالدّم هو الّذي يحمل خصائص الشّفاء والعافية إلى البدن كلّه؛ لذلك علينا أنْ نحتفظ به في حالة جيّدة، بأن نملأه بالحقّ حتّى لا يفسده الباطل، كذلك الحال في المعاني، فلا يجتمع حقّ وباطل في قلب واحد أبداً، وليس لنا أنْ نجعل قلباً للحقّ وقلباً للباطل؛ لأنّ الخالق جعل لنا قلباً واحداً، وجعله محدوداً لا يسع إلّا إيماننا بربّنا، فلا نزاحمه بشيء آخر، ويُرْوَى أنّه كان في العرب رجل اسمه جميل بن أسد الفهريّ وكان مشهوراً باللّسَنِ والذّكاء، فكان يقول: إنّ لي قلبين، أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمّد، فشاء الله ﷻ أنْ يراه أبو سفيان وهو منهزم بعد بدر، فيقول له: يا جميل، ما فعل القوم؟ قال: منهم مقتول ومنهم هارب، قال: وما لي أراك هكذا؟ قال: ما لي؟ قال: نعل في كفِّك، ونعل في رِجْلك، قال: والله لقد ظننتهما في رجلي، فضحك أبو سفيان وقال له: فأين قلباك؟!. وإذا كان القلب هو المضخة الّتي تضخّ الدّم إلى كلّ الجوارح والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشّفاء والعافية، كذلك حين تستقرّ عقائد الخير في القلب، يحملها الدّم إلى الجوارح والأعضاء، فتتّجه جميعها إلى طاعة الله ﷻ، لذلك يُعلّمنا سيّدنا رسول الله ﷺ هذا الدّرس، فيقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ،**

أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1]، ثمّ يأخذ الحقّ ﷻ من مسألة اجتماع المتناقضين في قلب واحد مقدّمة للحديث عن قضايا المتناقضات الّتي شاعتْ عند العرب، فيقول ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾، وقد شاع في الجاهليّة حين يكره الرّجل زوجته، أن يقول لها: أنت عليَّ كظهر أمّي، ومعلوم أنّ ظهر الأمّ مُحرَّم على الابن حرمة مؤبّدة، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطّلاق، فلمّا جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً، إنّما جعل لها كفّارة كذب؛ لأنّ الزّوجة ليست أمّاً لك، وحدّد هذه الكفّارة إمّا: عتق رقبة، أو إطعام ستّين مسكيناً، أو صيام ستّين يوماً، وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع): ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٢]؛ أي: كذباً؛ لأنّ الزّوجة لا تكون أمّاً، فالحقّ ﷻ جاء بمتناقض، وأدخل فيه متناقضاً آخر، فكما أنّ القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله ﷻ وطاعة الكافرين والمنافقين، فكذلك الزّوجة لا تكون أمّاً أبداً، فهي إمّا أمّ، وإمّا زوجة، كذلك وُجد عند العرب تناقض آخر في مسألة التّبنّي، فكان الرّجل يستوسم الولد الصّغير، أو يرى فيه علامات النّجابة فيتبنّاه، فيصير الولد ابناً له، يختلط ببيته كولده، ويرثه كما يرثه ولده، وله عليه كلّ حقوق الابن، فكما أنّ الرّجل لا يكون له قلبان، وكما أنّ الزّوجة لا تكون أمّاً بحال، كذلك المتبنّى لا يكون ولداً، فيقول ﷻ:

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الإيمانِ، بابُ فضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لدينهِ، الحديث رقم (٥٢).

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾: الدّعيُّ: هو الّذي تدّعي أنّه ابنٌ وليس بابن، وكان هذا شائعاً عند العرب، فأراد الله ﷻ أنْ يُبطِل هذه العادة، وقال: ضعوا كلّ شيء موضعه، فجعل للظّهار كفّارة، ونهى عن التّبنّي بهذه الصّورة، والله ﷻ ساعةَ يريد أنْ يلغي حكماً، يقدّم صاحب الدّعوى نفسه؛ ليطبّق هو أمام النّاس؛ لذلك جعل سيّدنا رسول الله ﷺ يبدأ بنفسه، ويُبطِل التّبنّي الّذي عنده، فسيّدنا رسول الله ﷺ تزوّج من السّيّدة خديجة، وكان لها منزلة عند رسول الله ﷺ، وقد اشترى لها حكيم بن حزام عبداً من سوق الرّقيق هو زيد بن حارثة، وكان من بني كلب، سرقه اللّصوص من أهله، وادّعوْا أنّه عبد فباعوه، ثمّ أهدتْه السّيّدة خديجة لسيّدنا رسول الله ﷺ، فصار مولىً لرسول الله ﷺ، يخدمه طيلة عدّة سنوات، وما بالكم بمَنْ يكون في خدمة رسول الله ﷺ؟ لقد أحبَّ زيدٌ رسول الله ﷺ، وعَشِق خدمته، وفي يوم من الأيّام، رآه واحد من بني كَلْب في طرقات مكّة، فأخبر أهله به، فأسرع أبو زيد إلى مكّة يبحث عن ولده، فدلُّوه عليه، وأنّه عند محمّد، فذهب إلى سيّدنا رسول الله ﷺ، وأخبره خبر ولده، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بني كلب، ولكن، ما كان رسول الله ﷺ ليتخلّى عن خادمه الّذي يحبّه كلّ هذا الحبّ، فقال لأبيه: خيّره، فإنِ اختاركم فخذوه، وإن اختارني فأنا له أبٌ، فلمّا خيَّروه، قال سيّدنا زيد: والله ما كنت لأختار على رسول الله ﷺ أحداً، عندها أحبّ رسول الله ﷺ أن يكافئه على هذا الموقف، وعلى تمسّكه بخدمته، فتبنّاه كما تتبنّى العرب، وسمّوْه بعدها: زيد بن محمّد، فلمّا أراد الحقّ ﷻ أنْ يُبطِل التّبنّي بدأ بمتبنَّى رسول الله ﷺ، ليكون

هو القدوة لغيره في هذه المسألة، فكيف أبطل الله ﷻ هذه البنوّة؟ كان سيّدنا رسول الله ﷺ قد زوّج زيداً من ابنة عمّته زينب بنت جحش، أخت عبد الله بن جحش، وقد تعب رسول الله ﷺ في إقناع عبد الله وزينب بهذه الزّيجة الّتي رفضتها زينب، وقالت: كيف أتزوّج زيداً، وهو عبد وأنا سيّدة قرشيّة؟ ثمّ تزوّجته إرضاءً لرسول الله ﷺ، وعملاً بقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٦]، لكنّها بعد الزّواج تعالتْ عليه، أنّها من السّادة، وهو من العبيد، فكَرِه زيد ذلك، فأحبَّ أنْ يُطلّقها، فذهب إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه ما كان من زينب، وعرض عليه رغبته في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك، فعاوده مرّة أخرى فقال له: أمسك عليك زوجك، فعاوده زيد، عندها علم رسول الله ﷺ أن رغبتهما في الطّلاق، وكراهيتهما للحياة الزّوجيّة أمر قدريّ، أراده الله ﷻ لحكمة، ولأمر تشريعيّ جديد، شاء الله أنْ يُوقِع البغض بين زيد وزينب، ولكي يُبطِل الحقّ ﷻ تبنّي رسول الله ﷺ لزيد قضى بأن يتزوّج رسول الله ﷺ من زينب بعد طلاقها من زيد، ومعلوم أنّ امرأة الابن تحرم على أبيه، فزواج سيّدنا رسول الله ﷺ من زينب يعني أنّ زيداً ليس ابناً لرسول الله ﷺ، فأبطل بذلك عادة التّبنّي، والأثر المترتّب على هذه العادة، وقد أحسَّ رسول الله ﷺ بشيء في نفسه، وتردّد في هذا الزّواج مخافة أنْ يقول النّاس: إنّ محمّداً أوعز إلى زيد أنْ يُطلّق زينب ليتزوّجها هو، كما يقول بعض المستشرقين الآن، وأنّه ﷺ كان يُضمِر حبَّ زينب في نفسه، وهذه كلّها افتراءات على رسول الله ﷺ، فالّذي يحبّ امرأة لا يسعى

جاهداً أنْ تتزوّج من غيره، وحين يريد زوجها أنْ يُطلِّقها لا يقول له: أمسِكْ عليك زوجك، ثمّ لا ينبغي لأحد أنْ يخوض فيما أخفاه رسول الله ﷺ في نفسه، من أنّه عاشق أو مُحِبٌّ، لكن انظر فيما أبداه الله سبحانه وتعالى، فالّذي أبداه الله عز وجل هو الّذي يُخفيه رسول الله ﷺ، ولنقرأ: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٧]، فالّذي كان يُخفيه رسول الله ﷺ هو أنّه يخاف أنْ تتكلّم به العرب، وأنْ تقول فيه مَا لا يليق به في هذه المسألة، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٧]، لماذا؟ ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٧]، وهكذا قرّر الحقّ سبحانه وتعالى مبدأ إبطال التّبنّي في شخص رسول الله ﷺ، والله سبحانه وتعالى حينما يُبطِل عادة التّبنّي إنّما يُبطِل عادة ذميمة، تُقوِّض بناء الأسرة، وتهدم كيانها، وتؤدّي إلى اختلاط الأنساب وضياع الحقوق، فالولد المتبنّى يعيش في الأسرة كابنها، تعامله الأمّ على أنّه ابنها، وهو غريب عنها، كذلك البنت تعامله على أنّه أخوها، وهو ليس كذلك، وفي هذا من الفساد مَا لا يخفى على أحد، وأيضاً، كيف يكون الأب الّذي جعله الله سبحانه وتعالى سبباً مباشراً لوجودك وتأتي أنت لتردَّ هذه السّببيّة، وتنقلها إلى غير صاحبها، وأنت حين تنكر البنوّة السَّببيّة في أبيك فمن السّهل عليك أنْ تنكر المسبِّب الّذي خلق أوّلاً، ولِمَ لا، وقد تجرّأت على إنكار الجميل.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: أي: ما تقدَّم مِنْ جَعْل الزّوجة أمّاً، أو جَعْل الدَّعيّ ابناً، فالزّوجة لا تكون أبداً أمّاً؛ لأنّ الأمّ هي الّتي ولدتْ، كذلك لا يكون للولد إلّا أب واحد.

﴿قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾: وهل يكون القول إلّا بالأفواه؟ فماذا أضافتْ الأفواه هنا؟ قال العلماء: نعم، القول بالفم، لكن أصله في الفؤاد، وما اللّسان إلّا دليل على ما في الفؤاد، كما قال الشّاعر:

إنَّ الكَلامَ لَفِي الفُؤاد وَإنَّما جُعِلَ اللّسَانُ على الفُؤَادِ دَليلاً

فلا بدَّ أنْ يكون للكلام نسبة في القلب، منها تأتي النّسبة الكلاميّة، فهل ما تقولونه له واقع، هل الزّوجة تكون أمّاً؟ وهل الولد الدّعيُّ يكون ابناً؟ فهذا كلام من مجرّد الأفواه، لا رصيد له في القلب ولا في الواقع، فهو باطل، أمّا الحقّ فما يقوله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، والحقّ هو أن يكون المعتقد في القلب مطابقاً للكائن الواقع.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: الواقع الّذي يجب أنْ يُعتَقد، والإعجاز هنا ليس في أنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول الحقّ الواقع بالفعل، إنّما ويخبر بالشّيء فيقع في المستقبل على وَفْق ما أخبر سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾، كأنّه يقول: قارنوا بين قولين: قَوْل بالأفواه، وقول بالواقع والاعتقاد، وإذا كان قَوْل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقوى من الاعتقاد فقط، فهو من باب أَوْلَى أقوى من القول بالأفواه فقط.

﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾: يهدي السّبيل إلى القول الحقّ.

(الآية ٥) - ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾:

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾: يعني: قولوا: زيد بن حارثة، لكن كيف يُنزَع من

زيد هذا التّاج وهذا الشّرف الّذي منحه له سيّدنا رسول الله ﷺ؟ نعم، هذا صعب على زيد رضي الله عنه، لكنّه: ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ لا عندكم أنتم.

﴿أَقۡسَطُ﴾: أفعل تفضيل، نقول: هذا قِسْط، وهذا أقسط، مثل: عدل وأعدل، ومعنى ذلك أنّ الّذي اختاره رسول الله ﷺ من نسبة زيد إليه يُعَدُّ قِسْطاً وعدلاً بشريّاً، في أنّه ﷺ أحسَّ بالبنوّة وصار أباً لمن اختاره وفضّله على أبيه، لكنّ الله سبحانه وتعالى يريد لنا الأقسط، والأقسط أنْ ندعو الأبناء لآبائهم.

﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾: أي: نُعرّفهم بأنّهم إخواننا في الدّين.

﴿وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾: الموالي: الخدم والنّصراء الّذين كانوا في ذلك الوقت يقولون لهم: (العبيد)، فالولد الّذي لا نعرف له أباً هو أخ لنا في الله عزّ وجلّ نختار له اسماً عامّاً، فنقول مثلاً في زيد: زيد بن عبد الله، وكلّنا عبيد الله تعالى، والبنوّة تثبت بأمرين: بالعقل والشّرع، فالرّجل الّذي يتزوّج زواجاً شرعيّاً، وينجب ولداً، فهو ابنه كوناً وشرعاً، فإذا زَنَت المرأة -والعياذ بالله- على فراش زوجها، فالولد ابن الزّوج شَرْعَاً لا كوناً؛ لأنّ القاعدة الفقهيّة تقول: الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر، كذلك في حالة الزّوجة الّتي تتزوّج مرّة أخرى بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها، لكنّها تنجب لستّة أشهر، فتقوم هنا شبهة أن يكون الولد للزّوج الأوّل، لذلك يُعَدُّ ابناً شَرْعاً لا كوناً؛ لأنّه وُلِد على فراشه، فإن جاء الولد من الزّنا -والعياذ بالله- في غير فراش الزّوجيّة فهو ابنه كوناً لا شرعاً؛ لذلك نقول عنه: "ابن غير شرعيّ"، كما أنّ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ تشريفاً للنّبيّ ﷺ، فلو قال سبحانه وتعالى: (هو قسْط)

لكان عمل النّبيّ ﷺ جوْراً وظلماً، لكنّ ﴿أَقۡسَطُ﴾ تعني: أنّ عمل النّبيّ ﷺ قِسْط وعَدْل.

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾: يُخْرجنا من حرج كبير في هذه المسألة، فكثيراً ما نسمع وما نقول لغير أبنائنا: (يا بنيّ) على سبيل العطف والتّودّد، ونقول لكبار السّنّ: (يا أبي) احتراماً لهم، فالحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحتاط لنا ويُعفينا من الحرج والإثم؛ لأنّنا لا نقصد بهذه الكلمات الأُبوّة ولا البنوّة الحقيقيّة، وإذا كان ربّنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد رفع عنّا الحرج، وسمح لنا باللّغو حتّى في الحلف بذاته جَلَّ جَلَالُهُ، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ [المائدة: من الآية ٨٩]، فكيف لا يُعفينا من الحرج في هذه المسألة؟

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾: سبق أنْ قُلْنا: إنّ الفعل إذا أُسْنِد إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انحلَّ عنه الزّمن، فليس مع الله عَزَّ وَجَلَّ زمن ماض وحاضر ومستقبل، وهو سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالق الزّمن، لذلك نقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ يعني: كان ولا يزال غفوراً رحيماً؛ لأنّ الاختلاف في زمن الحدث إنّما ينشأ من صاحب الأغيار، والله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يطرأ عليه تغيير، لذلك نخاف نحن من صاحب الأغيار؛ لأنّه مُتقلِّب، ويقول أهل المعرفة: تغيَّروا من أجل ربّكم -يعني: من الانحراف إلى الاستقامة-؛ لأنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتغيّر من أجل أحد، وما دام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان غفوراً رحيماً، وهو جَلَّ جَلَالُهُ لا يتغيّر، فسيبقى سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غفوراً رحيماً، ونلحظ في أسلوب القرآن الكريم أنّه يقرن دائماً بين هذين الوصفين: غفور ورحيم؛ لأنّ الغفر سَلْب عقوبة الذّنب، والرّحمة مجيء إحسان جديد بعد الذّنب الّذي غُفِر، بعد ذلك لقائل أنْ يقول: ما موقف زيد بعد أنْ أبطل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التّبنّي،

فصار زيدَ بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمّد؟ وكيف به بعد أنْ سُلِب هذه النّعمة وحُرِم هذا الشّرف؟ نضِيفْ إلى ذلك ما يلاقيه من عنتَ المرجفين، وألسنة الّذين يُوغرون صدره، ويُوقِعون بينه وبين رسول الله ﷺ، وهو الّذي اختاره على أبيه، لا شكَّ أنّ الجرعة الإيمانيّة الّتي تسلَّح بها زيد جعلتْه فوق هذا كلّه، فقد تشرَّب قلبه حبّ رسول الله ﷺ، ووقر في نفسه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٦]. ثمّ تأتي الآيات لتوضّح للنّاس: لستم أحنَّ على زيد من محمّد ﷺ؛ لأنّ محمّداً ﷺ أوْلى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم، لا بزيد وحده.

(الآية ٦) - ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾:

فالمعنى: إذا كان النّبيّ ﷺ أَوْلَى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم، فما بالنا بزيد؟ فلسنا أحنَّ على زيد من الله عز وجل، ولا من رسول الله ﷺ، وإذا كنتم تنظرون إلى الوسام الّذي نُزِع من زيد حين صار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيدَ بن محمّد، فلماذا تُغمِضون أعينكم عن فضل أعظم، ناله زيد من الله سبحانه وتعالى حين ذُكِر اسمه صراحة في قرآنه وكتابه العزيز الّذي يُتْلَى ويُتعبَّد بتلاوته إلى يوم القيامة، فأيُّ وسام أعظم من هذا؟ فقوله جل جلاله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٧]، قَوْلٌ خالدٌ يَخلُد معه ذِكْر زيد، وهكذا عوَّض الله جل جلاله زيداً عمّا فاته من تغيير اسمه.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: ما المراد بهذه الأولويّة من النّبيّ ﷺ؟ قالوا: هي ارتقاءات في مجال الإحسان إلى النّفس، ثمّ إلى الغير، فالإنسان أوّلاً يُحسن إلى نفسه، ثمّ إلى القرابة القريبة، ثمّ القرابة البعيدة، ثمّ على الأباعد؛ لذلك يقول ﷺ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا»[1]، فرسول الله ﷺ تعدّى خيره إلى الإنسانيّة كلّها على وجه العموم، والمؤمنين على وجه الخصوص؛ لذلك كان ﷺ إذا مات الرّجل من أمّته وعليه دَيْن، وليس عنده وفاء لا يُصلّي عليه، ويقول: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»[2]، والنّظرة السّطحيّة هنا تقول: وما ذنبه إنْ مات وعليه دَيْن؟ ولماذا لم يُصَلِّ عليه الرّسول؟ قال العلماء: لم يمنع الرّسولُ ﷺ الصّلاة عليه، وقال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»؛ لأنّه قال في حديث آخر: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ»[3]، قال: يريد أداءها، ولم يَقُلْ: أدّاها، أمّا وقد مات دون أنْ يؤدّي ما عليه، فغالب الظّنّ أنّه لم يكُنْ ينوي الأداء؛ لذلك لم يصلّ عليه، فلمّا نزل قوله ﷻ:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزَّكاةِ، بابُ الابتداءِ في النَّفقةِ بالنَّفْسِ ثمَّ أَهْلِهِ ثمَّ القرابةِ، الحديث رقم (٩٩٧).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الحوالاتِ، بابُ إنْ أحالَ دَيْنَ المَيِّتِ على رجُلٍ جازَ، الحديث رقم (٢٢٨٩).

(٣) صحيح البخاريّ: كتاب في الاسْتِقْرَاضِ وأداءِ الدُّيُونِ والحَجْرِ والتَّفْليسِ، بابُ مَنْ أخذَ أمْوالَ النَّاسِ يُرِيدُ أداءَهَا أو إتلافها، الحديث رقم (٢٣٨٧).

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، صار رسول الله ﷺ يتحمّل الدَّيْن عمَّنْ يموت من المسلمين وهو مدين، ويؤدّي عنه رسول الله ﷺ، وهذا معنى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، فالنّبيّ ﷺ أَوْلى بالمسلم من نفسه.

﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾: أي: أنّ أزواجه ﷺ أمّهات للمؤمنين؛ لأنّ الله سُبحانه وتعالى قال مخاطباً المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: من الآية ٥٣]، فلا يجوز لإنسان مؤمن برسول الله ﷺ ويُقدّره قدره أنْ يخلفه على امرأته.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: الأرحام: مأخوذة من الرّحم، وهو مكان الجنين في بطن أمّه، والمراد الأقارب، وجعلهم الله سُبحانه وتعالى أَوْلى ببعض؛ لأنّ المسلمين الأوائل حينما هاجروا إلى المدينة تركوا في مكّة أهلهم وأموالهم وديارهم، فكان الأنصار من شدّة إيثارهم لإخوانهم المهاجرين يعرض الواحد منهم على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوّجها، وهذا لوْن من الإيثار لم يشهده تاريخ البشريّة كلّها؛ لأنّ الإنسان يجود على صديقه بأغلى ما في حوزته وملكه، إلّا مسألة المرأة، فما فعله هؤلاء الصّحابة رضي الله عنهم لون فريد من الإيثار، وحين آخى النّبيّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار هذه المؤاخاة اقتضت أنْ يرث المهاجر أخاه الأنصاريّ، فلمّا أعزَّ الله جلّ جلاله الإسلام، ووجد المهاجرون سبيلاً للعيش أراد الله سُبحانه وتعالى أنْ تعود الأمور إلى مجراها الطّبيعيّ، فلم تَعُدْ هناك ضرورة أنْ يرث المهاجر أخاه الأنصاريّ، فقرّرت الآيات أنّ أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في مسألة الميراث، فقال سُبحانه وتعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، فقد استقرّت أمور

المهاجرين، وعرف كلّ منهم طريقه ورتّب أموره، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ في هذه الحالة أوْلَى بهذا الميراث.

وقوله ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ تنبيه إلى أنّ الإنسان يجب عليه أنْ يحفظ ما ورثه من آدم عليه السلام؛ لأنّنا حين نتأمّل مسألة خَلْق الإنسان نجد أنّنا جميعاً من آدم عليه السلام.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾: الحقّ ﷻ يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً، فمَنْ حضر منهم قسمة فَليكُنْ له منها نصيب على سبيل التّطوّع، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾ [النّساء].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾: أي: في أمّ الكتاب اللّوح المحفوظ، أو الكتاب؛ أي: القرآن الكريم.

ثمّ ينقلنا الحقّ ﷻ إلى قضيّة عامّة لموكب الرّسل جميعاً:

(الآية ٧) - ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾: كلمة (إذ، إذا) ظرف لحدث، نقول: إذا جاءك فلان فأكرمه، فالإكرام مُعلّق بالمجيء، والمعنى هنا: واذكر إذْ أخذ الله من النّبيّين ميثاقهم، وهذه قضيّة عامّة في الرّسل جميعاً، ثمّ فصّلها الله ﷻ بقوله: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾.

الميثاق: هو العهد يُؤخذ بين اثنين، كالعهد الّذي أخذه الله ﷻ أوّلاً على الخَلْق جميعاً، وهم في مرحلة الذّرّ، والّذي قال الله ﷻ عنه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ

رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، فما العهد الّذي أخذه الله سبحانه وتعالى على النّبيّين؟ العهد هنا هو: الاصطفاء والاختيار من الله جل جلاله لبشر أنْ يكون رسولاً وسفيراً بين الله سبحانه وتعالى وبين الخلق، وحين يصطفي الله سبحانه وتعالى رسولاً ليبلّغ النّاس شرعه عز وجل، هذا الاصطفاء لا يردّ، فهو عرض مقبول، وحين يقبله الرّسول صلى الله عليه وسلم كأنّه أخذ عهداً وميثاقاً من الله سبحانه وتعالى بأنْ يحمل رسالته عز وجل إلى الخَلْق، فهي مسألة إيجاب وقبول، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، وهل رأينا رسولاً في موكب الرّسالات عُرِضَتْ عليه الرّسالة فرفضها؟ فقبول الرّسالة كأنّه العهد، جاء من طرف واحد في إملاء شروطه؛ لأنّه الطّرف الأعلى، وحيثيّة التّوثيق في أنّ الله سبحانه وتعالى اختاره، وجعله أهْلاً للاصطفاء، ثمّ يأتي تفصيل هذه القضيّة العامّة: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾.

﴿وَمِنكَ﴾: أي: من سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، لكن لماذا قدَّم محمّداً صلى الله عليه وسلم على نوح عليه السلام، وهو الأب الثّاني للبشريّة كلّها بعد آدم عليه السلام؟ نعلم أنّ البشريّة كلّها من سلالة آدم عليه السلام، إلى أنْ جاء عهد نوح عليه السلام، فانقسموا إلى مؤمن وكافر، ثمّ جاء الطّوفان، ولم يَبْقَ على وجه الأرض إلّا نوح عليه السلام ومَنْ آمن به، فكان هو الأب الثّاني للبشر بعد سيّدنا آدم عليه السلام، لذلك يقول بعضهم: إنّ نوحاً عليه السلام رسالته عامّة، كما أنّ رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم عامّة، ونقول: عموميّة رسالة نوح عليه السلام كانت لمن آمن به ولأهل السّفينة في زمن معلوم ومكان محدّد، أمّا رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم فهي عامّة في كلّ الزّمان، وفي كلّ المكان، ومن إكرام الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يبدأ به

في مثل هذا المقام، ثمّ يخصُّ بالذّكر هنا نوحاً ؏؛ لأنّه الأب الثّاني للبشر، ثمّ إبراهيم وموسى وعيسى، فإبراهيم؛ لأنّ العرب كانت تؤمن به، وتعلم أنّه أبو الأنبياء، وتُقدّر علاقته بالكعبة ورَفْع قواعدها، وأنّه قدوة في مسألة الذَّبْح والسَّعي وغيرها، وموسى وعيسى؛ لأنّ اليهوديّة والمسيحيّة ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ﷺ، حيث كان اليهود في المدينة، والنّصارى في نجران، وهما أهل الكتاب، ونلحظ أنّ السّياق ذكر موسى ؏، ولم يذكر له أباً، أمّا في عيسى ؏ فقال: ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾، وهذا دليل على أنّه يؤكّد الأصالة في الإنجاب، فالأب هو الأصل إنْ وجِد مع الزّوجة، فإنْ لم يوجد الأب فالأبوّة للزّوجة؛ لذلك نُسِب ؏ إلى أمّه.

﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾: أي: من الأنبياء، والميثاق الغليظ؛ أي: المؤكّد، فقد وسّعه الله ﷻ، وأكّده حينما أخبر أنبياءه ورسله أنّهم سيُضطهدون وسيُحاربون من أممهم، لذلك لم يُوصَف الميثاق بأنّه غليظ إلّا في هذا الموضوع، وفي علاقة الرّجل بالمرأة حين يطلّقها، وقد فرض لها مهراً، فينبغي أنْ يُؤدّيه إليها، ولو كان قنطاراً، يقول ﷻ: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النّساء]، فسمّى الميثاق بين الزّوجين؛ أي: عقد الزّواج، ميثاقاً غليظاً؛ أي: قويّاً ومتيناً؛ لأنّه في العِرْض، ولم يُوصَف الميثاق فيما دون ذلك بأنّه غليظ.

(الآية ٨) - ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾:

﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾: (اللّام) هنا لام التّعليل، فالمعنى أنّنا أخذنا من النّبيّين الميثاق، لكن لن نتركهم دون سؤال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، لماذا؟

﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾، لكن إذا كان المبلِّغ صادقاً، فكيف يسأل عن صدقه؟ سؤال الصّادق عن صِدْقه ليس تبكيتاً للصّادق، إنّما تبكيتاً لمن كذَّب به، سنسأل الرّسل: أبلّغتم هؤلاء؟ ويقول سُبحانه وتعالى: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة: من الآية ١٠٩]، ويسأل الله عز وجل القوم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٣٠].

﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾: والفعل الماضي هنا دليل على أنّ كلّ شيء معدٌّ وموجود سَلَفاً، ولن ينشىء الله سُبحانه وتعالى شيئاً جديداً، كذلك قال عن الجنّة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٣]، وقد وصف العذاب مرّة بأنّه أليم، ومرّة بأنّه مُهين، ومرّة بأنّه عظيم، ومرّة بأنّه شديد، ولكلّ منها ملحظ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة والإيلام، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المعذَّب والنّيل من كرامته، فمن النّاس مَنْ يحاول التّجلُّد، ويُظهر تحمّل الألم وعدم الاكتراث به، في حين يؤلمه أنْ تنال من كرامته، فيناسبه العذاب المهين، ويُوصَف العذاب بأنّه شديد لشدّة المعذِّب سُبحانه وتعالى؛ لأنّه جل جلاله إذا أخذ فأَخْذه أَخْذ عزيز مقتدر.

(الآية ٩) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾:

أراد الله سُبحانه وتعالى أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله صلى الله عليه وسلم في الآيات السّابقة: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾، فجاء بحادثة جمعتْ كلّ فلول خصومه، فقد سبق أن انتصر صلى الله عليه وسلم عليهم متفرّقين، فانتصر أوّلاً على كفّار مكّة في

بدر، وانتصر على اليهود في بني النّضير وبني قينقاع، وهذه المرّة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ، ومع ذلك لن يؤثّر جمعهم في الصّدّ عن دعوتك يا محمّد، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله عزّ وجلّ، فحيثيّة: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ما هو الذّكر؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسّ يقارن بينها ويُغربلها، ثمّ يحتفظ بها في منطقة منه تمثّل خزينة للمعلومات، وما أشبه العقل في تلقّي المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) الّتي تلتقط الصّورة من مرّة واحدة، والنّاس جميعاً سواء في تلقّي المعلومات، المهمّ أن تصادف المعلومة خُلوّ الذّهْن ممّا يشغله، وهذه المنطقة في العقل يسمّونها بؤرة الشّعور، وهي لا تلتقط إلّا جزئيّة عقليّة واحدة، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة، أو من حاشية الشّعور، فالذّاكرة هي الّتي تستدعي لك هذه المعلومة، وتُخرِجها من جديد من حاشية الشّعور إلى بؤرة الشّعور، فمعنى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: لا تمرّوا على النّعم بغفلة لرتابتها عندكم، بل تذكّروها دائماً، واجعلوها في بؤرة شعوركم؛ لذلك جعل الله سبحانه وتعالى الذّكر عبادة، وهو عبادة بلا مشقّة، فأنت حين تصلّي مثلاً، تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء والذّهاب إلى المسجد، كذلك حين تزكّي تُخرِج من مالك، أمّا الذّكْر فلا يُكلّفك شيئاً، لذلك في سورة الجمعة حينما يستدعي الحقّ سبحانه وتعالى عباده للصّلاة، يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: من الآية ٩]، فهنا حركتان: حركة إيجاب بالسّعي إلى الصّلاة، وحركة سَلْب بترْكِ البيع والشّراء، وكلّ ما يشغلك عن الصّلاة، ثمّ يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الجمعة: من الآية ١٠]، وفي موضع آخر قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٥]، فإيّاك أن تظنّ أنّ الله ﷻ يريد أنْ تذكره ساعة الصّلاة فحسب، إنّما اذكره دائماً وأبداً، وإنْ كانت الصّلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه، فذِكْر الله ﷻ لا وقتَ له، والنّعمة وردتْ هنا مفردة، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أنّ النّعمة فيها مفردة، يقولون: فكيف تُعَدُّ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعاني وأساليب القرآن الكريم، ونقول: الّذي ترَوْنه نعمة واحدة، لو تأمّلتُم فيها لوجدتم بداخلها نِعَماً متعدّدة تفوق العَدَّ؛ لذلك استخدم القرآن الكريم هنا (إنْ) الدّالّة على الشّكّ؛ لأنّ نِعَم الله ﷻ ليست مظنَّة العَدّ والإحصاء، كَرِمال الصّحراء، هل تعرَّض أحد لِعدّها؟ لأنّك لا تقبل على عَدّ شيء إلّا إذا كان مظنَّةَ العَدّ، وإحصاء المعدود.

ثمّ يرسل لنا الحقّ ﷻ هذه البرقيّة الدّالّة على تأييده ﷻ لعباده المؤمنين: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾: فالجنود تُؤذِن بالحرب، وجاءت نكرة مُبْهمة، ثمّ جاءت نهاية هذه المعركة في هاتين الجملتين القصيرتين: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾، ولم يذكر الله ﷻ ماهية هؤلاء الجنود، إلّا أنّهم من عند الله ﷻ، جاؤوا لردّ هؤلاء الكفّار وإبطال كيدهم.

ثمّ يأتي بمذكّرة تفسيريّة توضّح مَنْ هم هؤلاء الجنود:

(الآية ١٠) - ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾:

هذا وَصف لِمَا جرى في غزوة الأحزاب الّتي جمعتْ فُلول أعداء رسول الله ﷺ، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرّقين، والآن يجتمعون لحربه ﷺ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبني فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بني النّضير وبني قريظة، وعجيب أنْ يجتمع كلّ هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف.

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾: أي: اذكر يا محمّد، وتخيَّل، وتصوَّر إذ جاءك الأحزاب، وتجمَّعوا لحربك.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: أي: من ناحية الشّرق، وهُمْ: غطفان، وبنو قريظة، وبنو النّضير.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: أي: من ناحية الغرب وهم قريش، ومَنْ تبعهم من الفزاريّين والأسديّين وغيرهم.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: أي: اذكر إذ زاغت الأبصار، ومعنى زاغ البصر؛ أي: مال، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النّجم]، فـ (زاغت الأبصار)، يعني: مالتْ عن سَمْتها.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾: معلوم أنّ الحَنجرة أعلى القصبة الهوائيّة في هذا التّجويف المعروف، فكيف تبلغ القلوبُ الحناجرَ؟ هذا أثر آخر من آثار الهول والفزع، فحين يفزع الإنسان يضطرب في ذاته، وتزداد دقّات قلبه،

وتنشط حركة التّنفّس، حتّى ليُخيَّل للإنسان من شدّة ضربات قلبه أنّ قلبه سينخلع من مكانه.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: أي: ظنوناً مختلفة تأخذهم وتستولي عليهم، فكلٌّ له ظنٌّ يخدم غرضه، فالمؤمنون يظنّون أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يتخلّى عنهم، والكافرون يظنّون أنّهم سينتصرون وسيستأصلون المؤمنين، بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك. ونلحظ في هذه الآية أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يكتفي بأنْ يحكي له ما حدث، إنّما يجعله ﷺ يستحضر الصّورة بنفسه، فيقول له: اذكُرْ إذ حدث كذا وكذا.

(الآية ١١) - ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾:

﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: أي: اختُبِروا وامْتُحِنوا، فقَوِيُّ الإيمان قال: لن يخذلنا الله عَزَّ وَجَلَّ، والمنافق قال: هي نهاية الإسلام والمسلمين.

﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾: الزّلزلة هي الهزّة العنيفة الّتي ينشأ عن قوّتها تَخَلْخل الأشياء، لكن لا تقتلعها، والمراد أنّهم تعرَّضوا لكرب شديد زلزل كيانهم، وميَّز مؤمنهم من منافقهم؛ لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها:

(الآية ١٢) - ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾:

﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾: المنافقون هم أنفسهم الّذين في قلوبهم مرض، فهما شيء واحد، وهذا العطف يُسمُّونه في اللّغة: (عطف البيان).

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾: الغرور أنْ تخدع إنساناً بشيء مُفْرح في ظاهره، محزن في باطنه، تقول: ما غرَّك بالشّيء الفلانيّ؟ كأنّ في ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك.

(الآية ١٣) - ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَإِذْ﴾: هنا أيضاً بمعنى: واذكر.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: يثرب: اسم للبقعة الّتي تقع فيها المدينة، وقد غيَّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبة).

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾: أي: في الحرب.

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾: يعني: اتركوا محمّداً وأتباعه في أرض المعركة، واذهبوا، أو: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: على هذا الدّين الّذي تنكرونه بقلوبكم، وتساندونه بقوالبكم. ثمّ يكشف القرآن الكريم حيلة فريق آخر يريد الفرار:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾: أي: في عدم الخروج للقتال.

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾: أي: ليست مُحصّنة، ولا تمنع مَنْ أرادها بسوء، يقال: بيت عورة إذا كان غير مُحْرز، أو غير محكم ضدّ مَنْ يطرقه يريد به الشّرّ، كأن يكون منخفضاً أو مُتهدّم الجدران يسهل تسلُّقه، أو أبوابه غير محكمة.. إلخ، لكنّ الله سبحانه وتعالى يُثبت كذبهم، ويُبطل حجّتهم، فيقول:

﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾: إنّما العلّة في أنّهم:

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أي: من المعركة إشفاقاً من نتائجها، ومخافةَ القتل.

(الآية ١٤) - ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾:

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم﴾: أي: البيوت.

﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾: من نواحيها.

﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾: أي: طُلب منهم الكفر.

﴿لَأٓتَوۡهَا﴾: يعني: لكفروا.

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾: يعني: ما يجعل الله عَزَّوَجَلَّ لهم لُبْثاً وإقامة إلّا يسيراً، ثمّ ينتقم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهم.

(الآية ١٥) - ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾:

﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾: أخذ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم العهد وقَبلوه، وهو ما حدث في بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النُّصْرة والمؤازرة.

أو: يكون الكلام لقوم فاتتهم بدر وفاتتْهم أُحُد، فقالوا: والله لئن وقفنا في حرب أخرى لنبلونّ فيها بلاءً حسناً.

(الآية ١٦) - ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾:

﴿قُل﴾: يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل؛ أي: لهؤلاء الّذين يريدون الفرار من المعركة:

﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾: والقرآن الكريم هنا يحتاط لمسألة إزهاق الرّوح، وسبق أن تحدّثنا عن الفرق بين الموت والقتل؛ لذلك

يقول سبحانه وتعالى عن نبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤]، فالموت لا يقدر عليه إلّا واهب الحياة سبحانه وتعالى، ويكون بنقض الرّوح أوّلاً بأمر خالقها عزّ وجلّ، ثمّ يتبعه نَقْض البنية، أمّا القتل فيتمّ أوّلاً بنقض البنية الّذي يترتّب عليه إزهاق الرّوح؛ لأنّ البنية لم تَعُدْ صالحة لاستمرار الرّوح فيها، بعد أنْ فقدتْ المواصفات المطلوبة لبقاء الرّوح، والفرار لن يُجدي في هذه المسألة؛ لأنّ لها أجلاً محدّداً، سواء أكان بالله عزّ وجلّ واهب الحياة، أم كان بفعل واحد من الخَلْق عصى أمر الله سبحانه وتعالى، فهَدَم البنية الّتي بناها الله جلّ جلاله، وما جدوى الفرار من المعركة، وقد رأينا مَنْ شهد المعارك كلّها، ثمّ يموت على فراشه، كخالد بن الوليد رضي الله عنه الّذي يقول: "لقد شهدتُ مئة زَحْف أو زهاءها، وما في جسدي شبر إلّا وفيه ضربةٌ بسيف، أو طعنةٌ برُمْح، وهَأنَا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامتْ أعين الجبناء". ثمّ يناقشهم القرآن الكريم: هَبُوا أنّكم فررتُم من الموت أو القتل، أتدوم لكم هذه السّلامة؟ أتخلدون في هذه الحياة؟

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: وسرعان ما تنتهي الحياة، وتواجهون الموت الّذي لا مَفرَّ منه، وكلّنا ذاهب إلى هذا المصير.

(الآية ١٧) - ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: يمنعكم.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ﴾: كما قال جلّ جلاله في موضع آخر: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: من الآية ٤٣]، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بقوم سوءاً فلا

عاصمَ لهم، فلا يوجد معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إله آخر يدفع السّوء عن هؤلاء، والإشكال الّذي يحتاج إلى توضيح هنا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾، فكيف تكون العصمة من الرّحمة؟ قال العلماء: يعصم هنا بمعنى: يمنع، والمعنى: لا يمنع أحد من أعدائكم رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، إنْ أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكم رحمة، ونلحظ على سياق الآية أنّها جاءت بأسلوب الاستفهام، ولم تأْتِ على صورة الخبر، فلم يَقُلْ القرآن الكريم لمحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمّد، لا يُعصَم أحد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنْ أرادكم بسوء؛ لأنّ الجملة الخبريّة محتملة للصّدق والكذب، إنّما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلها جملة إنشائيّة استفهاميّة؛ ليقرّروا هم بأنفسهم هذه الحقيقة، كأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لهم: لقد ارتضيتُ حكمكم أنتم، ولو لم يكُنْ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واثقاً من أنّ الجواب لن يأتي إلّا: لا أحدَ، لَمَا جاء بالأسلوب في صورة استفهام، فالاستفهام هنا آكد في تقرير صِدْق هذه الجملة، كذلك أنت تلجأ إلى هذا الأسلوب في الرّدّ على مَنْ يُنكِر جميلك، فتقول: ألم أُحْسِن إليك يوم كذا وكذا؟ فلا يملك عندها إلّا الإقرار.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾: الوليّ: هو القريب منك، وأنت لا تُقرِّب منك إلّا مَنْ ترجو نفعه، هو الّذي يليك أو يُواليك، فحبُّه يسبق الحدث، فإذا ما جاء الحدث حمله حبُّه لك على أنْ يدافع عنك.

﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾: النّصير: قريب من معنى الوليّ، ويدافع عنك أيضاً، لكن يأتي دفاعه بعد الحدث، وقد يكون ممَّنْ لا قرابةَ بينك وبينه.

والمعنى: حين يريد الله جَلَّ جَلَالُهُ أحداً بسوء فلن يجد أحداً يمنعه منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا الوليّ ولا النّصير.

(الآية ١٨) - ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿۞ قَدْ﴾: حرف يُفيد التّحقيق، خاصّة إذا جاءتْ من الله ﷻ، ويأتي معها الفعل في صيغة الماضي، لكن هنا: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ﴾ فجاء الفعل بصيغة المضارع، وهذا يعني أنّ الحدث الّذي يقع الآن سيثبت أنّ الله ﷻ يعلم المُعوِّقِين، وقد عَلِمَ أزلاً، فإنْ قُلْتَ: فالحقّ ﷻ يعلم قبل أنْ يكون هناك تعويق، نقول: فَرْق بين أنْ يعلم الأمر قبل أنْ يقع، وأنْ يعلمه إذ يقع، فقد يقول قائل: علمت وسوف تجازيني على ما تعلم سابقاً، لكن لو تركتني في المستقبل لن تحدث منّي مخالفة، فالله ﷻ يريد أن يؤكّد هذا الأمر.

﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾: المعوِّق: هو الّذي يضع العوائق أمام مرادك، ويُثبّط هِمَّتك ويُخذّلك.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾: يعني: أقبل وتعال، وكلمة: ﴿هَلُمَّ﴾ تأتي هكذا بصيغة المفرد دائماً مع المفرد والمثنّى والجمع، ومع المذكّر والمؤنّث، ومنه قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٠]؛ أي: هاتوا، وهذه هي اللّغة الفصيحة، وفي لغة من لغات تهامة يُلحقون بها علامة التّثنية والجمع والتّذكير والتّأنيث، فيقولون: هلمّ وهلمّي وهلمّا وهلمّوا، ولجمع الإناث هَلُمْنَ.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾: البأس؛ أي: الحرب، فهم يهربون من الحرب ولا يريدونها، وقال ﷻ: ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٧]،

ففَرْق بين البأس والبأساء: البأس؛ أي: الحرب، أمّا البأساء، فكلّ ما يصيب الإنسان من مكروه في غير ذاته، أمّا الضّرّاء فما يصيب الإنسان في ذاته، كمرض أو نحوه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: وهذه القلّة مستثناه: إمّا من الإتيان، أو أنّهم يأتون البأس، لكن قلّة منهم يُقاتلون بهمّة ونشاط، والباقون أتوْا لئلّا يُتَّهموا بالتّخلّف عن رسول الله ﷺ.

(الآية ١٩) - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: الشّحّ في معناه العامّ هو البخل، لكنّ الشّحيح الّذي يبخل على غيره، وقد يكون كريماً على نفسه وعلى أهله، أمّا البخيل فهو الّذي يبخل حتّى على نفسه؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ليس على أنفسهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: أي: في ساعة الفزع، يأخذ الفزع أبصارهم، فينظرون هنا وهناك، لا تستقرّ أبصارهم، ولا تسكن إلى شيء، زاغتْ أبصارهم.

﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: ومن ذلك الخبر: "إنّكم لتكثرون عند الفزع، وتَقلُّون عند الطّمع"، كان هذا حالهم عند الخوف والفزع.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم﴾: أي: آلموكم وآذوكم بألسنتهم، وقالوا لكم: أعطونا حقّنا، فقد حاربنا معكم، ولولا نحن ما انتصرتُمْ على عدوّكم، إلى غير ذلك من التّطاول بالقول والإيذاء والتّأنيب، وهذا كلّه من معاني (السّلق) ومنه: سلق اللّحم ونحوه، وهو أنْ يغلي في الماء دون أنْ تضيف إليه شيئاً، ومثله: السّلخ، فكلّها معانٍ تلتقي في الإيلام، وعادةً ما نجد في اللّغة أنّه إذا اشترك اللّفظان في حرفين، واختلفا في الثّالث فلهما معنى عامّاً يجمعهما كما في سلق وسلخ، وفي: قطف، وقطر، وقطم، وكلّها تلتقي في الانفصال.

﴿بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: يعني: حادّة فصيحة بملء الفم، كما في قوله ﷻ: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: من الآية ٢٢].

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾: بعد أنْ قال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أكّد هذا المعنى بقوله ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾؛ أي: في عمومه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾: لأنّهم لو آمنوا لَعلموا أنّ الشّحّ، شُحٌّ عليهم هم، وليس في مصلحتهم؛ لأنّ الكريم يستزيد من الله ﷻ العطاء، أمّا الشّحيح فليس له زيادة؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [محمّد: من الآية ٣٨]، وربّنا ﷻ حين يرانا ننفق ممّا أعطانا يزيدنا؛ لذلك يقول أحد الصّالحين: "اللّهمّ إنّك عوّدتني خيراً، وعوَّدْتُ خلقك خيراً، فلا تقطع ما عوَّدتني حتّى لا أقطع عن النّاس ما عوَّدتهم"، فالعطاء استدرار لنعمة الله ﷻ، وسبب للمزيد منها، فلم يخالط الإيمان قلوبهم، ونتيجة عدم الإيمان:

﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾: أي: أنّهم عملوا، لكن أعمالهم لا رصيدَ لها من إيمان؛ لذلك أحبطها الله سبحانه وتعالى؛ أي: جعلها من غير جدوى ولا فائدة تعود عليهم، وهذه القضيّة أوضحها القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم]، وهذا الإحباط أمر يسير على الله عزّ وجلّ، لكن أفي حَقّ الله سبحانه وتعالى نقول: هذا صعب، وهذا يسير؟ قال العلماء: كلُّ أمر بالنّسبة إلى الله عزّ وجلّ يسير؛ لأنّه سبحانه وتعالى لا يفعل بمعالجة الشّيء، إنّما يفعل جلّ جلاله بـ: ﴿كُن﴾، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، إنّما هو تقريب للغتنا البشريّة.

(الآية ٢٠) - ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠﴾:

﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾: القرآن الكريم يحكي هذا الموقف عن المنافقين، ويكشف نيّاتهم السّيّئة، فبعد أنْ تجمَّع الأحزاب، وخرجوا لمحاربة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، لم يُصدّق المنافقون هذا التّجمُّع الّذي يخيفهم ويروّعهم، فقد رأوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم ينتصر على أعدائه متفرّقين، وهذه هي المرّة الأولى الّتي يجتمع فيها أعداء الإسلام على اختلافهم، فاستبعد المنافقون تجمُّع الأحزاب هذا التّجمّع، وبعد ذلك ينفضّون دون أنْ يصنعوا حَدَثاً يُذكَر في التّاريخ.

﴿يَحۡسَبُونَ﴾: الحُسْبان: ظنّ؛ أي: ليس حقيقة.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾: أي: إنْ يتجمّع الأحزاب، يودُّ المنافقون لو أنّهم بادون؛ أي: مقيمون في البادية بعيداً عن المدينة؛ لأنّهم يخافون من مطلق التّجمّع، ولأنّهم إنْ بَقَوْا في المدينة إمّا أنْ يحاربوا الأحزاب، وهم غير واثقين من النّصر، وإمّا ألّا يحاربوا، وعندها يصيرون أعداءً للمسلمين، فهم يريدون أنْ يعيشوا في النّفاق، وألّا يخرجوا منه؛ لذلك يودّون عيشة البادية مع الأعراب، ومن بعيد:

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: أي: ما حدث لكم في هذه المواجهة.

ثمّ يقرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة:

﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي: درءاً للشّبهات، وذرّاً للرّماد في العيون، فلا تأْسَ عليهم، ولا تحزن لتخلُّفهم.

(الآية ٢١) - ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أسوة: قدوة ونموذج سلوكيّ، والرّسول ﷺ مُبلِّغ عن الله ﷻ منهجه لصيانة حركة الإنسان في الحياة، وهو أيضاً أُسْوة سلوك ﷺ، فما أيسر أنْ يعظ الإنسانُ، وأنْ يتكلَّم، المهمّ أنْ يعمل على وَفْق منطوق كلامه ومراده؛ لذلك قالت عنه السّيّدة عائشة رضي الله عنها: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"(١)، لكن، ما الأسوة الحسنة الّتي قدَّمها رسول الله ﷺ في مسألة الأحزاب؟ لمَّا تجمَّع الأحزاب كان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند النّساء، مُسْنَدُ الصِّدِّيقَةِ عَائِشَةَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنها، الحديث رقم (٢٤٦٠١).

الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ»[1]، وجعل شعاره الإيمانيّ فيما بعد: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،... صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»[2]، وما دام هذا شعار المصطفى ﷺ، فهو لكم أُسْوة، وقال سبحانه وتعالى عن المؤمنين: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٤]، وفي غزوة بدر، يقول أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: "بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ، فَوَاللَّهِ لَيُنْجِزَنَّ لَكَ الَّذِي وَعَدَكَ"[3]، ولقائل أنْ يقول: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وعد نبيّه بالنّصر، فَلِمَ الإلحاح في الدّعاء؟ نقول: كان ﷺ يقدّم ثمن النّصر بالدّعاء؛ لأنّ الدّعاء عبادة، وما كان سيّدنا رسول الله ﷺ يُلحّ في الدّعاء من أجل النّصر؛ لأنّه وَعْد مُحقّق من الله سبحانه وتعالى، ولكن من أجل العبادة، ومن أجل التّضرّع والتّذلّل إلى الله سبحانه وتعالى، ولنقرأ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال]، فالرّسول ﷺ لا يريد العير والانتصار على تجارة قريش، إنّما يريد النّفير الّذي خرج للحرب.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ كأنّ الأُسْوة الحسنة مكانها كلّ رسول الله ﷺ، فهو ﷺ ظرف للأُسْوة الحسنة في كلّ عضو فيه، ففي لسانه أُسْوة حسنة،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ الجِهادِ والسِّيَرِ، بابٌ: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا لَمْ يُقاتِلْ أوَّلَ النَّهارِ أخّر القِتالَ حتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، الحديث رقم (٢٩٦٦).

(٢) صحيح البخاريّ: كتابُ الجِهادِ والسِّيَرِ، بابُ التَّكْبيرِ إذا علا شَرَفاً، الحديث رقم (٢٩٩٥).

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة: كتابُ المَغازي، غزوةُ بَدْرٍ الكُبْرى ومتى كانت وأمْرُها، الحديث رقم (٣٦٦٨٨).

وفي عينه أُسْوة حسنة، وفي يده أُسْوة حسنة، وفي تصرّفه أسوة حسنة، وفي قوله ﷺ أسوة حسنة، كلّه ﷺ أُسْوة حسنة، هذه الأُسْوة لـمَنْ؟

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: وصف ذكر الله سبحانه وتعالى بالكثرة؛ لأنّ التّكاليف الإيمانيّة تتطلّب من النّفس استعداداً لها، وتؤدّي إلى مشقّة، أمّا ذِكْر الله سبحانه وتعالى فكما قُلْنا: لا يكلّفنا شيئاً، ولا يشقّ علينا؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٥]، يعني: أكبر من أيّ طاعة أخرى؛ لأنّه يسير على لسانك، تستطيعه في كلّ عمل من أعمالك، وفي كلّ وقت، وفي أيّ مكان، ولذلك قُلْنا في آية الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة].

(الآية ٢٢) - ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: أي: لمّا رأى المؤمنون الأحزاب بهذه الكثرة منصرفين مهزومين.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾: أي: هذا النّصر، وهذا الوعد الّذي تحقّق.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾: وهذه المسألة دليل من أدلّة أنّ الإيمان يزيد وينقص، فالإيمان يزيد بزيادة الجزئيّات الّتي تُعليه، فبعد الإيمان بالحقّ سبحانه وتعالى هناك إيمان بالجزئيّات الّتي تثبت صِدْق الحقّ في كلّ تصرّف.

﴿وَتَسْلِيمًا﴾: أي: لله عزّ وجلّ في كلّ ما يُجريه على العباد.

(الآية ٢٣) - ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾: نزلت هذه الآية في جماعة من المؤمنين صادقي الإيمان، إلّا أنّهم لم يشهدوا بدراً ولا أُحُداً، ولكنّهم عاهدوا الله سبحانه وتعالى إنْ جاءت معركة أخرى لَيُبَادِرُونَّ إليها، ويبلُون فيها بلاءً حسناً، وورد أنّها نزلت في أنس بن النّضر رضي الله عنه، فقد عاهد الله عز وجل لـمّا فاتته غزوة بدر لو جاءت مع المشركين حرب أخرى لَيبلونَّ فيها بلاء حسناً، وفعلاً لـمّا جاءت غزوة أُحُد أبلى فيها بلاءً حسناً حتّى استشهد فيها، فوجدوا في جسده نيّفاً وثمانين طعنةً برمح، وضربة بسيف، وهذا معنى: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾.

وساعة تسمع كلمة: ﴿رِجَالٌ﴾ في القرآن الكريم، فلنعلم أنّ المقام مقام جدٍّ وثبات على الحقّ، وفخر بعزائم صُلْبة لا تلين، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال، وهؤلاء الرّجال وَفَّوا العهد الّذي قطعوه أمام الله عز وجل على أنفسهم، بأنْ يبلُوا في سبيل نصرة الإسلام، ولو يصل الأمر إلى الشّهادة.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: أي: أدَّى العهد ومات، والنّحب في الأصل هو النّذر، فالمراد: أدّى ما نذره، أو ما عاهد الله سبحانه وتعالى عليه من القتال، ثمّ اسْتُعمِلَت (النّحب) بمعنى: الموت، لكن، ما العلاقة بين النّذر والموت؟ قال العلماء: المعنى إذا نذرتَ فاجعل الحياةَ ثمناً للوفاء بهذا النّذر، وجاء هذا التّعبير: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ لتعلم أنّ الموت يجب أن يكون منك نذراً؛ أي:

انذر لله ﷻ أنْ تموت، لكن في نُصْرة الحقّ وفي سبيل الله ﷻ، فكأنّ المؤمن هو الّذي ينذر نفسه وروحه لله ﷻ، وكأنّ الموت عنده مطلوب ليكون في سبيل الله ﷻ، فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت، ويستقرئها، يرى أنّ الخَلْق جميعهم يموتون من لدُن آدم ؑ حتّى الآن؛ لذلك تهون عليه حياته ما دامت في سبيل الله ﷻ، فينذرها ويقدّمها لله ﷻ عن رضا، ولِمَ لا وقد ضحّى بهذه الحياة، الّتي مصيرها إلى زوال، واشترى بها حياة باقية خالدة مُنعَّمة، لذلك قالت أسماء بنت أبي بكر ﵄: "إنّ لنا آجالاً إذا جاءت فإنّ أكرمها القتل"، وكان عمر بن عبد العزيز ﵁ يقول: "ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشّكّ من يقين النّاس بالموت"، ومع أنّنا نرى الموت لا يُبقي على أحد فينا، إلّا أنّ كلّ إنسان في نفسه يتصوّر أنّه لن يموت، وحَقٌّ للمؤمن أنْ ينذر نفسه، وأنْ يضحّي بها في سبيل الله ﷻ؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران]، وقد نسمع مَنْ يقول لنا: هذا يعني أنّني لو فتحتُ القبر على أحد الشّهداء أجده حيّاً في قبره؟ ونقول لمن يحبّ أنْ يجادل في هذه المسألة: الله ﷻ قال: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٦٩]، ولم يقل: (أحياء عندك)، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت، لا تنقل قانون الدّنيا إلى قانون الآخرة. والمؤمن ينبغي أن يكون اعتقادة في الموت، كما قال بعض العارفين: "الموت سهم أُرسِل إليك بالفعل، وعمرك بقدر سفره إليك".

إنَّ الطّبيبَ لهُ علمٌ يُدِلُّ بِهِ   إن كان للمرءِ في الأيّامِ تأخيرُ
حتّى إذا ما انتهت أيّامُ رحلتِهِ   حارَ الطّبيبُ وخانتــه العقاقيرُ

والقرآن الكريم حين يعالج هذه المسألة، يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: من الآية ٢]، فقدَّم الموت على الحياة، حتّى لا نستقبل الحياة بغرور الحياة، إنّما نستقبلها مع نقيضها الموت حتّى لا نغترَّ بها.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾: أي: ينتظر الوفاء بعهده مع الله سبحانه وتعالى، وكأنّ الله تعالى يقول: الخير فيكم يا أمّة محمّد باقٍ إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾: معنى التّبديل هنا؛ أي: ما تخاذلوا في شيء عاهدوا الله سبحانه وتعالى عليه ونذروه، فما جاءت بعد ذلك حرب، وتخاذل أحد منهم عنها، ولا أُدخِل أحد منهم الحرب مواربة ورياء فقاتل من بعيد كالمنافقين، أو تراجع خوفاً من الموت، بل كانوا في المعمعة حتّى الشّهادة، لذلك فتحوا الأمصار.

(الآية ٢٤) - ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾:

لنتأمّل هنا رحمة الخالق سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، هذه الرّحمة الّتي ما حُرم منها حتّى المنافق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾، وسبق أنْ تحدّثنا عن صفتي المغفرة والرّحمة، وقلنا: غفور رحيم من صيغ المبالغة، الدّالّة على كثرة المغفرة وكثرة الرّحمة، وأنّ القرآن الكريم كثيراً ما يقرن بينهما، فالمغفرة أوّلاً لتستر العيب والنّقائص، ثمّ يتلوها الرّحمة من الله عزّ وجلّ، بأن تمتدّ يده سبحانه وتعالى بالإحسان.

(الآية ٢٥) - ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾: الغيظ: احتدام حقد القلب على مقابل منافس، والمعنى: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ردَّ الكافرين والغيظ يملأ قلوبهم؛ لأنّهم جاؤوا وانصرفوا دون أنْ ينالوا من المسلمين شيئاً.

﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ﴾: ليس الخير المطلق، إنّما لم ينالوا الخير في نظرهم، وما يبتغونه من النّصر على المسلمين، فهو خير لهم وإنْ كان شرّاً يُراد بالإسلام.

وقد ردّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكافرين إلى غير رَجْعة، ولن يفكّروا بعدها في الهجوم على الإسلام؛ لذلك قال سيّدنا رسول الله ﷺ بعد انصرافهم خائبين: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنا**»(١)، وفعلاً كان بعدها فتح مكّة.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾: أي: أنّ ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوّتكم وقتالكم، إنّما تولّى الله عَزَّ وَجَلَّ ردَّهم وكفاكم القتال، صحيح كانت هناك مناوشات، لكنّها لم تصل إلى حجم المعركة، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت في غير مصلحة المؤمنين؛ لأنّهم كانوا ثلاثة آلاف، في حين كان المشركون عشرة آلاف، فكانت رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمؤمنين هي السّبب الأساسيّ في النّصر؛ لذلك ذُيّلت الآية بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾: قويّاً ينصركم دون قتال منكم.

﴿عَزِيزًا﴾: يغلب ولا يُغلب.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ المغازي، بابُ غزوةِ الخندقِ، الحديث رقم (٤١١٠).

هذا ما كان من أمر قريش وحلفائها، وبنو قريظة بسبب نقضهم للعهود وغدرهم، يقول الله ﷻ فيهم:

(الآية ٢٦) - ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾:

﴿ظَٰهَرُوهُم﴾: أي: عاونوهم.

﴿مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾: أي: من حصونهم وقلاعهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾: أي: الخوف وهو جنديّ من جنود الله ﷻ، وهذا الرّعب الّذي ألقاه الله ﷻ في قلوب الكافرين هو الّذي فرّقهم، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة، ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المنافقون: من الآية ٤]، ألم يُحدِّثنا صحابة رسول الله ﷺ أنّهم كانوا يستعملون السّواك، فظنّ الكفّار أنّهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم، هذا هو الرّعب الّذي نصر الله ﷻ به عباده المؤمنين.

﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾: أي: المقاتلين الّذين يحملون السّلاح.

﴿وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾: وهم النّساء والذّراري وغيرهم مِمَّنْ لا يحملون السّلاح.

(الآية ٢٧) - ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾:

﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾: أي: أعطاكم أرضَ وديار وأموالَ أعدائكم من بعد زوالهم وانهزامهم.

﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾: أي: أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد، والمراد بها خيبر، وكأنّ الله ﷻ يقول لهم: انتظروا فسوف تأخذون منهم الكثير.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾: لا شيء يمتنع عن قدرة الله ﷻ، إذا أراد شيئاً، فإنّما يقول له: كن فيكون، فهو قادر.

وهكذا انتهى التّعبير القرآنيّ من قصّة الأحزاب، وينبغي علينا الآن أنْ نتحدّث عَمَّا في هذه القصّة من بطولات، ففيها بطولات متعدّدة، لكلّ بطل فيها دور، وتبدأ القصّة حين ذهب كلّ من حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكانا من قريظة، إلى قريش في أماكنها، وقالوا: جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمّد، فأتُوا أنتم من أسفل، وننزل نحن من أعلى، ونحيط محمّداً ومن معه ونقضي عليهم، وكان في قريش بعض التّعقُّل، فقالوا لحيي بن أخطب وصاحبه: أنتم أهل كتاب، وأعلم بأمر الأديان، فقولوا لنا: أديننا الّذي نحن عليه خير أم دين محمّد؟ فقال: بل أنتم أصحاب الحقّ، سمعتْ قريش هذا الكلام بما لديها من أهواء، وكما يقال: آفة الرّأي الهوى؛ لذلك لم يناقشوه في هذه القضيّة، بل نسجوا على منواله، ولم يذكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ، وأنّهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ﷺ، ويقولون لهم: لقد أطلَّ زمان نبيّ جديد نتّبعه ونقتلكم به قَتْلَ عاد وإرم، لقد فات قريشاً أنْ تراجع حيي بن أخطب، وأن تسأله: لماذا غيَّرتم رأيكم في محمّد؟ ثمّ جاء القرآن الكريم بعد ذلك، وفضح هؤلاء وهؤلاء، فقال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النّساء]،

فكانت هذه أوّل مسألة تغيب فيها العقول، ويفسد فيها الرّأي، فتنتهز قريش أوّل فرصة حين تجد مَنْ يُناصرها ضدّ محمّد ودعوته، ومن هنا اجتمع أهل الباطل من قريش وأحلافها من بني فزارة، ومن بني مرّة، ومن غطفان وبني أسد والأشجعيّين وغيرهم للقضاء على الدّين الوليد، ثمّ كانت أولى بطولات هذه المعركة، لرجل من بلاد فارس، إنّه الصّحابيّ الجليل سلمان الفارسيّ ﵁، الّذي قضى حياته جَوّالاً يبحث عن الحقيقة، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة، وصادف بعثة رسول الله ﷺ وآمن به، وكان سلمان ﵁ أوّل بطل في هذه المعركة، حين أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق، وقال: يا رسول الله كنّا -يعني في فارس- إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا، يعني: جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار، فأراد كلّ منهم أن يأخذ سلمان ﵁ في صَفِّه، فلمّا تنازعا عليه، قال سيّدنا رسول الله ﷺ لهم: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**»(١)، وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان ﵁، وهذه الفكرة دليل على أنّ الحقّ ﷻ يُجنّد لخدمة الحقّ، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً، لكنّ هذه الفكرة ساقها الله ﷻ لنا، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصّحابيّ الجليل، والبطل الثّاني في هذه المعركة رجل يُدْعَى نُعَيم بن مسعود الأشجعيّ، جاءَ لرسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله لقد مال قلبي للإسلام،

(١) المستدرك على الصّحيحين: كتابُ معْرفَةِ الصَّحابَةِ ﵃، ذِكْرُ سَلْمانَ الفارسيّ ﵁، الحديث رقم (٦٥٣٩).

ولا أحد يعلم ذلك من قومي، فقال له رسول الله ﷺ: «خَذِّل عَنَّا فَإِنَّ الحَربَ خُدْعَة»[1]؛ أي: ادفع عنا القوم بأيّ طريقة، أبعدهم عنّا، أو ضلِّلهم عن طريقنا، أو قُلْ لهم: إنّنا كثير؛ ليرهبونا.. إلخ، هذا رجل كان بالأمس كافراً، فماذا فعل الإيمان في قلبه، وهو حديث عهد به؟ نظر نُعَيْم، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل، وبني قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى، فأراد أنْ يدخل بالدّسيسة بينهما، فذهب لأبي سفيان، وقال: يا أبا سفيان، أنا صديقكم، وأنتم تعلمون مفارقتي لدين محمّد، ولكنّي سمعت هَمْساً أنّ بني قريظة تداركوا أمرهم مع محمّد، وقالوا: إنّ قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين في المدينة مثلنا، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون، وإنْ صادفوا هزيمة فرّوا إلى بلادهم، ثمّ يتركون بني قريظة لمحمّد؛ لذلك قرّروا ألّا يقاتلوا معكم إلّا أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم، سمع أبو سفيان هذا الكلام، فذهب إلى قومه، فقال لهم: أنتم المقيمون هنا، وليس هذا موطن بني قريظة، وسوف يتركونكم لمواجهة محمّد وحدكم، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم في محاربة محمّد، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم، بعدها ذهب أبو سفيان ليكلِّم بني قريظة في هذه المسألة، فقال: هلك الخفُّ والحافر -يعني: الإبل والخيل- ولسنا بدار مقام لنا، فهيا بنا نناجز محمّداً -هذا بعد أنْ مكثوا نيّفاً وعشرين يوماً يعدّون ويتشاورون- فقالوا له: هذا يوم السّبت، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمّد، وعلى كلّ حال نحن لن نشترك معكم

(١) كنز العمّال: آداب الجهاد، آداب متفرّقة، الحديث رقم (١٠٨٨٧).

في قتال، إلّا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا، ساعتها علم أبو سفيان أنّ كلام نُعَيم الأشجعيّ صِدْق، فجمع قومه وقال لهم: الأرض ليست أرض مقام لنا، وقد هلك الخفّ والحافر، فهيا بنا ننجو، ولمّا جاء نُعَيم بن مسعود، وأخبر رسول الله ﷺ بما حدث، ووجد رسول الله ﷺ الجوّ هادئاً، قال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ؟ ثُمَّ يَرْجِعُ»، يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، «أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»(١)، والمراد: أن يندسَّ بين صفوف الأعداء ليعلم أخبارهم، هذه المهمّة، لم يَقُمْ بها من الحاضرين أحد، ودَلَّ هذا على أنّ الهول ساعتها كان شديداً، والخطر كان عظيماً، وكان القوم في حال من الجهد والجوع والخوف، جعلهم يتخاذلون عن القيام، فلم يأنس أحد منهم قوّة في نفسه يؤدّي بها هذه المهمّة، لذلك كلَّف رسول الله ﷺ رجلاً يُدْعى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بهذه المهمّة، قال: «يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَنَا»، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْراً، وَلَا نَاراً وَلَا بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، -مخافة أن يكون بين القوم غريب، وهنا تظهر لباقة حذيفة رضي الله عنه وحُسْن تصرّفه- فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحاديثُ رجالٍ مِنْ أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ، حديثُ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٣٣٣٤).

أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تُحْدِثْ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَنِي، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا إِلى بِلَادِهِمْ[1]، وبعد أنْ جنّد الحقّ سبحانه وتعالى كلّاً من نُعَيم الأشجعيّ وحُذَيفة لنصرة الحقّ، جاءت جنود أخرى لم يروْهَا، وكانت هذه اللّيلة باردة، شديدة الرّياح، وهبَّتْ عاصفة اقتلعتْ خيامهم، وكفأتْ قدورهم وشرَّدتهم، ففرَّ مَنْ بقي منهم، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: من الآية ٢٥]، وقوله جلّ جلاله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدّثّر: من الآية ٣١]، بعد أنْ ردَّ الحقّ سبحانه وتعالى كفّار مكّة بغيظهم، وكفى المؤمنين القتال أراد أنْ يتحوَّل إلى الجبهة الأخرى، جبهة بني قريظة، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فضَرَبَ قُبَّةً عَلَى سَعْدٍ فِي الْمَسْجِدِ فَوَضَعَ الْمُسْلِمُونَ السِّلَاحَ وَوَضَعَ سِلَاحَهُ فَجَاءَهُ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحاديثُ رجالٍ مِنْ أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ، حديثُ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٣٣٣٤).

جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ وَضَعْتَ سِلَاحَكَ وَلَمْ تَضَعِ الْمَلَائِكَةُ أَسْلِحَتَهُمْ بَعْدُ، اخْرُجْ فَقَاتِلْهُمْ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَأْمَتِهِ -يَعْنِي: الدِّرْعَ- فَلَبِسَها ثُمَّ خَرَجَ وَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ(١)، وقال رسول الله ﷺ للقوم: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»(٢)، فاختلف الصّحابة رضي الله عنهم حول هذا الأمر: منهم مَنْ انصاع له حرفيّاً، وأسرع إلى بني قريظة ينوي صلاة العصر بها، ومنهم مَنْ خاف أنْ يفوته وقت العصر فصلّى ثمّ ذهب، فلمّا اجتمعوا عند رسول الله ﷺ أقرَّ الفريقين، وصوَّب الرّأيين، وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد في الفكر الإسلاميّ، والعصر حَدَثٌ، والحدث له زمان، وله مكان، فبعض الصّحابة نظر إلى الزّمان فرأى الشّمس توشك أنْ تغيب فصلَّى، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يُصَلِّ إلّا في بني قريظة؛ لذلك أقرّ رسول الله ﷺ هذا وهذا، وينبغي على المسلم أنْ يحذر تأخير الصّلاة عن وقتها؛ لأنّ العصر مثلاً وقته حين يصير ظِلُّ كلّ شيء مِثْلَيْه وينتهي بالمغرب، وهذا لا يعني أن تُؤَخِّر العصر لآخر وقته، صحيح إنْ صلّيْتَ آخر الوقت لا شيء عليك، لكن مَنْ يضمن لك أن تعيش لآخر الوقت؟! فأنت لا تأثم إنْ صلّيْت آخر الوقت، لكن تأثم في آخر لحظة من حياتك حين يحضرك الموت وأنت لم تُصَلِّ؛ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه: ج٢، ما يُرْوى عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ ويَحْيى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ وَنَافِعٍ وَمَشْيَخَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، الحديث رقم (١١٢٦).

(٢) صحيح البخاريّ: أبوابُ صلاةِ الخَوْفِ، بابُ صلاةِ الطَّالِبِ والمَطْلُوبِ راكِباً وإيماءً، الحديث رقم (٩٤٦).

قَالَ: «**الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا**»(١)، فليس معنى امتداد الوقت إباحة أنْ تُؤخَّر.

وفي مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيّدنا عليّ بن أبي طالب -كرّم الله وجهه-، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفّار في الخندق نقطة ضعيفة، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها، وأن يقذفوا منها خيولهم، فلمّا قذفوا بخيولهم إلى النّاحية الأخرى، فجالت الخيل في السّبخة بين الخندق وجبل سلع، وقف واحد من الكفّار وهو عمرو بن ودّ العامريّ، وهو يؤمئذ أشجع العرب وأقواها حتّى عدَّوْه في المعارك بألف فارس، عن ابن إسحاق، أنّ عمراً لمّا نادى بطلب من يُبارزه، قام عليّ ﵁ وهو مقنّع في الحديد، فقال: أنا له يا نبيّ الله، فقال له: «**اجلس، إنّه عمرو**»، ثمّ كرّر عمرو النّداء، وجعل يؤنّبهم ويقول: أين جنّتكم الّتي تزعمون أنّه من قُتِل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون لي رجلاً؟ فقام عليّ، فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «**اجلس، إنّه عمرو**»، ثمّ نادى الثّالثة، وقال:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ من النِّداءِ ... بجمعِكُمُ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ
وَوقفْتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ ... مُوْقِفَ القِرْن المنَاجزْ
إنَّ الشَّجاعَة في الفَتَى ... والجودَ مِنْ خير الغرائِز

فقام عليّ ﵁، فقال: أنا له يا رسول الله، فقال: «**إنّه عمرو**»، فقال: وإن كان عمراً، فَأَذِنَ له رسول الله ﷺ، فمشى إليه عليّ ﵁ وهو يقول:

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ التَّوْحيدِ، بابُ وسمَّى النَّبيُّ ﷺ الصَّلَاةَ عَمَلاً، الحديث رقم (٧٥٣٤).

لَا تَعجَلَنَّ فَقَدْ أتَاكَ مجيب صوتِكَ غير عَاجِز
ذُو نيّـــة وبَصيــرة والصِّدْقُ مُنجِي كُلَّ فَائِز
إنِّـي لأَرْجُـو أنْ أُقيــم عَلْيك نَائِحَــةَ الجنَــائِزْ
مِــنْ ضَـــرْبةٍ نَجْــلَاء يَبْقَى ذِكْـرُهَا عِنْدَ الهَـزَاهِزْ

الهزاهز: أي: الحروب، وكانت لسيّدنا رسول الله ﷺ درع سابغة اسمها (ذات الفضول)، فألبسها رسول الله ﷺ عليّاً، وأعطاه سيفه (ذا الفقار) وعمامته (السّحاب)، وكانت تسعة أكوار، وخرج عليّ رضي الله عنه لمبارزة عمرو بن ودّ، فضرب عمرو الدّرقة فشقّها، فعاجله عليّ بضربة سيف على عاتقه أردتْهُ قتيلاً، ثمّ ثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التّكبير، فعرف أنّ عليّاً قد قتله.

وفي المعركة بطولة أخرى لسيّدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: الَّذِي رَمَى سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَبَّانُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الْعَرِقَةِ أَحَدُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا أَصَابَهُ قَالَ: خُذْهَا وَأَنا ابْنُ الْعَرِقَةِ، فَقَالَ سَعْدٌ: عَرَّقَ اللَّهُ وَجْهَكَ فِي النَّارِ[1]، فقال: اللّهمّ إنْ كانت هذه آخر موقعة بيننا وبين قريش فاجعلني شهيداً، وإنْ كنت تعلم أنّهم يعودون فأبقني لأشفي نفسي مِمَّنْ أخرج رسول الله ﷺ وآذاه، ولا تُمِتْني حتّى تُقرّ عيني من بني قريظة، وقد كان، فبعد أنْ مكث الأحزاب وبنو قريظة قرابة خمسة وعشرين يوماً دون قتال، وانتهى الأمر بالمفاوضات اختار سيّدنا

---

(١) المستدرك على الصّحيحين: كتابُ معرفَةِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم، ذِكْرُ مناقبِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذِ، الحديث رقم (٤٩٢١)، والأكحل هو: العِرْق الّذي نضع فيه الحقنة، ومنه يخرج دم الفَصْد والحجامة.

رسول الله ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه ليكون حكَماً في هذه المسألة، فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم، وأسر الذّراري والنّساء والأموال، فلمّا بلغ هذا الحكم رسول الله ﷺ قال: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»(١)، ثمّ ثار الجرح على سيّدنا سعد حتّى مات به لَيْلاً، فَأَتَى جِبْرِيلُ عليه السلام رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ هَذَا الَّذِي فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ؟ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى سَعْدٍ فَوَجَدَهُ قَدْ مَاتَ(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بشارة للمسلمين بأنّ البلاد ستُفتح لهم دون قتال، وهذا حال جمهرة البلاد الّتي دخلها الإسلام، فغالبيّتها فُتِحَتْ بالأُسوْة السّلوكيّة للمسلمين آنذاك، وبذلك نستطيع أن نردَّ على مَنْ يقول: إنّ الإسلام انتشر بحدِّ السّيف، وإذا كان الإسلام انتشر بحَدِّ السّيف، فأيُّ سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام، وكانوا من ضعاف القوم لا يستطيعون حتّى حماية أنفسهم؟ لا شيء إلّا قدوة السّلوك الّتي حملت كلّ هؤلاء على الإيمان، وسبق أن ذكرنا أنّ عمر رضي الله عنه وما أدراك ما عمر قوّةً وصلابةً؟! يقول حين سمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر]، قال: أيُّ جمع هذا، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا؟ ممّا يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين، ثمّ لو انتشر الإسلام بالسّيف لأصبح سكّان

---

(١) الجامع الصّحيح للسّنن والمسانيد: كتابُ السِّيَرِ والمناقب، غزوةُ الخندَق، ص ٤٤٠.

(٢) المستدرك على الصّحيحين: كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، ذِكْرُ مَنَاقِبِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه، الحديث رقم (٤٩٢١).

البلاد الّتي دخلها الإسلام كلّهم مسلمين، ولكن بقي أناس على أديانهم، وهذا دليل على بطلان هذه المقولة، ودليل على عدم الإكراه في الدّين، فالفتح الإسلاميّ كفل حرّيّة العقيدة: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩] فحَمْل السّيف كان فقط لحماية الاختيار في الدّعوة، أن يخلّوا بينهم وبين النّاس حتّى يعرضوا عليهم الإسلام، فمن حقّنا أن نعرض الإسلام كمبدأ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرّأس، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ في ذمّتنا، لذلك نجد دول شرق آسيا والدّول الإسلاميّة كلّها دخلها الإسلام دون قتال، وإنّما بالأسوة عن طريق التّجّار الّذين ذهبوا إلى تلك الأماكن.

(الآية ٢٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾:

لسائل أنْ يسأل: ما سِرُّ هذه النّقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بني قريظة إلى هذا التّوجيه لزوجات النّبيّ ﷺ؟ الجواب: لأنّ مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، فربّما طلبت زوجات الرّسول ﷺ كبقيّة المسلمين أنْ ينفق عليهنّ، ممّا يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه من خيرات هذه البلاد، فقبل أن يخطر ببالهنّ ذلك جاءتْ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ لتقرّر أنّ الإسلام ما جاء ليحقّق مزيّة لرسول الله ﷺ، ولا لآل رسول الله ﷺ، حتّى الزكاة لا تصحّ لأحد من فقراء بني هاشم، لكن مجيء الآية هكذا بصيغة الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾ دليل -كما قال بعض العلماء- على حدوث شيء بهذا الإطار، وقد رُوِي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّهنّ اجتمعْنَ يسألْنَ رسول الله ﷺ أنْ

يُوسِّع عليهنّ بعد أنْ مَنّ الله ﷻ عليه بهذا النّصر، وقال ﷺ عن قريش: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا»[1]، وبعد أنْ بشَّرتهم الآيات بما سيفتح المولى ﷻ من أرض جديدة، لذلك كان هذا التّوجيه الإلهيّ لنساء النّبيّ ﷺ:

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: يعني: ليس عندي ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدّنيا وزخرفها.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: أي: أعطيكُنَّ المتعة الشّرعيّة الّتي تُفْرَض للزّوجة عند مفارقة زوجها، والّتي قال الله ﷻ فيها: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة].

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾: التّسريح هنا يعني الطّلاق.

﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: ذلك يدلُّ على أنّ المفارقة بين الزّوجين إنْ تمّتْ إنّما تتمّ بالجمال؛ أي: اللّطف والرّقّة والرّحمة دون بشاعة ودون عنف؛ لأنّ التّسريح في ذاته مفارقة مؤلمة، فلا يجمع الله ﷻ عليها شدّتين: شدّة الطّلاق، وشدّة القسوة، ولنا أنْ نلحظ أنّ لفظ الجمال يأتي في القرآن الكريم مع الأمور الصّعبة الّتي تحتاج شدّة، ولنقرأ قوله ﷻ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ [يوسف: من الآية ٨٣]، والصّبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضَجَر، أو شكوى، ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التّسريح الجميل الّذي لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهنّ، وما كان رسول الله ﷺ ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ المَغازي، بابُ غَزوَةِ الخَنْدَقِ، الحديث رقم (٤١١٠).

وللعلماء كلام طويل في هذه المسألة: هل يقع الطّلاق بهذا التّخيير؟ قالوا: التّخيير لَوْنٌ من حبّ المفارقة الّذي يعطى للمرأة -كما نقول مثلاً: العِصْمَة في يدها- فهي تختار لنفسها، فإنْ قَبِلت الخيار الأوّل وقع الطّلاق، وإن اختارت الآخر فَبِها ونعمتْ، وانتهتْ المسألة، وأمرُ الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يقول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد، وتُجبى إليه الخيرات، فتطلَّعْن إلى شيء من النّفقة.

وكلمة الأزواج: جمع زوج، وتُقال: للرّجل وللمرأة، والزّوج لا يعني اثنين معاً كما يظنّ بعضهم، إنّما الزّوج يعني الفرد الّذي معه مثله من جنسه، ومثله تماماً كلمة التّوأم، فهي تعني (واحد) لكن معه مثله، والدّليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذّاريات: من الآية ٤٩]، يعني: ذكر وأنثى.

(الآية ٢٩) - ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩﴾:

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾: المتأمّل جانبَيْ التّخيير هنا يجد أنّ المقارنة بينهما أمر يوحي برفض التّخيير بين طرفي هذه المسألة، فمَنْ يقبل أنْ تكون له حياة دنيا مقابل الله ﷻ؟ وأن تكون له زينتها مقابل رسول الله ﷺ؟ ثمّ زِدْ على ذلك الدّار الآخرة الّتي لم يُذكَر قبالتها شيء في الجانب الآخر، ثمّ إنّ الحياة الدّنيا الّتي نعيشها حتّى لو لم تُوصَفْ بأنّها دنيا كان يجب أنْ يُزهد فيها. والحقّ أنّهنّ فَهِمْنَ هذا النّصّ واخترْنَ الله ورسوله والدّار الآخرة، ومَنْ يرضى بهم بديلاً؟!

ثمّ يأتي جزاء مَن اختار الله ورسوله والدّار الآخرة:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾: المحسنة هي الزّوجة الّتي تعطي من الرّحمة والمودّة الزّوجيّة فوق ما طُلب منها.

(الآية ٣٠) - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾:

الحقّ سبحانه وتعالى بعد أنْ خيَّر زوجات النّبيّ صلى الله عليه وسلم فاخترْنَ الله ورسوله والدّار الآخرة أراد سبحانه وتعالى أنْ يُعطيهنّ المنهج والمبادىء الّتي سيسِرْنَ عليها في حياتهنّ، ونلحظ أنّ آية التّخيير كانت من كلام النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن ربّه عز وجل، أمّا هنا فالكلام من الله سبحانه وتعالى مباشرة لنساء النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾: فبداية المسألة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾، فلمّا اخترْن الله ورسوله والدّار الآخرة كأنهنّ ارتفعْنَ إلى مستوى الخطاب المباشر من الله سبحانه وتعالى.

كلمة نساء: جمع، لكن لا نجد لها مفرداً من لفظها، إنّما مفردها من لفظ آخر هو: امرأة، وامرأة أو (مَرة) يصحّ أيضاً من (امرؤ)، وبعض الباحثين في اللّغة قال: إنّ (نساء) من النَّسْأ والتّأخير، على اعتبار أنّ خَلْقها جاء متأخّراً عن خَلْق الرّجل، ومفردها (نَسْءٌ) وإنْ كان هذا تكلّفاً لا داعيَ له.

وبعد هذا النّداء يأتي الحكم الأوّل من المنهج الموجَّه إليهنّ:

﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾: نلحظ أنّ الله سبحانه وتعالى لم يبدأ الكلام مع نساء النّبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله مثلاً: (مَنْ يتقّ الله منكنّ)، إنّما بدأ بالتّحذير من إتيان الفاحشة؛ لأنّ القاعدة الشّرعيّة في التّقنين

والإصلاح تقوم على أنّ درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة، كما أنّنا قبل أنْ نتوضّأ للصّلاة نبرّىء أنفسنا من النّجاسة، لذلك بدأ الحقّ ﷻ التّوجيه لنساء النّبيّ ﷺ بقوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، لكنّ الفاحشة أمر مستبعد، فكيف يتوقّع منتهى الذّنوب من نساء رسول الله ﷺ؟ قال العلماء: ولم لا، وقد خاطب الله ﷻ نبيّه ﷺ بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزّمر: من الآية ٦٥]، ومعلومٌ أنّ رسول الله ﷺ ليس مظنّة الوقوع في الشّرك، كذلك الحال بالنّسبة إلى نسائه: إنْ فعلَتْ إحداكنّ فاحشة، -ولن تفعل- فسوف نضاعف لها العذاب، ولن نستر عليها لمكانتها من رسول الله ﷺ، ومضاعفة العذاب؛ لأنّ الفساد تعدّى الذّات إلى الآخرين، وأحدث قدوة سوء في بيت النّبيّ ﷺ، فاستحقّتْ مضاعفة العذاب، كذلك إنْ فعلتْ إحداهنّ حسنة، فلها أجرها أيضاً مُضاعفاً؛ لأنّها فعلتْ صالحاً في ذاتها كأيّ إنسانة أخرى، ثمّ أعطتْ قدوة حسنة، وأُسْوة طيّبة لغيرها، فإنْ أخذْنا في الاعتبار حديث النّبيّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»(١)، علمنا أنّ أجر الحسنة لا يُضاعف فقط مرّتين، إنّما بعدد ما أثّرت فيه الأسوة، وفَرْق

(١) صحيح مسلم: كتاب الْعِلْمِ، بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدىً أَوْ ضَلَالَةٍ، الحديث رقم (١٠١٧).

بين الضِّعْف والضُّعْف، الضِّعْف: ضِعْف الشّيء؛ أي: مثله، أمّا الضُّعف فهو فَقْد هذا المثل، فهو أقلُّ.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: يعني: مسألة مضاعفة العذاب أمر يسير، ولن تغني عنكُنَّ منزلتكُنَّ من رسول الله ﷺ شيئاً، فهذا أمر لا يسألني فيه أحد، ولا أحابي فيه أحداً، هكذا المولى سبحانه وتعالى عندما يعطي المنهج لخلقه جميعاً.

❀ ❀ ❀

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ الحادي والعشرين

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ الكريم نُوراً لا يُطْفَأُ مِصْبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللّهمَّ اجْعَلْنا ممَّن تَأَدَّبَ بآدابِ القُرآنِ الكريمِ، وائْتَمرَ بأوامرِهِ، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهِه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِه جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

سبحانَ ربِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

تفسير سورة (العنكبوت) من الآية: (٤٦–٦٩):

٤٦– ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ١١

٤٧– ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ
هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ١٣

٤٨– ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ
ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ١٥

٤٩– ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ١٩

٥٠– ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ١٩

٥١– ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ
وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٢١

٥٢- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ... ٢٢

٥٣- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ٢٤

٥٤- ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ٢٦

٥٥- ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٢٦

٥٦- ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ٢٧

٥٧- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٢٩

٥٨- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ٣١

٥٩- ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٣٣

٦٠- ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾
.... ٣٤

٦١- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٣٥

٦٢- ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾
.... ٣٦

٦٣- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ
قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٣٧

٦٤- ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٣٨

٦٥- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ٤٠

٦٦- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٤٤

٦٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٤٥

٦٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ٤٧

٦٩- ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾
.... ٤٩

تفسير سورة (الرّوم) من الآية: (١-٦٠):

١- ﴿الم ﴿١﴾﴾ ٥٧

٢- ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾﴾ ٥٨

٣- ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ ٥٨

٤- ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾
.... ٥٩

٥- ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ ٥٩

٦- ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ ٦٤

٧- ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ ٦٥

٨- ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ
مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ ٦٦

٩- ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ
قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ ٦٩

١٠- ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا
يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ ٧٣

١١- ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ ٧٣

١٢- ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ ٧٥

١٣- ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣﴾
.... ٧٦

١٤- ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ ٧٦

١٥- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ ٧٧

١٦- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ
مُحۡضَرُونَ ١٦﴾ ٧٨

١٧- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ ٧٨

١٨- ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ ٨٠

١٩- ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾ ٨١

٢٠- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ ٨٤

٢١- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ ٨٧

٢٢- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ ٩١

٢٣- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾ ٩٦

٢٤- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ ٩٩

٢٥- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ ١٠٢

٢٦- ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ ١٠٦

٢٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ ١٠٧

٢٨- ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ ١١٠

٢٩- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ ١١٤
٣٠- ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ ١١٦
٣١- ﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾
.... ١١٩
٣٢- ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾
.... ١٢٢
٣٣- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم
بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ ١٢٢
٣٤- ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ ١٢٦
٣٥- ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾ ١٢٨
٣٦- ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ
يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ ١٣٠
٣٧- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾
.... ١٣٣
٣٨- ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ ١٣٦

٣٩- ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ
تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ ١٤٣

٤٠- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾ ١٥٠

٤١- ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ ١٥٣

٤٢- ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ ١٥٧

٤٣- ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ
يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ ١٥٩

٤٤- ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾ ١٦٠

٤٥- ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ .. ١٦٦

٤٦- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ
وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦﴾ ١٧٠

٤٧- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ
حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ ١٧٢

٤٨- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى
ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾
.... ١٧٣

٤٩- ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ٤٩﴾ ١٧٦

٥٠- ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٥٠﴾ ١٧٧

٥١- ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ٥١﴾ ١٨٢

٥٢- ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ٥٢﴾ ١٨٤

٥٣- ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم
مُّسْلِمُونَ ٥٣﴾ ١٨٦

٥٤- ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ٥٤﴾ ١٨٧

٥٥- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟
يُؤْفَكُونَ ٥٥﴾ ١٨٩

٥٦- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا
يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦﴾ ١٩٢

٥٧- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧﴾ ١٩٤

٥٨- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨﴾ ١٩٦

٥٩- ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩﴾ ١٩٧

٦٠- ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ ١٩٨

تفسير سورة (لقمان) من الآية: (١-٣٤):

١- ﴿الٓمٓ ①﴾ ٢٠٣

٢- ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ②﴾ ٢٠٤

٣- ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ③﴾ ٢٠٦

٤- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ④﴾ ٢٠٨

٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ⑤﴾ ٢١٠

٦- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ⑥﴾ ٢١١

٧- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾ ٢١٥

٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾ ٢١٦

٩- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ⑨﴾ ٢١٧

١٠- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ⑩﴾ ... ٢١٨

١١- ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ⑪﴾ ٢٢٣

١٢- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ⑫﴾ ٢٢٥

١٣- ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾
.... ٢٢٩

١٤- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ
ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ ٢٣١

١٥- ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي
ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ ٢٣٧

١٦- ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ ٢٣٩

١٧- ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ ٢٤٢

١٨- ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾
.... ٢٤٦

١٩- ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾
.... ٢٤٧

٢٠- ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ ٢٤٩

٢١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ ٢٥٥

٢٢- ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ ٢٥٧
٢٣- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾ ٢٦١
٢٤- ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ ٢٦٣
٢٥- ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ ٢٥﴾ ٢٦٤
٢٦- ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ ٢٦٦
٢٧- ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا
نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ ٢٦٧
٢٨- ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ ٢٧٢
٢٩- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ
يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ ٢٧٣
٣٠- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ
ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾ ٢٧٨
٣١- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١﴾ ٢٧٩
٣٢- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم
مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢﴾ ٢٨٢

٣٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ
عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ ٢٨٣
٣٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ
مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ ٢٨٦

تفسير سورة (السّجدة) من الآية: (١-٣٠):

١- ﴿الٓمٓ ١﴾ ٢٩٥
٢- ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ ٢٩٦
٣- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ
لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ ٢٩٧
٤- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا
لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ ٢٩٩
٥- ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ٥﴾ ٣٠٢
٦- ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦﴾ ٣٠٤
٧- ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ ٣٠٥
٨- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ ٣٠٧
٩- ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا
تَشۡكُرُونَ ٩﴾ ٣٠٨

١٠- ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾
.... ٣١٠
١١- ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ ... ٣١١
١٢- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا
فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ ٣١٣
١٣- ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ
ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ ٣١٤
١٤- ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ ٣١٦
١٥- ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥﴾ ٣١٨
١٦- ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ ١٦﴾ ٣١٩
١٧- ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ .. ٣٢٠
١٨- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ ٣٢٢
١٩- ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ ٣٢٣
٢٠- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ
ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ ٣٢٤

٢١- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢١﴾
.... ٣٢٥
٢٢- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ ٣٢٥
٢٣- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٣﴾ ٣٢٦
٢٤- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾
.... ٣٢٨
٢٥- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٢٥﴾
.... ٣٢٩
٢٦- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ٢٦﴾ ٣٢٩
٢٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ٢٧﴾ ٣٣٢
٢٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٨﴾ ٣٣٤
٢٩- ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ ... ٣٣٦
٣٠- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ ٣٣٧

تفسير سورة (الأحزاب) من الآية: (١-٣٠):

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ ٣٤١

٢- ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢﴾ .. ٣٤٤
٣- ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ ٣٤٥
٤- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ
أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ
وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ ٣٤٧
٥- ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ
وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾ ٣٥٣
٦- ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ
كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ ٣٥٦
٧- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ
وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ ٣٥٩
٨- ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾ ٣٦١
٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا
وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ ٣٦٢
١٠- ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ
ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ ٣٦٥
١١- ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾ ٣٦٦

١٢- ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾
.... ٣٦٦

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ ٣٦٧

١٤- ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾
.... ٣٦٨

١٥- ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾
.... ٣٦٨

١٦- ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾
.... ٣٦٨

١٧- ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم
مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ ٣٦٩

١٨- ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ ٣٧١

١٩- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ
مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ
يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ ٣٧٢

٢٠- ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي
الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ ٣٧٤

٢١- ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا (٢١)﴾ ٣٧٥

٢٢- ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا
زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ ٣٧٧

٢٣- ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ ٣٧٨

٢٤- ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾ ٣٨٠

٢٥- ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ ٣٨١

٢٦- ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ ٣٨٢

٢٧- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرًا (٢٧)﴾ ٣٨٢

٢٨- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ
أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)﴾ ٣٩٢

٢٩- ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ
أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ ٣٩٤

٣٠- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾ ٣٩٥
تضرّعٌ ودعاء ٣٩٨
فهرس: ٣٩٩

❀ ❀ ❀